نافذة على الغرب 5

تأليف: هنرى دى كاستري

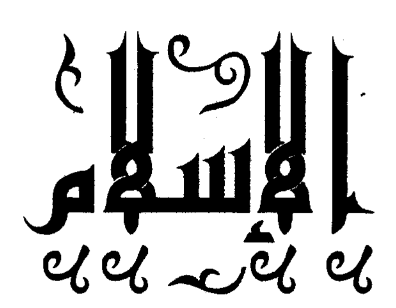
الإسلام
خواطر وسوانح

ترجمة: أحمد فتحى زغلول

قدم له وعلق عليه:

د. محمــود النجيرى

مكتبة النافذة



خواطر وسوانح

الكونت هنري دي كاستري

ترجمه من اللغة الفرنسية

أحمد فتحي زغلول

حرره وقدم له وعلق عليه

دكتور محمود النجيري

مكتبة النافذة

الإسلام خواطر وسوانح

هنري دي كاستري

الطبعة الأولى / 2008

رقم الإيداع 8834/ 2008

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى(ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787
Mob: 012 3595973
Email: alnafezah@hotmail.com

تصدير

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

كتابات الغربيين عن الإسلام ورسوله:

إن الذين يكتبون عن الإسلام من الغربيين فريقان: المستشرقون، والمستعربون. ولكل من هذين الفريقين مؤهلاته للكتابة في هذا الجانب. أما المستشرقون، فدارسون للغةِ الشرق وثقافته وأديانه، باحثون في مسائله وموضوعاته، من أجل فهم بواعثه، وتفسير تصرفاته، والتوقع لمستقبله.

وكتابات المستشرقين هذه منها الموضوعي النزيه. ومنها البعيد المغترض، الذي يهدف إلى الطعن والتشويه، ويعد طليعة للاستعمار، وأداة في يده؛ للسيطرة على الشرق وإخضاعه؛ وانتهاب ثرواته وخيراته؛ ومحاولة القضاء على ثقافته ودينه.

وأما المستعربون، فكانوا نتاج الاستعمار الاستيطاني (في الجزائر، وغيرها من المستعمرات)، حيث عاش بعض أبناء الغرب، من العسكريين والمرافقين لهم، ببلاد الشرق، وتعلموا لغاته، وخالطوا أهله، فخبروهم عن قرب، وفقهوا غور أفكارهم، وعلموا حقيقة معيشتهم، وكنه ديانتهم، معرفةً لا تحصل لأحد في غير تلك البلاد. وإن كان بعضهم لم يقرأ شيئًا كثيرًا من كتب الشرقيين.

وهؤلاء أيضًا منهم المنصف، الذي يفتح عقله وقلبه للحقيقة المجرَّدة، التي يشهد لها العقل، ويطمئن إليها القلب. فيتلطفون مع بني قومهم في عرض هذه الحقيقة؛ لعلمهم بتعصبهم ضد الشرقيين؛ واعتقادهم الضيِّق بتفوق عنصرهم وثقافتهم وكلِّ ما يخصهم- على من عداهم؛ وإغلاقهم لعقولهم عن كل قول يخالف ذلك.

ومن المستعربين هؤلاء من يستسهل أن يقول لبني قومه ما يرضيهم، ويعيش مخلصًا للأهداف الاستعمارية لبلاده، فلا يشغله بحث عن حقيقة، ولا وقوف على صواب، ولا دفع لظلم.

وقد بيَّن هنري دي كاستري أن الدول الغربية، لا تزال تنظر إلى الإسلام نظرة غير صحيحة. قال:

"الدول لا تزال حتى الساعة- على اعتقادها الذي كانت عليه أيام القرون الوسطى، وهو أن الإسلام صورة من صور الديانة الوثنية. اللهم إلا نفرًا قليلا من المستشرقين، الذين لا تأثير لآرائهم في السياسة".

من هو هنري دي كاستري؟

هنري دي كاستري، كاتب مسيحي فرنسي، عاش بين الجزائريين زمنًا طويلا، فقد كان مقدمًا بالجيش الفرنسي بالجزائر. ومن هنا جاء اهتمامه بالإسلام، من خلال مطالعته لأحوال المسلمين، والتأمل فيما يراه. والسؤال عما يعنُّ له. يقول:

"أنا عاشرتُ العرب أزمانًا طوالا، واشتغلت كثيرًا بمعرفة حقيقة طباع الشرقيين، ومذهبي مذهبُ مستعربي الجزائر".

من هنا، يُبين للغربيين أنه مؤهل للكتابة عن الإسلام، كتابة خبير بما يكتب عنه، مباشرٍ له. وقد جاء قوله حقًا قول باحث حكيم، يتحرى الحق، ولا يميل مع الهوى.

إعجاب هنري دي كاستري بالإسلام:

راقبَ دي كاستري المسلمين في عباداتهم، وخبَرَ أخلاقهم، وقارن بين إخلاص المسلمين لدينهم، واستخفاف الغربيين بالدين. ورأى ما في الإسلام من جمال المبادئ، وصدق الأخلاق، وسلاسة العقيدة، وقوة العبادة، فقال:

"أحسستُ أنني منجذبٌ بحلاوة الإسلام".

"وكنت أرى أن جمال الدين، أصدق شاهد على أنه الدين الحق".

ومزايا الإسلام كما عرضها هي:

١. أنه دين رحيم، فهو يَعِد الجنة والنعيم لكل مؤمن، من دون تمييز.

٢. ما أودعَ فيه من إعلاء شأن النفس، بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر، تذكرها خمس صلوات في كل يوم.

٣. لا يجب علي المسلم أن يحارب نفسه، ويعذبها العذاب الأليم ليقهرها. لذلك تسامح الشرع مع الناس كثيرًا في رغباتهم، وما كانوا إليه يميلون.

٤. بساطة عقيدته، وصدق تعاليمه، وموافقته للفطرة وبداثه العقول. وهذا واضح في القرآن نفسه.

أساليب نشر الإسلام ووسائله:

ذكر دي كاستري أسبابَ انتشار الإسلام ووسائله من خلال مشاهداته في أفريقيا. ومن ذلك:

١. أن رافعي راية الإسلام هم في العادة تجار، وهذا لا يوجب عند الأمم الجاهلية خوفًا منهم، ولا فرَقًا لمقدمهم، كما يحصل لهم ذلك من المبشرين المسيحيين.

٢. ينتشر الإسلام بمجرد الاختلاط والمعاشرة وحب التقليد، بدون أدنى إكراه، ولا تعيين رسل، أو مبشرين. ويتعسَّر بيان اللحظة التي يسير فيها الشخص مسلمًا حقيقيًا؛ لأن إسلامه يأتيه تدريجيًا.

٣. الإسلام دين الفطرة والعقل الصحيح. وقد شاهدنا الوثنيين المتمدنين، تركوا دينهم الهمجي؛ لعدم موافقته لما وصلت إليه عقولهم من التهذيب، وكان لهم من تهذيبهم مُعِيْنٌ على تلقي المعقولات المحضة؛ فسهَّل ذلك على المسلمين عرض مذهبهم بطريق التقرير المنطقي، وتمكنوا من إقناعهم.

٤. التعليم، وذلك بإنشاء المدارس الدينية لتعليم المسلمين الجدد، وتربيتهم على الإسلام.

٥. الزواج؛ فإن سلاطين السودان يتزوجون من العائلات الوثنية لهذه الغاية، ولا تمكث النساء وأولادهن، حتى يصير الكل من أقوى الأسباب على انتشار الدين الإسلامي.

٦. الفتوح، وذلك باكتساب أرض جديدة بين الوثنيين؛ لدعوتهم إلى الله.

٧. أن في انتشار هذا الدين سرًا من الأسرار الربانية، حيث إن الإسلام خرج من ذرية إسماعيل. وهذا مندرج تحت ما بُشِّرَ به أبو المؤمنين إبراهيم عليه السلام في

التوراة.

لماذا وضع دي كاستري كتابه؟

بيَّن دي كاستري أنه لا يكتب في الإسلام عن هوىً، ولا يقصد إلى تمجيد الإسلام تمجيدًا يخرج عن الحدِّ. وإنما يقصد إلى فهم صحيح للإسلام ورسوله ﷺ. مع علمه بأنه عمل شاق، وموقف حرج؛ بسبب ما ترسَّخ في أذهان الغربيين من صورة نمطية مشوهة عن الإسلام وأهله. وحدد أهدافه فيما يكتب بما يلي:

١. فهم الإسلام والمسلمين فهمًا صحيحًا، باعتبارهم رعايا للدولة الفرنسية. يقول دي كاستري:

" لا يكفي لأمة مسيحية متمدنة أن تحترم دين المسلمين من رعاياها. بل يجب عليها أن تسعى إلى معرفة ذلك الدين كما ينبغي".

٢. تبديد الأوهام التي علقت بأذهان الغربيين عن الإسلام ورسوله، وتصحيح الأخطاء. فإن بعض من كتبوا عن الإسلام من الغربيين ما كانوا يَقصدون الحقائق التاريخية، بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم. يقول دي كاستري:

"وأردتُ التنبيه إلى بعض أغلاط، علقتْ بالأفكار عندنا، من حيث النبي العربي، ودينه الإسلامي. وهو عمل شاق، وموقف حرج؛ إذ من المعلوم ما قيل: إنه لا يرسخ في الاعتقاد، أكثرُ من خطأ الاعتقاد". "وأشد الأوهام عندنا بالنظر إلى الديانة الإسلامية، ما اختصَّ بشخص النبي (ﷺ). ولذلك قصدتُ أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصيته، وتقرير حقيقته الأدبية، علَّني أجد في هذا البحث دليلا جديدًا على صدقه وأمانته".

٣. دعوة فرنسا إلى مسالمة المسلمين، وملاحظة جانب العدل والحكمة في إدارة الأهالي. يقول دي كاستري:

"لا ينبغي لنا أن نُعلق الآمال، بالوصول إلى تحوُّل رعايانا المسلمين في الجزائر إلى فرنسيين. بل يجب علينا أن نجتهد في أن نعيش معهم على ما يلزم من المسالمة والموادعة. وهو حل سهل بسيط، لست أدري لِمَ أهمله الباحثون، وقلَّ الإقبال عليه! كما أنني لم أقف على السبب الذي دعاهم إلى الحكم بأنه ليس

لمسلم الجزائر، إلا أن يتحول، أو أن يفنى!".

نهى دي كاستري الفرنسيين عن محاولة تنصير الجزائريين، وعن فرض الفرنسة عليهم، وعن إجبارهم على التجنس بالجنسية الفرنسية، وعن مضايقة الجزائريين لدفعهم للهجرة من بلادهم، أو محاولة إبادتهم. كما نهى دي كاستري الفرنسيين عن استعمال المسكرات التي استعملها الأوربيون للتعجيل بالإجهاز على وجود بعض الأمم المغايرة لهم. قال:

"إن المسكرات التي استعملها الأوربيون للتعجيل بالإجهاز على وجود بعض الأمم المغايرة لهم، لا تؤثر عند أهالي الجزائر؛ لأنهم يمقتونها مقتًا شديدًا".

وكذلك حذرهم من استخدام اليهود في الجزائر لطعن أهلها المسلمين. وبيَّن أن من أكبر أسباب الثورة في الجنوب، رغبة رؤساء القبائل في استرجاع امتيازاتهم؛ لأنهم من بقايا أولئك القوم الذين سادوا قديمًا في البلاد. ومن جهة أخرى: ضنك الأهالي، وخطأ الموظفين في إجراء مقتضى بعض اللوائح والقوانين.

ويدعو دي كاستري فرنسا إلى عدم التدخل في سير الدعوة الإسلامية بين الوثنيين في المناطق التي تحتلها، معللا بأن دخول الوثنيين في الإسلام هو ارتقاء بهم. وأن للإسلام الفضل في تحويل عبدة الأصنام من وثنيين إلى موحدين، وترقية أخلاقهم وملكاتهم. وهو بذلك يحاول أن يقلل من غلواء الاستعمار الفرنسي، ويردعه عن أفعاله الهمجية في أفريقيا.

متى وضع هذا الكتاب؟

قال دي كاستري في هذا الكتاب:

"مضى على الاحتلال الفرنسي في الجزائر نصف قرن، لم يؤثر في الإسلام".

وقال المترجم: "عثرت على كتاب فرنسي، ألفه الكونت هنري دي كاستري، في الدين الإسلامي، سنة (١٨٩٦م)"[١].

دخلت فرنسا الجزائر سنة (١٢٤٦هـ/١٨٣٠م). وإبان الاحتلال الفرنسي للجزائر

---

[١] على ما ذكر المترجم، فالظاهر أن الكاتب أضاف لكتابه فيما بعد هذا التاريخ؛ لأننا نجده ينقل عن الشيخ مصطفى عبد الرازق المولود في سنة (١٨٨٥م).

كانت الخطة الاستعمارية لا تستهدف احتلال الجزائر فحسب، بل مسح كل مقومات الشخصية الجزائرية بالقضاء على اللغة العربية والعقيدة الإسلامية.

لقد عملت السياسة الاستعمارية على تحويل الجزائر إلى فضاء خارجي لفرنسا، وذلك عن طريق تحويل المساجد إلى كنائس، وفرض اللغة الفرنسية، والثقافة الفرنسية، والتعليم الفرنسي. وفرض دستور سنة (١٣٣٩هـ/١٩٢٠م) الجنسية الفرنسية على الجزائريين. وكانت فرنسا بعد صدور هذا الدستور تفرض على الجزائريين واجبات المواطن الفرنسي، كالخدمة العسكرية، لكنها تحرمهم حقوق المواطنة، وتمارس عليهم تفرقة عنصرية ودينية!

وبموجب هذه السياسة، ساقت فرنسا عشرات الآلاف من شباب الجزائر إلى جبهات القتال، في أثناء الحربين العالميتين الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، والثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م)، وأجبرتهم على القتال في حروبها الاستعمارية؛ لقمع انتفاضات شعوب المستعمرات الفرنسية في سوريا وأفريقيا والهند.

تمسك الجزائريون بعروبتهم وإسلامهم، وقاوموا -اثنين وثلاثين عامًا ومئة- جنودَ الاحتلال. قدموا فيها ما لا يقل عن مليون شهيد؛ حتى أرغموا المستعمر على التسليم. وأعلن استقلال الجزائر في سنة (١٣٨٢هـ/١٩٦٢م).

سر قوة الإسلام وبقائه كما عرضها دي كاستري:

١.مقاومة المسلمين للتنصير بجميع الوسائل الممكنة، واعتزازهم بعقيدة الإسلام. يقول دي كاستري:

"فاستعصاء المسلمين على التنصُّر بواسطة المنصِّرين، واستحالة إخضاعهم بالقوة، هما السببان اللذان يعترضان تنصُّرهم". "والسبب في استعصاء المسلم على التدين بالنصرانية استعصاءً قويًا، احتقارُه النصارى، وإعجابُه- كلَّ الإعجاب- بكونه من الموحدين".

٢. جهود الجمعيات الدينية والجماعات الإسلامية، التي تعمل دائمًا على تجديد الدين الإسلامي بين جميع الموحدين، ويحرك رجالها- على الدوام- عاطفة الإيمان في قلوب المؤمنين، وتصل بين أرجاء العالم الإسلامي الواسع. يقول دي كاستري:

"ومن هنا نعلم: أن كثرة الطوائف الدينية في الإسلام، وكثرة المريدين فيها في هذه الأيام، ضرورة اقتضاها التكاتف على حفظ الدين، والتآزر على صيانة الجامعة بين المسلمين. فلو لم تقم تلك الجمعيات بحفظ الروابط بين جميع المسلمين، وجمعهم في صعيد واحد، لأصبح المسلمون كقطيعٍ عظيم من الماشية بدون راع".

٣. مقاومة مظاهر المدنية الغربية الضارة، والغزو الثقافي الاستعماري. وكثيرًا ما أخذ العربيُّ الذي يسكن المدائن عن التمدن الأوروبي رذائله ومعايبه، وخالف أوامر القرآن، وشرب المسكرات، وانطلق في حياة اللهو! فحرص دعاة الإسلام على تحذير المسلمين من هذا الخطر الداهم.

ومع ذلك يقدم دي كاستري نصيحته وتحذيره للمسلمين: "فالفوضى علة الإسلام الباطنية". كما يراها. والله ﷻ يقول: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦).

ويقول دي كاستري: "ولولا الانقسام الداخلي، والاضطرابات التي حدثت بين المسلمين في غابر الأزمان، لما نجت النصرانية. وهذه الأسباب نفسها تضعف العزيمة عن القيام بتوحيد كلمة الإسلام، ولولاها لما حفظت فرنسا أملاكها مع ما ارتكبته من الخطأ، وما تأتيه من الأغلاط في أفريقيا الشمالية".

من شهادات دي كاستري المنصفة للإسلام:

في هذا الكتاب أقوال منصفة، صدرت من قلمٍ أراد الحقيقة المجرَّدة، فوُفِق كثيرًا لبلوغها، وجاءت عبارات من الصدق، نُحبُّ أن نبرزها هنا. منها قوله في فضل الإسلام:

"إن المسيحيين أيام الحروب الصليبية، ما دخلوا بلادًا إلا وأعملوا السيف في يهودها ومسلميها. وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مُجيرًا وملجأ في الإسلام. فإن كانت لهم باقية حتى الآن، فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم".

" لو لم يكن للإسلام من فائدة، إلا تحويل عبدة الأصنام من وثنيين إلى موحدين، وترقية أخلاقهم وملكاتهم، لكفى بذلك داعيًا إلى معاملته بسياسة التلطف والاعتدال".

وقال ردًّا على من زعم أن الإسلام انتشر بالسيف والإكراه:

"ولو كان دين محمد (ﷺ) انتشر بالعنف والإجبار، للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين، مع إننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع أرجاء المسكونة".

"يتحقق أن الدين الإسلامي لم ينتشر بالعنف والقوة، بل الأقرب للصواب أن يقال: إن كثرة مسالمة المسلمين، ولين جانبهم، كانا سببًا في سقوط المملكة العربية (في الأندلس)".

"ومن المظنون أن المسلمين لو عاملوا الأندلسيين مثل ما فعل المسيحيون بالأمم الساكسونية، و"الوانديه" لأخلدت إلى الإسلام، واستقرت عليه؛ لأنها مع تمتعها بحرية دينها المسيحي، كانت كثيرة الانشقاق والأحزاب".

"إن ديانة القرآن تمكنت من قلوب جميع الأمم اليهودية والمسيحية والوثنية، في أفريقيا الشمالية، وفي قسم عظيم من آسيا، حتى أنه وُجِد في بلاد الأندلس من المسيحيين المتنورين مَن تركوا دينهم حبًا في الإسلام. كل هذا بغير إكراه، إلا ما كان من لوازم الحروب، وسيادة حكومة الفاتحين، ومن دون أن يكون للإسلام دعاة وقوَّام مخصوصون. وهو مما يقنعنا بأن في الإسلام جاذبية وقوة انتشار".

وقال عن أناشيد المنشدين النصارى في القرون الوسطى:

"... ما كانوا يَقصدون الحقائق التاريخية في أناشيدهم، بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم؛ فاحتاجوا في ذلك إلى وصف المسلمين ونبيهم ودينهم، بالأوصاف التي تؤثر في نفوس المنشود لهم، على حسب معارفهم وأميالهم".

وقال مبرهنًا على صدق محمد ﷺ:

"ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي محمد (ﷺ) من مطالعة التوراة والإنجيل؛ إذ لو قرأ تلك الكتب لردَّها؛ لاحتوائها على مذهب التثليث، وهو مناقض لفطرته، ومخالف لوجدانه منذ خلق. فظهور هذا الاعتقاد بواسطته- في جزيرة العرب- دفعة واحدة، هو أعظم مظهر في حياته، كما أنه بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته، وأمانته في نبوته".

كلمة عن المترجم:

أحمد فتحي زغلول (١٢٧٩هـ/١٨٦٣م-١٣٣٢هـ/١٩١٤م) ولد في قرية إبيانة التابعة لمديرية الغربية. وهو الشقيق الأصغر للزعيم المصري سعد زغلول. وكان والده رئيس مشيخة القرية الذي توفي عندما كان أحمد يبلغ سنتين، فنشأ يتيما هو وأخوه سعد.

شارك في الثورة العرابية، وكان من خطبائها. وعندما فشلت، واحتل الإنجليز مصر، طرد من المدرسة بقرار من وزير المعارف، فقام بتغيير اسمه، والتحق بمدرسة الألسن عام (١٣٠١هـ/١٨٨٣م)، وسافر في تلك السنة لدراسة القانون في أوربا، وعاد في سنة (١٣٠٥هـ/١٨٨٧م)، حيث عين في القضاء، وتدرج في مناصبه حتى أصبح رئيسا لمحكمة مصر.

وساهم مع أحمد لطفي السيد في إنشاء جريدة "الجريدة"، وكان عضوًا مؤسسا في "الجمعية الخيرية الإسلامية". وساهم في وضع نظم المعاهد الدينية الأزهرية.

ولم تكن تربطه علاقة جيدة بأخيه سعد، ويرجع هذا إلى عوامل الغيرة والتنافس؛ فقد كان يرى أن أخاه سبب في الحيلولة دون ترقيه إلى الوزارة، وكان يعتقد أنه يتمتع بمواهب وقدرات تفوق سعدًا، وقد أورد سعد في مذكراته جانبًا من شخصية أخيه.

على حين ربطت أحمد فتحي زغلول علاقة قوية باللورد كرومر- المعتمد السامي البريطاني في مصر- وشارك قاضيًا في محكمة دنشواي سنة (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م)، التي قضت بإعدام عدد من الفلاحين أمام أهليهم؛ وهو الحدث الذي هزَّ الوجدان الشعبي المصري. وكان لهذه الحادثة المؤلمة أثرها القاتم على تاريخه وسيرته وأعماله، فهو الذي صاغ حيثيات الحكم الظالم. وإذا ذكر اسمه اقترن بما ارتكبه في دنشواي.

كان أحمد فتحي زغلول من رواد حركة الترجمة في مصر، بالإضافة لاهتماماته السياسية والتعليمية والصحفية. وكان يرى أن حركة الترجمة، تسبق حركة التأليف في نهضة الأمة، وساعده في ذلك إتقانه اللغتين الإنجليزية والفرنسية، بجانب امتلاكه ناصية اللغة العربية.

ومن أعماله الكبرى في الترجمة:

١. سر تقدم الإنجليز السكسون: لإدمون ديمولان[١].

٢. سر تطور الأمم: للدكتور جوستاف لوبون[٢].

٣. روح الاجتماع: للدكتور جوستاف لوبون[٣].

٤. أصول الشرائع: لجيرمي بنتام (١٧٤٨-١٨٣٢)، فيلسوف العلمانية[٤].

٥. الإسلام خواطر وسوانح: للكونت هنري دي كاستري. وهو كتابنا هذا[٥].

كما ألف بعض الكتب مثل:

١. المحاماة في كل زمان ومكان. وهو أول مصدر عربي في تلك المهنة[٦].

٢. شرح القانون المدني. مهَّدَ فيه الطريق أمام رجال القضاء والقانون لاستحداث لغة قانونية عربية دقيقة[٧].

٣. الآثار الفتحية. خواطر في العلم والآداب والاجتماع[٨].

عملي في هذا الكتاب:

١. تحرير النص، وإصلاحه مِمَّا به من ركاكة في الترجمة أحيانا، وألفاظ بعيدة عن الصواب، أو المألوف لنا الآن أحيانا أخرى.

٢. تصويب الأخطاء التي وقع فيها الكاتب، ومنها أخطاء عن الإسلام، جاءت من رجوعه إلى مراجع بعينها، دون أن يدقق ما فيها. وهي أخطاء في مسائل فرعية على أية حال.

---

[١] مطبعة المعارف، القاهرة، ١٨٩٩.

[٢] مطبعة المعارف ١٣٣١هـ. ودار النفائس للطباعة، بيروت، ١٩٨٧.

[٣] مطبعة الشعب، القاهرة، ١٣٢٧هـ.

[٤] مطبعة بولاق، القاهرة، ١٣٠٩.

[٥] طبع في مصر في مطبعة المعارف، ١٣١٥هـ/١٨٩٨م. وطبع بمطبعة السعادة. كما طبع في دار الفرجاني بليبيا.

[٦] طبع بالقاهرة، سنة ١٩٠٦.

[٧] طبع بمصر، ١٩١٣م.

[٨] عني بجمعها عبد العال أحمد حمدان. وطبعت بمطبعة محمد مطر، بالقاهرة.

٣. الاعتناء بالنص القرآني، ورسمه من المصحف الشريف.

٤. تخريج الأحاديث التي رجع إليها الكاتب، والحكم عليها، وبيان معناها عند الحاجة.

٥. توثيق نصوص العهد المقدس.

٦. ضبط الألفاظ المشكلة، والتعريف بالألفاظ الغريبة.

٧. التعريف بأهم الأعلام والمدن والأحداث التاريخية التي ذكرها الكاتب.

٨. التعليق بما يلزم على مادة الكتاب تعليقًا موجزًا. ومناقشة أهم القضايا التي تحتاج إلى نقاش.

٩. التقديم بدراسة عن الكاتب والكتاب، والمترجم.

دكتور محمود النجيري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فإني عثرت على كتاب فرنسي، ألفه الكونت هنري دي كاستري، في الدين الإسلامي، سنة ١٨٩٦م. ولمّا فرغتُ من قراءته، وجدتني منساقًا إلى ترجمته. فلمْ يدركني ملل ولا نصب، حتى أتيتُ على آخر الكتاب، وعدتُ فراجعتُ الترجمة، فإذا هي تكاد أن تكون حرفاً بحرف.

ثم توجهتْ الفكرة إلى طبع هذه الترجمة، ونشرها على الناطقين بالعربية، فاعترضني بعض الأصدقاء، بعد أن أريته شذرات من الترجمة. وكان من رأيه عدم النشر بالطبع، واحتجَّ بأنه: على الرغم من كون الكتاب غاية في التدقيق، قاصدًا نهاية التحقيق، غير أنه اضطر إلى ذكر ما كانَ- وإن كان يعتقده، أو يتوهمه مسيحيو الأعصر الخالية في الدين الإسلامي من الشناعات والسباب. وذكر مثل هذه الأشياء، وإن كان على سبيل الرد عليه، ربما اشمأزتْ له النفوس، ووقعَ من المطلعين عليه موقع الاعتراض وعدم القبول، فهو لا يروق من هذه الجهة جماعة المسلمين.

وإنني لم يكن ليخطر ببالي مثلُ هذا الخاطر، ولم يدرْ في خلدي أن يعترض واحد على ذكر هذه الأشياء في الكتاب. وهي لم تُذكر من المؤلف- وهو

مسيحي- على أنها حقائق، بل أوردها على أنها أوهام، عَلَقتْ بأذهان المسيحيين من تلك الأعصر، وترتب عليها ارتسام المسلمين في مخيلاتهم بالصور الشنعاء. وأراد المؤلف محو هذه الصور من مخيلات الأجيال الحاضرة، فبرهن وأقنع، واستدلَّ بالحجة القاطعة على أن تلك موهومات، لا نصيب لها من الحقيقة. وذكر أسباب إيجادها في النفوس، ورغب إلى قومه أن يستبدلوا تلك الصور المشوهة بصورة الإسلام الحقيقي، وما يدعو إليه من خير وإصلاح.

فلذلك، لم أُعَوِّل على استشارة ذلك الصديق في التأخر في الطبع، إلا أنه أوجبَ عندي استشارة غيري وغيره ، فرأيت أمام الصديق المعارِض أصدقاءً موافقين، وغيرهم مستحسنين، وغيرهم آمرين.

وبالطبع، غلب رأيُ الأكثرين رأيَ الواحد، وخصوصًا أنه لم يستند إلا على شيء قال: ربما يحصل. ونحن نقول: ربما لا يحصل، وإن حصل فهو من عدد قليل، وأنه لو لم يذكر المؤلف ما ذكره من تلك الموهومات، ونبه على فساده، وبرهن على خلافه، لبقي مركوزًا في أذهان قومه، ويقينا ونبينا (ﷺ) عندهم على ما توهمه السابقون منهم. أما وقد فعل، فلا شبهة في أنه خَدَم ما استطاع، ووَجَبَ علينا شكرُه ما استطعنا.

ومن تمام شكره، إعلامُ قومنا بكتابه. ولكننا لم نرد أن نأخذه بدون إذنه، واستمنحناه الإذن فيه، فتفضل بالإجابة. وكان له بذلك الشكر والامتنان.

على أن إمكان اشمئزاز البعض مما جاء في هذه الكتاب، مِن الأقوال التي ردَّها المؤلف، ودلَّ على خطئها بالبرهان، لا يقابل الفائدة التي نراها من نشره. والذي يقصد الفائدة، ويتحرى مآخذها، لا ينبغي له أن يلتفت إلى ما عساه يكون من تقزز بعض القراء، فإنهم لو أنصفوا لما نَفروا.

هذا، وإن قومي لعلى علم تام من أن مقصد مثلي حسَن، وغرضي إنما هو التنبيه على أنه قد وُجد من غيرنا مَن قام للدفاع عنا، بذكر الحقائق، وسرْد الوقائع التاريخية الصادقة. فسَفَّهَ رأيَ قومه فينا، وأبانَ لهم وجهي الخطأ والصواب.

ومن الواجب علينا: أن نعرف ما قيل، وما دفع به الدافعون، وليتهم كانوا منا، وأن نتعرف صاحبي الرأيين، فنعرف المخطئ، ولا ندع له باباً آخر للطعن علينا، ونعرف لذي الصنيعة صنيعه الجميل، فنزيده اعتقادًا باستحقاقنا لما صنع. وفينا

كتاب الله، أعظم مرشد لهذا السبيل، فقد حكى بعض المذاهب بنصِّها وفصِّها، وردَّ عليها بغاية الإيضاح والتبيين[١].

وعندنا كتب سادتنا الأولين، في علوم الأصول والكلام، وكأنها تحكي المذاهب الباطلة مفصَّلة، وتردُّ عليها. ومن علمائنا السابقين من يوجب حكاية المذهب الفاسد، ليتمكن المطلع من الرد عليه بالدليل[٢].

فإذا كان هذا هو الحال في المذاهب التي قررها أصحابها، ويُخشى حقيقة من انتشارها؛ لأنها مبرهنة بنوع من البرهان، وإن كان فاسد المقدمات. فما الظن بما حكاه الغير عنا على وجهه، إما غلطا، أو قصدًا لغرض مخصوص.

أظن أنه لا يختلف اثنان في أنه من ألزم الواجبات حكاية ما حكوه، وإشهار ما قالوه. وإذا كان الغرض في القسم الأول هو الرد عليه، فليكن الغرض من هذا القسم معرفة ما رمينا به، وهذا بلا ريب ينتج الرسوخ في العقيدة عندنا، وينتج أيضًا اقتناع الواهمين بضد ما توهموه. وهذه النتيجة تقصد لكبار العقلاء، ويحبها أفاضل العلماء.

وفوق هذا، فإنا إذا ذكرنا ما قالوه قدْحاً علينا، أو طعنًا في ديننا أو صاحبه- عليه الصلاة والسلام- نرجع إلى أنفسنا، ونبحث عمَّا إذا كان لأقوالهم من إهمالنا منتزع، أم لا. فإن كان لهم منها منتزع، علمنا كما هو الصواب، أنه ليس من أصل الدين، فلا نلبث أن نتباعد عنه، ونرجع لأصل الدين القويم، ولا نحيد عن العمل به بحال من الأحوال.

وإن لم يكن لهم من أعمالنا منتزع، أدركنا أن لهم غرضًا مخصوصًا، وعملنا

---

[١] من ذلك قول الله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} (المائدة: ١٨).

[٢] قال علي القاري: "اعلم أن الله سبحانه قد حكى مقالات المفترين عليه وعلى رسله في كتابه، على وجه الإنكار لقولهم، والتحذير من ضلالهم، والوعيد على وبالهم في مآلهم. وكذلك وقع في أمثاله من أحاديث النبي ﷺ. وأجمع السلف والخلف، من أئمة الدين، على ذكر حكايات الكفرة والملحدين في كتبهم وفي مجالسهم؛ ليبينوها للناس؛ وينقضوا شبههم الموجبة للالتباس" (الرد على وحدة الوجود ١٣٢/١).

على ما يزيل هذا الوهم من أنفسهم، أو يدفع بهم إلى تغيير غرضهم فينا. وهمْ لا شك مجتنبوه إذا رأوا منا ذلك المنهج المعتدل، والسيِّر على الصراط المستقيم، فإن مقاومة الوهم بمثله لا تفيد.

ثم إنه لا يُنكر أن في همتنا قصورًا عن البحث فيما يعتقده الناس فينا، فإذا قيَّض الله لنا مَن بَحَثَ بَدَلَنا، ورد الشبَّه عنا. فما أجدرنا بقبول عمله، وإظهار الرضا به، وما أولانا بنشر تحقيقاته بيننا؛ حتى تعمَّ فائدتها جميعًا. وربما جرَّنا هذا إلى الاشتغال بأنفسنا، فإنه ما حكّ جسمك مثل ظفرك، ولا أحسن من أن يتولى الإنسان مصالحه بيده، مع حفظه حق مرشديه، وعدم إنكار صنيعهم الجميل.

لقد رأيت للمؤلف من التثبت في العقل، والاعتدال في الحكم، واستعمال الذوق في الرد، وإعمال العقل في النقد، وطريقه والاستشهاد بالوقائع التاريخية، ما فاقَ به سواه من مؤلفي زمانه. فبانَ لي أن غرضه الحقيقة أيًّا كانت. ولا أؤاخذه في بعض مواضع كتابه، مما لم يطابق نقله الأحكام الشرعية، إذ ربما اعتمد فيه على قول بعض النقلة، وربما كان نقله صحيحًا على بعض المذاهب، التي لم أقف أنا عليها؛ ولذا لم ألاحظ عليه في الهامش ملاحظات مستقلة.

وفضلاً عن هذا، فإنني رأيت أن تكون الترجمة نقلا للأصل برُمَّته؛ ليُعلم ما قَصد، وما كتبَ، ويكفينا منه أنه طالب للحق، وإن جاء في بعض آرائه ما عساه يحمل على الخطأ، مثل الذي له في التأويل والحكاية عن أخلاق رسول الله ﷺ، وأعماله، واعتقاداته.

على أنه لا يفوت قراء الترجمة، أن الكتاب كُتب لينشرَ بين قوم المؤلف، وكان لابد له من ملاحظة أفكار المكتوب إليهم وأحوالهم. وربما اضطر في ذلك إلى إبراز بعض الحقائق الثابتة عنده في صورة الاحتمال والإمكان، كما يشير إليه كتابه إليَّ إيذانًا بنشر ترجمته، كذلك لم أشأ أن أكون معه من المجادلين، لئلا تضيع الحقيقة، أو ينجر الأمر إلى الإنكار على صاحب مقصد حميد.

هذا، وإني تارك هنا ما نحن عليه من وقوف حركة النظر، ومن تعطيل قوة البحث في العلوم، ومن ترك ما دعينا للعمل به من قواعد الدين، ومن الابتداع فيه، وعدم العمل بزواجره، واجتناب نواهيه، ومن إغفال ما حثنا عليه من العلوم

النافعة، والتربية الناجعة. فإن ذلك وإن كان له مساسٌ بما نحن بصدده، إلا أنه يقتضي الشرح الطويل، مما لا يحتمله هذا المقام.

لكننا نقول قولة مُجملة: بأن الإسلام يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ولا يرضى منا بالغفلة عن المنافع والمصالح، ويطالبنا بدفع المفسدة، ويحثنا على مكارم الأخلاق، ويبين لنا أن كل بدعة ضلالة، وأن كل ضلالة في النار، وأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأن العلم يُطلب ولو في الصين، وأن لا شيء من العلم ضار، ولا شيء مَن الجهل مفيد، وأن من أحدثَ في الدين ما ليس منه فهو ردٌّ عليه.

هذه هي تعاليم الإسلام. إلا أن الأعصر الحاضرة، قد خرجتْ بالدين إلى ما ليس منه، فعطلتْ شعائره الحقيقية، وأدخلت فيه البدع، وتغلبتْ المعتقدات الفاسدة على القواعد الصحيحة، وتمسَّكَ الناس بالبدع، وتركوا الفروض والواجبات، وكاد القرآن يُتلى مع الآلات المطربة، والصلاة تؤدى في الحانات، واندثرَ العلم، وانحلتْ العزائم، وقعدْنا عن تحصيل القليل من ضرورياتنا، وتأخرتْ التربية، ففسدتْ الأخلاق، وتناكرتْ النفوس، فاختلفت المساعي، وتعاكست المقاصد، فتفرقت المنافع، وانحل عقد نظام المسلمين، فأصبحوا أشتاتًا، يمقتهم الناس، ويرمونهم بالانحطاط، ويعيِّرونهم بما تنزه عنه شرعهم، ولكنهم ألفوه، وبالغوا في التمسك به، حتى تبدَّلت الأحوال، وصار كما قال صحاب المنار[١]:

"... الجبْرُ توحيدًا، وإنكار الأسباب إيمانًا، وترك الأعمال المفيدة توكلاً، ومعرفة الحقائق كفرًا وإلحادًا، وإيذاء المخالف في المذهب دينًا، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحًا، واختبال العقل، وسفاهة الرأي- ولاية وعرفانًا، والذلة والمهانة تواضعًا، والخضوع للذل والاستبسال للضيم- رضًا وتسليمًا، والتقليد الأعمى لكل متقدم- علمًا وإتقانًا".

نعم، كان هذا كله، وأكثر منه، مما نُمسك عنه. وإنما سُقنا ما ذكرناه، معذرةً لمن يفهم من الأجانب؛ أن سوء حالنا آتٍ من جهة ديننا؛ وأن رضوخنا للجهالة إحدى دعائمه، كما يتبين من عرض أفكارهم في هذا الكتاب، والدين براء منه.

---

[١] صحاب المنار: هو الشيخ محمد رشيد رضا- رحمه الله. والمنار هو تفسيره للقرآن الكريم.

وكيف نطلب منهم حسن الاعتقاد في الإسلام، وهم يرون المسلمين يأتون من الأعمال ما لا ينطبق على عقل، ولم يقل به شرع، اللهم إلا إذا كان كما فهموه منا.

إنهم في الحقيقة معذورون إذا نسبوا أعمالنا هذه إلى الدين؛ فإنهم لا يُفرِّقون بين ما هو منه، وما هو بعيد عنه، وليس لهم إلا أن يعتقدوا بأن عملنا مأمور به، لا منهي عنه.

إلى هنا نمسكُ القلم، ونتركُ القولَ للمؤلف، سائلين أن يستصحب القارئُ معه في قراءة هذه التّرجمة، ما قدَّمنا من الملاحظات.

وبالله الاستعانة، وعليه الاتكال في صلاح الأعمال.

المترجم

مقدمة المؤلف

كنت ذات يوم، أجوب الصحاري في ولاية حوران، بين زرقوم، وسجير، وخلفي ثلاثون فارسًا كريمًا، من أولاد يعقوب[١]، يمشون جماعات؛ لأن حدَّة الخيل كانت تمنع من انتظامها، وتجعل بعضها إذا مسَّه التالي، يصهل صهيل الغيظ، ثم يلفت وجهه إلى الوراء، ويضرب بأرجله في الهواء، وعمَّا قليل تسكن ثورته، وتعود الجياد إلى خطاها مطمئنة، يسير أمام الكلِّ حادٍ على فرس عظيمة بيضاء، لا يهدأ لمرآها ساكنُ الجياد، وهو يترنم بما ينعش الجمْع من كلام، أغلبه مديح في كاتب هذه السطور.

فكنت فيهم كسلطان، يتسابق كل واحد من حاشيته إلى إرضائه، باستعمال ما حفِظ الشرق من جوِّ الانحطاط النفسي في مثل تلك المعاملات. وكنت أصغي إلى أشعارهم ساعاتٍ متتابعة بغير ملل، وقد وعيتُ بعضًا منها. وكلها أراجيز محبوكة الأطراف، غير تامة المعنى بذاتها، فلا تميز بين المادح والممدوح، والمخاطب والمتكلم، بحيث يصعب علينا- معشر الغربيين- إدراك مراميها.

وكنت أبلغ الخامسة والعشرين من العمر، والفصل فصل الشتاء، ويومنا يوم جميل. تنشط الأبدانَ حرارتُه، ويبلغ ضوؤه حدَّ البهاء، وروائحه تنعش السالكين، وتجعل المستنشق شاعرًا بتمام الحياة. يخالجني- مع ذلك- إحساس آخر، هو شغفي بتلك الممدوحة، التي كان اسمُها يروح ويغدو في أقوال أولئك الشجعان.

وبينما نحن سائرون على هذه الحالة، إذ سكت الشاعر، والتفت قائلا بصوت خشن: سيدي! الآن وقتُ العصر.

هنالك ترجَّلتْ الفرسان، واصطفوا لصلاة العصر مع الجماعة. والصلاة مع

---

[١] أولاد يعقوب: قبيلة من قبائل الجزائر.

الجماعة مفضّلة عند الله في اعتقاد المسلمين[1]- كما هي كذلك عن المسيحيين.

أما أنا فقد ابتعدتُ عنهم، وكنتُ أودُّ لو انشقت الأرض فابتلعتني. وجعلتُ أشاهد البرانس العريضة تنثني وتنفرج بحركات المصلين، وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع: الله أكبر. الله أكبر.

فكان هذا الاسم الإلهي يأخذ من ذهني مأخذًا، لم يوجده فيه درْس الموحدين، ومطالعة كتب المتكلمين. وكنت أشعر بحرج، لستُ أجد لفظًا يعبر عنه، سببُه الحياء والانفعال.

أحسُّ بأن أولئك الفرسان، الذين كانوا يتدانون أمامي قبل هذه اللحظة، يشعرون في صلاتهم بأنهم أرفعُ مني مقامًا، وأعزُّ نفسًا. ولو أنني أطعت نفسي لصحت فيهم: "أنا أيضًا أعتقد بالله، وأعرف الصلاة، وكيف أعبد!".

فما أجملَ منظر أولئك القوم في نظامهم لصلاتهم بملابسهم، وخيلٌ بجانبهم أرسانُها[2] على الأرض، وهي هادئة كأنها خاشعة للصلاة. تلك هي الخيل التي كان يحبها النبي (ﷺ)، حبًا ذهبَ به إلى أنه كان يمسح خياشيمها[3] بطرف إزاره؛ عملا بوصية جبريل عليه السلام[4].

---

[1] أتى في فضل صلاة الجماعة أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ. منها قوله: "صلاة الرجل في الجماعة، تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسة وعشرين ضعفا. وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحُط عنه بها خطيئة. فإذا صلى، لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صلِّ عليه. اللهم ارحمه. ولا يزال أحدكم في صلاة، ما انتظر الصلاة" (أخرجه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة، ٦٢٠. ومسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة، ٢٤٩).

[2] أرسانها: جمع رَسَن. وهو الحبل الذي تقاد به.

[3] خياشيمها: جمع خيشوم. والخَيْشُوم من الأَنف، ما فوق نُخْرَتِهِ من القَصَبة، وما تحتها من خَشارِمِ رأسه. وقيل: الخَياشِيمُ غَراضيف في أَقصى الأَنف، بينه وبين الدماغ. وقيل: هي عُروق في باطن الأَنف. وقيل: الخَيْشُومُ أَقصى الأَنف (لسان العرب ١٢/١٧٨).

[4] عن محمد بن يسار، أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة، وهو يمسح وجه فرسه بثوبه. فقال: "إن جبريل عاتبني في الخيل البارحة" (أخرجه مالك في الموطأ- رواية يحيي الليثي،

وكنت أرى نفسي وحيدًا في عرض هذه الصحراء، على ما أنا به من اللباس العسكري الضيق، الذي يبرم فيه الجسم الإنساني بغير احتشام، تلوح عليَّ سماتُ عدم الإيمان، في مكان هو مسقط رأس الديانات. كأنني من الحجَر، أو من الكلاب، أمام أولئك القوم الذين يُكررون إلى ربهم صلوات خاشعة، تصدر عن قلوب ملئت صدقًا وإيمانًا.

وبينما أنا كذلك، إذ جال بخاطري ما وَرَدَ في التوراة من أن الله يسكن خيمة سام، ويكثر من أولاد يافث[1].

وقد كان الفريقان مجتمعين في ذلك المكان: أولئك المصلون الذين هم ولد سام، معجبون بدينهم وعبادة ربهم ورب آبائهم، الله الذي دخل خيمة إبراهيم. وأنا ابن يافث الذي يمتد ذكره بالحرب والفتوح.

ولما انتهى بنا الطريق، ورجعتُ إلى مكان راحتي، جعلتُ أكتب ما علق بذهني من الأفكار، فأحسستُ أنني منجذبٌ بحلاوة الإسلام، كأنها أول مرة شاهدت في الصحراء قومًا يعبدون خالق الأكوان. وذكرت خيام النصارى، حيث لا متعبِّد فيها غير النساء. وأخذني الغضب من كفر أبناء الغرب، وقلة إيمانهم.

كنت في سنٍ يستسهل العقل فيها حل المشكلات، ويأخذ الأشياء من ظواهرها، ويحل الخيال فيه محلِ النقد والتنقيب، ويعتقد المرء في الأمور بغير قيد. وهي سن، لو أنصف أهلوها، لمَا كتبوا وألفوا. وكنت أرى أن جمال الدين، أصدق شاهد على أنه الدين الحق. وصرتُ أكتب في الإسلام، غير شاعر بما يخطه القلم طوعَ الفؤاد.

ولو أني اتبعت مجرد الظواهر، وقضيتُ على الأمور بغير تأمل وتدقيق، لجاء كتابي مذمومًا، ورماني المستشرقون بالخفة والطيش، كما يرمون بحق بعض مؤلفي الجزائر من الأوروبيين. ذلك أن المشتغلين بالإسلام في هذه الأيام فريقان: المستشرقون الذين هم من أفاضل العلماء، ومستعربو الجزائر من الإفرنج أيضًا.

ومما لا شبهة فيه: أن القسم الأول قد أفاد العلم أكثر من القسم الثاني؛ فإنَّ

كتاب الجهاد، باب ما جاء في الخيل، ١٠٠٢. وسعيد بن منصور في السنن، باب إكرام الخيل والقيام عليها، ٢٤٣٨. واللفظ له).

[1] التكوين ٩:٢٧ "ليفتح الله ليافث، فيسكن في مساكن سام. وليكن كنعان عبدًا لهم".

أعمالهم أنتجت كثيرًا من العناصر والمواد التي يسهل بها اليوم وضع تاريخ الإسلام؛ لأن ذلك التاريخ لا يزال- مع ما تقدمَ- في عالم الغيب. وبعدهم يأتي مستعربو الجزائر، على نسبة الفرق بين غزارة المادة في العلم، وسلامة النظر في الموجودات.

وهم يعيشون مع المسلمين، ويفقهون غور أفكارهم، ويعلمون حقيقة معيشتهم، وكنه ديانتهم، معرفةً لا تحصل لأحد في غير تلك البلاد. وبهذا يرون أن لهم الحق في أن يكتبوا عن الإسلام كالمستشرقين.

نعم، إنهم لم يقفوا على جميع ما ألفه المسلمون في الحكمة وعلم الكلام، ولكني لا أرى ذلك نقصًا كبيرًا؛ إذ معرفة حقيقة الإسلام في هذا العصر، لا تحتاج إلى سعة اطلاع ديني.

على أن مطالعة جميع الكتب التي وُضعتْ في مبدأ ظهور هذا الدين، إنما تجب على المؤرخ أكثر من غيره؛ لأن علم الكلام وحب الخوض فيه قد اندثر منذ القرن الثاني عشر، حيث أصبح الدين الإسلامي قويًا متينًا، لا تؤثر فيه مناقشة الباحثين، وتخاصم المنتقدين، كما أودَتْ بأصول الديانات الأخرى. فمن ذلك الحين صار كل مسلم، من عالم وجاهل، ومن أمير وحقير، مؤمنًا إيمانًا لا احتياج لتحكيم العقل في تحصيله. بل هو إيمان وجداني بسيط، قوي في النفس، متمكن من القلوب. وذلك لا يُشاهد في الأمم المسيحية إلا عند الفحامين[1].

ومما أوجب الباحثون معرفته على كل مشتغل بالإسلام، علم الأسماء المقدسة. وهو علم دقيق، لا يعرفه المستعربون كثيرًا، ولم يأتِ بالفائدة التي كانوا يقصدونها منه. ومع ذلك، فإن العجب يأخذ منهم كل مأخذ؛ إذ قرءوا ترجمة: "بسم الله الرحمن الرحيم"، التي تسبق كل سورة من سور القرآن. إذ يظهر من تلك الترجمة، أن واضعها أراد الوصول إلى أصل معنى اللفظ في الوضْع، ونسي أن ذلك البحث ربما جرَّ إلى فقد المعنى الذي يحضر في الذهن لسماعه. ومن الواضح: أن سعة العلم، وغزارة المادة، إذا بُنيتْ على الفرض والتخمين، لا يُحتج بها أمام

---

[1] الفحامون: لعله يقصد جمعية "كاربوناري = الفحامين" التي عملت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والعقود الأولى من القرن العشرين، ولعبت دورها، بالتعاون مع "غاريبالدي" لتوحيد إيطاليا.

ما اتفق الشعور العام عليه[1].

قال المستشرقون: إن "رحمن"، اسم وضعته الديانة الوثنية المسيحية لإله الشفقة.

وهو جائز. غير أن هذا اللفظ لا يدل عند المسلمين، من يوم دخوله في لغة الإسلام، إلا على صفة من صفات الله الذي يعبدونه. ولم يوجد واحد من بينهم، ذهب إلى أنه اسم من أسماءِ الألوهية المعروفة قبل الإسلام. فلستُ أرى حينئذ أن المستشرقين- مع احترامي لما يقولون- قد اكتشفوا أمرًا يقدح في صدق القرآن، وأنه يلزم لذلك نزع معنى الرفق والحنان من لفظة الرحمن؛ لأنه معنى يطابق فكر جميع المسلمين، في كل زمان ومكان[2].

---

[1] قال محمد بن إبراهيم القاسمي: "إن الرحمن الرحيم ثابتان في السبع المثاني المعظمة، متلوان في جميع الصلوات الخمس، مجهور بهما في أكثرها، في محافل المسلمين مجمعين على أنهما من أحسن الثناء على الله تعالى، وأجمله، وأفضله. متقربين إلى الله بمدحه بذلك، مظهر من أنه أحب الحمد إليه. ولذلك كرر تكرارًا كثيرًا في كتاب الله سبحانه، وفي بسم الله الرحمن الرحيم المكرر في أول كل سورة، المتبرك به في أول كل عبادة. وجُمعا معًا، ومرجعهما إلى معنى واحد، ولم يُجمع اسمان في معنى واحد، في موضع واحد قط، كالغفار الغفور، ونحو ذلك- بخلاف الرحمن الرحيم. فتأمل ذلك، فهما الغرة والمقدمة في ممادح رب العزة، في خطب المسلمين، وجمعهم وجماعتهم، وحوائجهم ومجامعهم، ورسائلهم ومكاتباتهم، وتصانيفهم وتصرفاتهم، وكل أمر ذي بال كان منهم، في مصادرهم ومواردهم، وتضرعهم إلى ربهم ودعائهم، وعند رقتهم وخضوعهم، وجدهم واجتهادهم. يلقنها سلف المسلمين خلفهم، ويتلقنهما خلفهم عن سلفهم، ويعلمهما الآباء أبناءهم، ويتعلمهما الأبناء من آبائهم. ويتردد التشفي بذكرهما بين أصاغرهم وأكابرهم، وبدوهم وحضرهم، وخاصتهم وعامتهم، وذكرانهم وإناثهم، وبلدائهم وأذكيائهم. فأي معلوم من الدين: أبين من كونهما من ممادح الله تعالى، وأشهر وأوضح، وأظهر وأكثر استفاضة، وشهرة وتواترًا؟!" (إيثار الحق على الخلق ١٢٤/١).

[2] لفظ الرحمن يشير إلى اسم من أسماء الله تعالى. وهو مختص بذاته، لا يطلق على غيره. ولم يطلق هذا الاسم على غير الله مطلقا، ولا كان لإله وثني عند العرب، أو غير العرب. وربما فهم المستشرقون ذلك من قول الله تعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} (الإسراء: ١١٠). ففهموا أن الله غير الرحمن؛ لوجود "أو"،

ولقد رأيت من الواجب، أن أبيِّن الصفات التي تُخوِّلني حقَّ الكتابة عن الإسلام قبل أن أنشر كتابي هذا: أنا عاشرت العرب أزمانًا طوالا، واشتغلت كثيرًا بمعرفة حقيقة طباع الشرقيين، ومذهبي مذهب مستعربي الجزائر. ولذلك أسأل المستشرقين- ذوي الاعتبار- عفوًا ولينًا، وأطلب منهم- قبل كل شيء- أن لا يجمعوا بيني وبين أولئك الذين يميلون إلى العرب؛ فيكتبون عن الإسلام ما تلقوه أثناء سياحة قصيرة، فجاء قولهم قولا شعريًا، حتى أن مسيو "لوزان" لم ينجُ من هذه السقطة، بل طاش قلمه، وجذبته التخيلات، فكان ممن يرى كل شيء في الشرق جميلا. وجاء رأيه في الإسلام رأي قوَّال، لا رأي باحث حكيم.

وعليه، فلست أقصد بكتابي هذا أن أمجِّد الإسلام، ولكني لما رأيتُ أنه صار من المسائل الكبرى التي اشتغلتْ بها أذهانُ الباحثين في العصر الحاضر، وأُسستْ من أجله مجلة علمية في باريس[1]، نال بها المسلمون نجاحًا، أدَّى إلى أن المسيحيين- ومنهم أولاد الصليبيين- يساعدونهم بالمال على إقامة مسجد، يعبدون الله فيه[2]. انتهزتُ فرصة هذا الميل، وأردتُ التنبيه إلى بعض أغلاط، علقتْ بالأفكار عندنا، من حيث النبي العربي، ودينه الإسلامي. وهو عمل شاق، وموقف حرج؛ إذ من المعلوم ما قيل: إنه لا يرسخ في الاعتقاد، أكثرُ من خطأ الاعتقاد.

كذلك أرى أنه لا يكفي لأمة مسيحية متمدنة أن تحترم دين المسلمين من رعاياها. بل يجب عليها أن تسعى إلى معرفة ذلك الدين كما ينبغي. فنحن نضحك إشفاقًا من سماع الأقاصيص التي نقرأها لبعض المسلمين بخصوص

الذي معناه التخيير. وأخطئوا؛ فإن الرحمن اسم من أسماء الله تعالى، ولا مغايرة بينهما. ومن زعم أن الرحمن كان اسمًا لإله وثني، فليأتنا بدليل!

[1] هي مجلة الإسلام. ظهرت في باريس، عام ١٨٩٥م- أي قبل وَضع كاستري لكتابه هذا بعام واحد. ثم خلفتها عام ١٩٠٦م مجلة العالم الإسلامي، التي صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية في المغرب. وقد تحولت بعد ذلك إلى مجلة الدراسات الإسلامية.

[2] هو مسجد باريس، ويعتبر تاريخيًا من أقدم المؤسسات الإسلامية الممثلة للمسلمين في فرنسا. انتهى بناؤه عام ١٩٢٦م، وارتبط منذ بدايته بالجالية الجزائرية بفرنسا؛ حيث يأتي تمويله من الجزائر، ويقدم مسجد باريس أيديولوجيا على أنه ممثل للإسلام العصري، المتعايش مع الحياة الأوربية. ومشهد انصراف المصلين منه يوم الجمعة حالة نادرة، لا نكاد نراها إلا في مكة، أو المدينة.

المسيحيين. ونقول: أولئك قوم جهلة متعصبون، وإنهم في بغضهم لنا مخطئون.

إلا أن المسيحيين هم كذلك في بغضهم للمسلمين، لا يعدلون. وأشد الأوهام عندنا بالنظر إلى الديانة الإسلامية، ما اختصّ بشخص النبي ﷺ. ولذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصيته، وتقرير حقيقته الأدبية، علني أجد في هذا البحث دليلاً جديدًا على صدقه وأمانته، المتفق عليها تقريبًا بين جميع مؤرخي الديانات، وأكبر المتشيعين للدين المسيحي[1].

---

[1] صدق النبي وأمانته، اعترف بها كثير من كتاب الغرب المنصفين. منهم الفيلسوف الإنجليزي "هربرت سبنسر" الذي يقول في كتابه "أصول الاجتماع": «لم يكن محمد إلا مثالاً للأمانة المجسمة، والصدق البري،، وما زال يدأب لحياة أمته ليله ونهاره». ويقول المستشرق الإنجليزي السير موير في كتابه "حياة محمد": "إن محمداً نبي المسلمين، لقب بالأمين منذ الصغر بإجماع أهل بلده؛ لشرف أخلاقه، وحسن سلوكه. ومهما يكن هناك من أمر، فإن محمداً أسمى من أن ينتهي إليه الواصف، ولا يعرفه من جهله. وخبير به من أنعم النظر في تاريخه المجيد. ذلك التاريخ الذي ترك محمداً في طليعة الرسل ومفكري العالم".

الفصل الأول

صدق محمد ﷺ

محمد والأغاني المعروفة بأغاني الإشارات
محمد والتاريخ
أصل الاعتقاد - الوحي بالقرآن
ليس محمد مبتدعًا
هل كان على الدوام صدّيقًا؟
وفاته

كنتُ كلما بحثت في الديانات، مع صاحب لي من طلبة العلم في تلمسان[١]، وأراد الهرب من الجدال، يُجيبني: هم يقولون إن لله ولدًا، وإن محمدًا لمن الساحرين!

إجابة مملوءة بالاحتقار، كما يجيب صاحبُ المعتقدِ وثنيًا، يُريدُ أن يُشفقَ عليه. وذلك مع مبالغته في احترامي، وحسن الصلات بيننا.

وكان يرى أن التثليث خرافة فادحة، كسحر محمد، وأن المسيحيين- الذين

---

[١] تلمسان: مدينة في الجزائر. وهي عاصمة ولاية تلمسان، التي تقع شمال غرب الجزائر. وتعد منطقة تاريخية وسياحية. يحدها شمالا البحر المتوسط، وجنوبًا ولاية النعامة، وشرقا ولايتي عين تموشنت، وسيدي بلعباس. وغربًا المغرب الأقصى.

اخترعوا البدعتين- قوم لا ينبغي الجدال معهم[١].

ولستُ أدري: ما الذي يقوله المسلمون لو علموا أقاصيص القرون الوسطى، وفهموا ما كان يأتي في أغاني القوَّال من المسيحيين! فجميع أغانينا- حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر- صادرة عن فكر واحد، كان السبب في الحروب الصليبية[٢]. وكلها محشوة بالحقد على المسلمين؛ للجهل الكلي بديانتهم.

وقد نتج عن تلك الأناشيد، تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد ذلك الدين، ورسوخ تلك الأغلاط في الأذهان. ولا يزال بعضها راسخًا إلى هذه الأيام. فكلُّ ناشدٍ كان يَعدُّ المسلمين مشركين، غير مؤمنين، وعبدة أوثان مارقين. وقد جعلوا لهم ثلاثة آلهة، هم على ترتيب درجاتهم: "ماهوم". ويُنطق: ماهوم، وبافوميد، وماهوميد. وهو محمد (ﷺ). ثم "آبلين"، ثم "ترفاجان"!!

وذهبوا إلى أن محمدًا (ﷺ) وضع دينه بادعائه الألوهية! ومن المستغربات قولهم: إن محمدًا- الذي هو عدو الأصنام، ومبيد الأوثان- كان يدعو الناس لِعبادته في صورة وثن من ذهب! كما كان يعتقد "الكارولنجيون"[٣]، أن المسلمين لمَّا غلبهم

---

[١] يقول الله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (العنكبوت: ٤٦).

[٢] الحروب الصليبية: هي ثماني حملات عسكرية شنها الفرنجة على بلاد المسلمين، وقد استمرت قرنين من الزمان (٤٩٠-٦٩٠هـ) (١٢٩١-١٠٩٦م). وكان لها نتائج خطيرة على الشرق والغرب معًا. وهذا الزحف الصليبي، الذي أراد تدمير العالم الإسلامي، جعل المسلمين يشعرون بأن الصليبيين لا يعرفون التسامح الديني، ولا الجدال بالحسنى، وأنهم يستحلون دماء المسلمين بدون ذنب أو جريرة. وأما المسيحيون في الشرق، فإن الصليبيين عاملوا الأرثوذكس معاملة قاسية، واستولوا على كنائسهم، وحوَّلوها إلى كنائس لاتينية، كما منعوا الأقباط من زيارة بيت المقدس، على اعتبار أنهم هراطقة.

[٣] في الأصل " الكرلو كنجيون". وصوابها ما أثبت. وكان شمال أوربا قد استوطنه قبائل الفرنج (Franks)، من غرب أوربا ما بين القرنين الخامس والتاسع الميلاديين. وكانوا وثنيين قد تحولوا للكاثوليكية. وكان يطلق عليهم الكارولنجيون (Carolingians). وأشهر ملوكهم كان الملك شارلمان ففي عهده أصبح الفرنج سادة غرب أوربا. وقام بالتبشير

الإفرنج، وصدُّوهم إلى أسوار سرقسطه[١]، عادوا إلى أصنامهم فحطموها. كما طنْطَنَ به أحد منشدي ذلك العصر حيث قال:

"وكان 'آبلّين' في مغارة هناك، فترامَوْا عليه، وأوسَعوه شتمًا وسبًّا، وصلبوه من يديه في أحد العمدان، وجعلوا يدوسونه بأقدامهم، ويُوجعونه ضربًا بالعِصِي حتى هشموه. وأما "ماهوم"، فقد رموه في حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه، وتمشي عليه. وتلك إهانة لم تُصِبْ إلهًا قبله"!

ويظهر أن المسلمين لم يلبثوا أن تابوا من ذنبهم، واستغفروا آلهتهم، وأصلحوا ما أتلفوه منها[٢]. ولذلك أمر الإمبراطور كارلوس بإبادتها لما دخل سرقسطه- كما جاء في قول ذلك الشاعر:

"وقد أمر الإمبراطور الفرنسيين، فطافوا جميع أنحاء المدينة، ودخلوا المساجد والجوامع وبأيديهم مطارق من حديد، فكسروا بها ماهوميد، وجميع الأوثان والأصنام".

وكذلك يقول "ريشار" في أناشيده، وهي جميلة لا شيء من الخرَفَ فيها، إلا أنها زور وبهتان، حيث يطلب من الله، أن يوقع الفشل العميم بين "أولئك الذين يعبدون صورة ماهوم".

ثم جعل يحرِّض الأشراف على الحرب المقدسة، وينصحهم أن ينكِّسوا أصنام المسلمين :"قوموا ونكسوا صنم ماهوميد، وترفاجان، وصبُّوهم على النار، وقدموهم إلى ربكم".

وذهبوا إلى أن صورة ماهوم كانت تُصنع من أنفَس الأحجار والمعادن، بأحكم صنع، وأدق اتفاق. ومَن قرأ وصفه في أناشيد "رولان"، كاد يحلف أن ذلك الشاعر، إنما يصف عن خبر وعيان. يقول:

"... وكانت كلها من الذهب والفضة. لو شاهدتها لأيقنت أنه لا يمكن للعقل أن يتصور أجمل منها. عظيمة الشكل، لطيفة الصنع، تلوح على وجهها سمات

للمسيحية. فمملكة الفرنج استطاعت ضم معظم أوربا. وهذا لم يحدث منذ الإمبراطورية الرومانية، حيث أعلنت الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت سلطة الكنيسة الكاثوليكية.

[١] سرقسطه: مدينة في شمال شرق أسبانيا حاليًا.

[٢] يقول الكاتب ذلك على سبيل السخرية من هذه الادعاءات الكاذبة.

الشهامة. كان "ماهوم" من ذهب وفضة، يأخذ بريقها بالأبصار. قد وُضع فوق فيل، على جلسة من أجمل المصنوعات. خاويًا من جوفه، فيُرى الضوء من خلاله مرصَّعًا بنفائس الأحجار المضيئة. يرى الناظر باطنه من الظاهر. وهو صنع "عزَّ عن المثال والنظيرا".

ولما كانت الآلهة تُنزلُ الوحي وقت الشدائد، وانهزم المسلمون في إحدى غزواتهم، بعث قائدهم إلى مكة؛ يطلب ربَّه. قال الراوي:

"فجاء الإله محمد في موكب عظيم، يضرب بالطبل والمزامير ضربًا يُسمع له دويٌّ قاصف. وبعضهم يُغني بالمزمار، والآخر بصفارة من الفضة. والكل حولهم يرقصون، ويُغنون بأعلى أصواتهم. وأقبلوا به فرحين، حيث المجلس معقود، والخليفة الديني في انتظاره. فلما رآه، قام يعبده بخضوع وخشوع".

ثم أخذ "ريشار" بعد ذلك يقصُّ كيفية مناجاة أولئك الوثنيين لذلك الصنم الذي وصفه بالتجويف، وأن لا شيء في باطنه إلا ويُرى من الخارج. فقال:

"وقد وضعوا في جوفه عفريتًا، استحضره السحرة، وصار ينط ويُعربد، ثم أخذ يكلم المسلمين وهم يسمعون".

ولقد زاد بغضهم لذلك الصنم، حتى جعلوه علامة على الدين الإسلامي، كما جعلوا الصليب علامة للدين المسيحي. فروى "بودوان" في نشيده على الكونتيسة "بونتيو"، لمَّا أرادت أن تعتنق الإسلام أمام صلاح الدين أنها قالت:

"أريد أن أعبد محمدًا؛ فائتوني به. فلما صار بين يديها، خرتْ ساجدة إليه".

ويأخذ القارئ من نشيد آخر، يَظهر أنه وُضع تتمة لأناشيد "بودوان"، وجود إلهين للمسلمين غير الذين سبق ذكرهم. وهما "بارتوان" و"جوبين". إلا أن الثلاثة الأولين هم الرؤساء!

ولمَّا رَدَّ أحدُ قواد المسيحيين جيشَ المسلمين الذي خرَجَ من مكة، أخذ الشاعر يصف اضطراب المسلمين كما يأتي:

"وقد جعل الوثنيون يصيحون، ويصرخون ويموجون بينهم، ويهرجون وينادون بأعلى أصواتهم: يا "ترفاجان"! يا "ماهوم"!

ومع ذلك، يوجد نشيد من أناشيد القرون الوسطى، لا يرى فيه القارئ رمزًا إلى محمد بالصنم. وهو للقسيس "إسكندروديون"، ألفه سنة ١٢٥٨م، أخذًا عن

مسلم تنصَّر مِنْ ذوي الاعتبار. وعدَّ الناسُ تلك القصة تاريخًا صحيحًا عن ذلك. وقد جاء فيها:

"إنه من المعلوم أن محمدًا كان عالمًا بطرق المكر والخيانة والخداع".

ثم شبَّهه بأحد الأمراء، المحاط بأتباعه، ينشر دينه على أبسط حال، حتى اعتقده الناس أكثر مما اعتقدوا حبْر روما.

ولقد أطلنا القول في تلك الأضاليل؛ لأن تاريخ "إسكندر" المذكور لم يُزلها؛ ولأنها تركت أثرًا في الأذهان، وصَلَ إلى أهل هذه الأيام، وتشبَّعت به أفكارهم في النبي (ﷺ) وكتابه.

ولو سأل سائل: هل كان أولئك المنشدون يعتقدون صحة ما يقولون؟ لأجبناه جواب أهل الفلسفة: لا. ونعم. إذ من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين، سهَّل للمنشدين معرفة الدين الإسلامي على حقيقته، ولكنهم ما كانوا يَقصدون الحقائق التاريخية في أناشيدهم، بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم؛ فاحتاجوا في ذلك إلى وصف المسلمين ونبيهم ودينهم، بالأوصاف التي تؤثر في نفوس المنشود لهم، على حسب معارفهم وأميالهم.

وإذا انتقلنا من شعراء القرون الوسطى إلى من جاء بعدهم من المؤرخين والمتكلمين (الباحثين في علم التوحيد)، الذين يظهر من كتبهم في ذلك الزمن، أنهم ميالون إلى الاعتدال، وجدنا مؤلفاتهم محشوة بتلك الأقاصيص الخرافية، مملوءة بالطعن والشتائم في نبي المسلمين. وكان المصلحون (وهم البروتستنت أيام دعوتهم لإصلاح الدين المسيحي) أشد تعصبًا ضده من غيرهم، فقد اعتنى "بيبليالندر" بتشبيه محمد بالشيطان، وعاملوا كتابه وشرعه كما عاملوه.

ولسنا نقيم برهانًا على ما نقول، غير توجيه نظر القارئ إلى مطالعة ما جاء في مقدمة كتاب "ريلان"، الذي ألفه سنة ١٧٢١م، تحت عنوان: "ما هو السبب في أن الناس عامة لا يعرفون من الديانة المحمدية إلا شيئًا يسيرًا؟". حيث يقول:

"لو أراد الباحثون أن يَصِمُوا مذهبًا أو طريقة بوصْمة الخزي والعار، نسبوها إلى محمد. فقالوا مذهب محمدي، أو طريقة محمدية... وهكذا".

وألفَ القس "دون مارتينو الفرنسو كيكالدو" كتابًا سمَّاه: "سراج الكنيسة المقدَّسة الذهبي". جاء فيه:

"إن كتاب محمد لا تلزم قراءته، بل يجب أن يُسخرَ به، وأن يُحتقر ويُرمى في النار أنَّى وُجِدَ. ولا يليق أن يحفظه الناس؛ لأنه عمل بهيمي".

وبعضهم كان لا يقول بِحَرْقِه، ولكنه يرى أنه:

"من العبث أن يجهد الإنسان نفسه، ويزيد إيلامها بحفظ هزئيات وأمور تافهة، منشؤها خيالات شخصٍ اختلَّ عقله، واضطربتْ قواه".

وأمَّا المسلمون، فمِن أسمائهم في تلك الكتب: البَلَدَة، والكسالى، والحمير، والحمر الوحشية، والممقوتون الذين يملئون المنزل بالنساء في الليل، ويطلقونهن في النهار.

ولو أردتَ الاطلاع على جَعْبَة الشتائم والسباب، فعليك بكتاب ألفه أحد اليسوعيين، وهو "بروشار"، وسمَّاه "مرشد السياحة". وقدمه إلى الأمير "فيليب روكالو" سنة ١٣٣٢م. وذكر فيه الأسباب التي تحمله على الدعوة إلى حرب صليبية. فقال:

"من ذا الذي لا يذرف عبرات الدمع، عندما يعلم أيَّ الرجال هم قابضون اليوم على تلك البقاع، التي هي ميراثنا، أولئك قوم لا ربَّ لهم، ولا دينَ يهديهم، ولا شرع يرجعون إليه، ولا عهد، ولا رحمة. أولئك قوم أخساء أدنياء. وهم أعداء لكل حقيقة في الوجود، وكل صفاء، وكل خير، وكل عدل. أولئك هم أعداء الصليب، الكافرون بالله، المضطهدون للمسيحيين، المفرِّطون في نسائهم، الفاسقون بالأطفال، الظالمون لعجم الحيوانات، المخالفون لطبائع البشر، القتالون للفضائل، المميتون للأخلاق، الغارقون في القبائح والخطايا. أولئك هم أولياء الشيطان، وأنصار الدنايا، ذوو حقدٍ وبُغْض، ذوو أفكار سافلة، وأعمال سخيفة، وعيشة دنيئة، وأقوال بذيئة، وعشرة سوء مُعْدِية. لا تنصرف إرادتهم، ولا تتجه هممُهم، إلا إلى اللذائذ البهيمية، والمعيشة الهمجية. أولئك هم القوم الذين أبعدونا عن تلك البقاع، وآذونا في هذه البقعة الصغيرة، التي نحن فيها، مستهزئين بنا، وساخرين بديننا. أولئك هم الذين خربوا بيت الله، وملكوا المدينة المقدسة، التي هي مهبط شرعنا، ولوثوا أماكنها المقدسة المطهرة"[1].

---

[1] هذه فرية ساذجة، تردها حوادث التاريخ الثابتة. فإن الفتح الإسلامي للقدس (٦٣٦م) يمثل في الوعي الإسلامي تصديقاً لوعد نبوي بهزيمة الروم وفتح القدس، وتحقيقاً لوعد

ولم يزلْ هذا الروح سائدًا عند المسيحيين، حتى أن المستشرق "بريدو" الإنكليزي ألف سنة ١٧٣٣م كتابًا في سيرة النبي (ﷺ) عنوانه: "حياة ذي البدع محمد". وترجمه بعضهم إلى لغتنا، وجعل له مقدمة، بيَّن فيها مقصد المؤلف فقال:

"إن غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحي الحكيم، بذكر حياة ذلك الرجل الشرير محمد".

أولئك كُتاب ما قصدوا التاريخ، ولكنهم أرادوا خدمة المقصد المسيحي الحكيم- كما يقولون. وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم، أن يُشبعوا خصمهم سبًا وشتمًا، وأن يُحرِّفوا في النقل مهما استطاعوا.

وأراد "داماسين" أن يخالفهم في التأليف؛ لكونه تربَّى في دمشق الشام، وكان مُقربًا عند الخلفاء، فجعلَ يورد دينَ الإسلام من غير تعصب، لذلك عده بدعة في الديانة المسيحية، تقربُ من بدعة "أريوس"[١].

إلهي. وقد تكونت الصورة النمطية لقداسة المدينة منذ مرحلة البعثة النبوية، وترسخت في العهد الأموي ثم العهد الفاطمي، وكتبت المؤلفات العديدة في فضائلها للتذكير دائمًا بقدسيتها، وتتابعت هذه الكتب في العهد المملوكي، والعهد العثماني؛ لتكتمل بذلك مدونات «فضائل القدس» في الثقافة العربية الإسلامية. والثابت أن المسلمين تركوا بيت المقدس حرًا مفتوحًا أمام المسيحيين واليهود على سواء، وشاركوهم في احتفالهم بقداسة القدس، والاهتمام بخدمتها وعمارتها، والتبرك بفضائلها. وعندما سيطر الصليبيون على بيت المقدس، أعادوا تحصينها، ومسخوا المقدسات الإسلامية، وانتهكوا حرمتها، مما أثار المسلمين، وآذى نفوسهم، وأعدَّهم للجهاد لطرد الغزاة. واكتسبت القدس تأكيدًا جديدًا، بعد هذا الغزو، يؤكد منزلتها الرفيعة، وحرمتها قبل الغزو الصليبي، وهي لذلك صارت رمز الجهاد والتحرير أيام الزنكيين والأيوبيين، وبعدهم.

[١] أريوس: كاهن مصري من الإسكندرية (٢٥٦ م- ٣٣٦م). ولد في أسيوط. وقيل: إنه ولد في القيروان (ليبيا) عام ٢٧٠م. جاء إلى الإسكندرية، ودخل المدرسة اللاهوتية، وتقدم في علومها، فرسمه البابا بطرس شماساً، فقساً. وقال أريوس بأن المسيح ليس بإله، وأن الله كان في الأصل وحده، فأخرج المسيح من العدم بإرادته. رفض بعض الكهنة هذا المذهب، وذلك في أول مجمع مسكوني في تاريخ المسيحية عام ٣٢٥م، وهو مجمع نقية، حيث صاغوا القسم الأول من قانون الإيمان الذي يقول بإلوهية المسيح، وتساويه فيها مع الله، وأعلنوا

ومع ذلك، فلم تؤثر عبارته في رأي الغربيين، بل ظلوا يعتقدون الخرافات في النبي (ﷺ)، وقرآنه، وكان رؤساؤهم الروحانيون يجتهدون دائمًا في تأييدها وتمكينها من الأذهان. وهي سياسة جعلت الناس عندنا يهزءون بالدين الإسلامي، وأغنت الباباوات عن حربه حربًا صحيحة[١]. فقد كانت الكنيسة اللاتينية في القرن الثامن مشتغلة بأمور أخرى؛ لأن الكنيسة الشرقية كانت واقعة بين عاملين مضرين هما: أحزاب النفسين في جسد، وأحزاب النفس الواحدة في جسم واحد[٢].

ولم يبدأ البحث في الإسلام بغير تعصب، ولا تشيُّع، إلا في زمننا هذا. ففي القرن التاسع عشر، أخذ الباحثون ينظرون إلى المسألة نظر الناقد البصير. وكان من وراء ذلك، أن افترق الناس في القرآن إلى معجبٍ به، وطاعنٍ فيه.

ومع ذلك، لا نزال نرى في لسان هذا القسم الأخير ما تُشتَمُّ منه رائحة تأثرهم بالأفكار الماضية. قال مسيو "دروختي"، في سياحته في بلاد الغرب، التي نشرها سنة ١٨٧٨م عن النبي: "إنه عربي خائن دني"[٣].

وقد نسي أن هذه الألفاظ، التي يشمئز منها السامع، لم تعد تصلح اليوم حُجَّة على صحة الدعوى.

وأول ما دار البحث فيه، مسألة صدق النبي (ﷺ) في رسالته. وقد قلنا: إن ذلك الصدق متفَق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب. ومعلوم أنه لا

حرمان آريوس، وجميع أتباعه، ولكن هذا لم يوقف انتشار الآريوسية بين مسيحيي ذلك الزمان، فانتشرت في مصر والشام، والعراق وآسيا الصغرى.

[١] يقصد الكاتب- من طرف خفي- إدانة قادة الكنيسة، بأنهم لم يواجهوا الحقائق، ولم يتناولوا الإسلام تناول عقل وتدبر، فأخطئوا الطريق، وأخطئوا النتائج.

[٢] اختلف هؤلاء بين مذهبين: مذهب الطبيعة الواحدة، ومذهب الطبيعتين. قال المذهب الملكاني بالطبيعتين في المسيح، وأنه إله تام، وإنسان تام. وقال المذهب اليعقوبي بالطبيعة الواحدة في المسيح، فهو عندهم إله تام، من جوهر الآب. قد امتزج فيه عنصر الإله بعنصر الإنسان، وتكوَّن من الاتحاد طبيعة واحدة، جامعة بين اللاهوت والناسوت.

[٣] حاش محمد رسول الله ﷺ، وخير خلقه، وأفضل رسله. الذي بصَّر الله به من العمى، وهدى به من الضلالة.

ارتباط بين هذه المسألة، وبين كون القرآن كتابًا منزلاً من عند الله. ولسنا نحتاج- في إثبات صدق محمد (ﷺ)- إلى أكثر من إثبات أنه كان مقتنعًا لصحة رسالته، وحقيقة نبوته. أما الغرض من تلك الرسالة في الأصل، فهو إقامة الإله الواحد، مقام عبادة الأوثان، التي كان عليها قبيلته قبل ظهوره[1].

وبيان ذلك: أن إسماعيل لما حنقت عليه سارة، وطُرد من عائلة أبيه، توجه إلى بلاد العرب[2]، ونقل إليها ديانة أبيه إبراهيم، إلا أنه لم يبقَ بين العرب من تلك الديانة سوى شيء قليل، يشبه الخيال؛ إذ لم يكن عندهم من يُذكِّرُهم على الدوام بأن رب إبراهيم هو ربٌّ عزيز، لا يَقبل له شريكًا، كما حصل ذلك لنبي إسرائيل. ولا يزال هذا الاعتقاد يزول شيئًا فشيئًا، وتحل محله عبادة الآلهة، التي كانت معروفة في أمم أخرى، حتى تُنوسي دينُ إسماعيل تمامًا.

ثم دخلت اليهودية في بعض القبائل المجاورة لبلاد الشام، ولكن الديانة المسيحية لم تعلق في تلك البقاع حتى أن "تنث" قس بصرة، اعترف في القرن الرابع بأن معيشة العرب الرحالة النقالة، تمنع من انتشار تلك الديانة في بقية جزيرة العرب.

تلك هي حالة الدين ببلاد العرب إلى القرن السابع. وقد بحث فيها الكُتاب كلٌّ على حسب أمياله. وكما أعتقد؛ لذلك تناقضت أقوالهم في اعتبارهم، والحكم على أهلها. فقال مسيو "رينان":

"لا يوجد في تاريخ التمدن كله صورة أجمل من حالة بلاد العرب قبل الإسلام".

---

[1] لسنا نفهم كلام الكاتب هنا؛ فإن صدق محمد ﷺ لا يتجزأ. وهو أخبر بأن هذا القرآن أوحاه الله إليه، عن طريق أمين الوحي جبريل. والطعن في ذلك طعن في أساس الرسالة وفي صدق النبي. والظاهر أن الغربيين لا شرط عندهم لأن يكون النبي صاحب وحي من الله فعلا، وإنما يكفي أنه دعا إلى مبادئ صحيحة، في عبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان. وهذه وحدها عندهم نبوة صحيحة. أما عقيدتنا، فهي أن محمدًا كان نبيًا، ورسولا بالوحي من الله.

[2] التكوين ٢١:١٠ "فقالت (سارة) لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق".

ومن رأيه أن القبائل في تلك البقاع كانت تدين باليهودية، أو بالدين المسيحي، وكانت مشتغلة بحركة دينية عظيمة.

وقال مسيو "بارتيلي سانت هيلير":

"لو صحَّ أن أولئك القوام كانوا على جانب عظيم من التمدن- كما يدَّعون، لَمَا احتاجوا إلى تلك التعاليم الأدبية، التي تقشعر أبداننا لسماعها: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ﴾ (النساء: ٢٣)".

ومن رأي المؤلف: أن العرب كانت أمة متبربرة، في حالة من التوحش، تقرب من حالة العبرانيين، أيام بُعث فيها موسى، بمثل ما تقدم من المحرمات.

ولست أريد الخوض في ترجيح أحد الرأيين، ولكنني أرى التوسط في الأمور، أقرب إلى الصواب، وأن أمة العرب قبل النبي (ﷺ) كانت وثنية على وجه العموم، وكان مذهب توحيد الإله يخطر في الأذهان رويدًا رويدًا. وكان المشخصون لهذا الاعتقاد، فريقٌ يُقال لهم "الأحناف"، بقوا على مذهب إبراهيم ﷺ.

أما المسيحيون فكانوا فرقًا كثيرة، كلها تعتقد بمذهب التكثير (تعدد الآلهة والتثليث)[١].

---

[١] بين النبي ﷺ الحالة الدينية عند مبعثه، خطب ذات يوم فقال في خطبته: "إن ربي ﷻ أمرني أنْ أُعلمَكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا. كلُّ مالٍ نحلته عبادي حلال. وأني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عَن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا. ثم إن الله ﷻ نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عجميهم وعربيهم، إلا بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتك لأبتليك، وابتلي بك. وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظانا" (أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ٢٨٦٥. وأحمد في المسند، من حديث عياض بن حمار، ١٧٥١٩).

وبيَّن جعفر بن أبي طالب جانبًا من ذلك أمام النجاشي، فقال له: "أيها الملك! كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيئ الجوار. يأكل القوى منا الضعيف. فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه، وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله؛ لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نحن

وتلقى محمد (ﷺ) مذهب أولئك الأحناف بحالة سطحية. ولكن لما كانت نفس ذلك النبي مفطورة على التشبُّع بالدين، تكيَّف هذا المذهب في وجدانه، حتى صار اعتقادًا لم تصل إليه نفسٌ قبله إلا قليلا، وهو ذلك الاعتقاد المتين، الذي أحدث انقلابًا كليًا في النوع البشري.

ومن الخطأ أن يُبحث عن هذا المبدأ العميم فيضُه من غير طريقة الأحناف؛ لأن محمدًا (ﷺ) ما كان يقرأ ولا يكتب، بل كان كما وصف نفسه مرارًا: نبيًا أميًّا. وهو وصفٌ لم يعارضه فيه أحدٌ من معاصريه. ولا شكَّ أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس؛ لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان.

على أن القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين في تلك الأقطار. ولم يكن بمكة قارئ أو كاتب، سوى رجل واحد، ذكره "جارسين دي تاسي" في كتابه الذي طُبع سنة ١٨٧٤م.

وكذلك من الخطأ- مع معرفة أخلاق الشرقيين، أن يُستدل على معرفة النبي (ﷺ) للقراءة والكتابة، باختيار (السيدة) خديجة (رضي الله عنها) إيَّاه لمتاجرها في الشام، ويقال: إنه لم تكن خديجة لتعهد إليه أعمالها في التجارة إن كان جاهلا غير متعلم. فإنا نشاهد بين تجار كل قوم- غير العرب- وكلاء، لا يقرءون، ولا يكتبون، وهمْ في الغالب أكثرهم أمانة وصدقاً.

إذن، ثبت مما تقدم أن محمدًا (ﷺ) لم يقرأ كتاباً مقدسًا، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه، خلافاً لما ذهب إليه "إسكندر ديون" حيث يقول:

نعبد وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. (قال: فعدَّدَ عليه أمور الإسلام)، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به. فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا" (أخرجه أحمد في مسنده، من حديث جعفر بن أبي طالب، ١٧٤٠). وحسنه الأرنؤوط.

"إنه كان يعرف في دين عيسى قراءة وكتابة"[1].

نعم، إن البحث عن معرفة المصادر، التي عساه يكون تلقى عنها بالمشافهة، ديانة المسيح، أو الديانة اليهودية، أو ديانة عبّاد الكواكب، قد يكون مفيدًا لمعرفة الموافقات التي جاءت بين القرآن وبين التوراة، إلا أنه بحث ثانوي؛ إذ لو فرض وكان القرآن قد نقل بعضًا من الكتب المقدسة الأخرى، لبقيَ الأمرُ مشكلا- كما كان عليه- في معرفة حقيقة ما اختلج بروحه الديني، وكيف وجد فيها ذلك الاعتقاد الثابت بوحدانية الله، حتى استولى عليه روحًا وجسمًا[2]!

ولقد نعلم أن محمدًا (ﷺ) مرَّ بمتاعب كثيرة، وقاسى آلامًا نفسية كبرى قبل أن يُخبر برسالته، فقد خلقه الله ذا نفس تمحصتْ للدين. ومن أجل ذلك، احتاج إلى العزلة عن الناس؛ لكي يهرب من عبادة الأوثان، ومذهب تعدد الآلهة، الذي ابتدعه المسيحيون. وكان بغضهما متمكنا من قلبه، حتى كان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة في جسمه (ﷺ).

ولكي ينفرد محمد (ﷺ) بما أُلهِمَ من الفكر العظيم، وهو وحدانية الله، اعتكف في جبل حراء، وأطلق العنان لفكره، يجول في بحار التأملات، عابدًا متهجدًا[3].

ومضت عليه بهذه الحال ليال من ليالي هاتيك البقاع، التي تملأ النفس انشراحًا، حتى جاء عنها في لسانٌ العامة: أن الملائكة يسألون ربهم، لو أذن لهم في الهبوط من السماء؛ لقضاء ليلهم على الأرض؛ إعجابًا بجمال الليل فيها؛ وشوقا إلى صفائه وجلاله.

ولعمري! فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين، وهو في ريعان الذكاء، ومِن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدَّة التخيُّل، وقوة الإدراك، لا بوضع المقدمات، وتعليق النتائج عليها؟ ما كان إلا أن يقول مِرارًا، ويُعيد

[1] يقول الله تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} (العنكبوت: ٤٨).

[2] يريد الكاتب أن يشهد بأن ما في القرآن من التوحيد الخالص، لا يمكن أن يكون مصدره عقيدة النصارى، ولا نصوص اليهود التي شابها أكدار من الشرك.

[3] يعني قبل نزول الوحي.

تكرارًا كلمات: "الله أحد، الله أحد"[١].

كلمات ردَّدَها المسلمون أجمعون في عهده، ومِن بعده، ولكن غابَ عنَّا- معشر المسيحيين- مغزاها، وذلك لبُعْدِنا عن فكرة التوحيد.

ولم يزل عقل محمد (ﷺ) منشغلا؛ حتى ظهر هذا الفكر في كلامه على صور مختلفة، جاءت في القرآن، ومنها:

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلدْ ولم يولدْ، ولم يكنْ له كفوًا أحد﴾ (سورة الإخلاص).

وكانت مترادفات اللغة العربية، تساعد محمدًا (ﷺ) بمعانيها الرقيقة، على ترداد ذلك الفكر السامي[٢]، الذي دَلَّ عليه.

ومن تلك الأفكار، وهذه العبادة، تولدت كلمة الإسلام: "لا إله إلا الله".

ذلك هو أصل الاعتقاد بالله، بأنه فرد، ورب صمَد، منزه عن النقائص. وهو اعتقاد يكاد العقل يتصوره[٣].

وهذا اعتقاد قوي، يؤمن به المسلمون على الدوام، ويمتازون به على غيرهم من الشعوب والقبائل. وأولئك حقاً هم المؤمنون، كما يُسمون به أنفسهم[٤]!

ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي محمد (ﷺ) من مطالعة

---

[١] عن عائشة زوج ﷺ أنها قالت: كان أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم. فكان لا يرى رؤيا، إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُببَ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، يتحنث فيه (وهو التعبد) الليالي أولات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك فقال: اقرأ" (أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ٣. ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، ١٦٠).

[٢] فكر الإيمان بالله وحده.

[٣] أي يتصوره العقل وحده بدون نزول الوحي؛ وذلك لموافقته البداثه.

[٤] لعله يقصد قول الله ﷻ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (الأنفال:٢-٤).

التوراة والإنجيل[١]؛ إذ لو قرأ تلك الكتب لردَّها؛ لاحتوائها على مذهب التثليث، وهو مناقض لفطرته، ومخالف لوجدانه منذ خلق. فظهور هذا الاعتقاد بواسطته- في جزيرة العرب- دفعة واحدة، هو أعظم مظهر في حياته، كما أنه بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته، وأمانته في نبوته.

أما مسألة الوحيِ بالقرآن، فهي أكثر إشكالا، وأكبر تعقيدًا؛ لأن الباحثين لم يهتدوا إلى حلها حلا مرضيًا.

و العقل يحار: كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجلٍ أمي! وقد إعترف الشرق قاطبة بأنها آيات، يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظًا ومعنىً. آيات لمَّا سمعها عتبة بن ربيعة، حارَ في جمالها[٢]. وكفى رفيع عباراتها لإقناع عمر بن الخطاب؛ فآمن برب قائلها[٣]. وفاضت أعين النجاشي إمبراطور الحبشة بالدموع،

---

[١] يعني قبل بعثته، ونزول الوحي إليه.

[٢] الراجح أنه يقصد الوليد بن المغيرة. فقد جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَقَّ له. فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه فقال: أي عمًّ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا. قال: لِمَ؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيتَ محمدًا، تتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أني أكثرهم مالا. قال: فقل فيه قولا، يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كارهٌ له. قال: فماذا أقول فيه: فواللهِ ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن! والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا! والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة! وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو، وما يُعلى!" (تفسير ابن كثير ٥٦٨/٤).

[٣] كان عمر شديدًا على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، فقال النبي ﷺ: "اللهم أيِّد دينك بابن الخطاب". فكان أول إسلام عمر- بعد ما أسلم قبله ناس كثير- أن حدث أن أخته أم جميل ابنة الخطاب أسلمت، وإن عندها كتفا اكتتبتها من القرآن تقرأه سرًا. وحدث أنها لا تأكل من الميتة التي يأكل منها عمر. فدخل عليها فقال: ما الكتف الذي ذكر لي عندك، تقرئين فيها ما يقول ابن أبي كبشة! يريد رسول الله ﷺ. فقالت: ما عندي كتف. فصكها، أو قال: فضربها عمر. ثم قام فالتمس الكتف في البيت حتى وجدها. ثم ضربها بالكتف فشجها شجتين، ثم خرج بالكتف حتى دعا قارئا فقرأ عليه. وكان عمر لا يكتب. فلما قرئت عليه، تحرك قلبه حين سمع القرآن، ووقع في نفسه الإسلام" (مصنف عبد الرزاق ٣٢١/٥).

حينما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة مريم[١]، وما جاء في ولادة يحيى. وصاح القسس عند النجاشي، بأن هذا الكلام وارد في موارد كلام عيسى[٢].

قال ناقل هذه الرواية "كوزان دي بيرسوفال":

"فلما كان اليوم الثاني، طلب النجاشي جعفر، وأشار إليه بتلاوة ما في القرآن عن المسيح ففعل. واستغرب الملك لمّا سمع أن المسيح عبد الله ورسوله، وروح منه نزل في أمه مريم. ثم تناول قضيبًا دقيقًا كان أمامه، وقال لجعفر: إن الفرق بين ما سمعناه منك الآن عن عيسى، وبين ما تقوله ديانتنا عنه، لا يزيد عن سمك القضيب"[٣].

وقد قوي ذلك القضيب، فمنع الحبشة من الإسلام، وجعلها مسيحية إلى الآن[٤]، لكن نحن- معشر الغربيين- لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي؛ لمخالفته

---

[١] في الأصل زكريا. والصحيح ما أثبت. ولا يوجد في القرآن سورة اسمها زكريا.

[٢] أي في الإنجيل.

[٣] قال النجاشي لجعفر بن أبي طالب: هل معك مما جاء به (محمد ﷺ) عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ. فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم. فبكى والله النجاشي، حتى أخضل لحيته. وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إن هذا- والله- والذي جاء به موسى، ليخرج من مشكاة واحدة! انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكم أبدًا، ولا أكاد. فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص (ولم يكن أسلم): والله لأنبئنهم غدًا عيبهم عندهم، ثم استأصل به خضراءهم. والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. قالت: ثم غدا عليه الغد. فقال له: أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيمًا، فأرسلْ إليهم فاسألهم عما يقولون فيه. فأرسل إليهم يسألهم عنه. ولم ينزل بالمهاجرين مثله. فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله، وما جاء به نبينا، كائنا في ذلك ما هو كائن. فلمّا دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا. ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود" (أخرجه أحمد في المسند، من حديث جعفر بن أبي طالب، ١٧٤٠).

[٤] أكثر من نصف سكان الحبشة مسلمين. وإن كانت الحكومة في يد النصارى!

لأفكارنا؛ ومغايرته لما رُبيت عليه الأمم عندنا. غير أنه لا ينبغي أن يكـون ذلـك سببًا في معارضة تأثيره في عقول العرب[١].

ولقد أصاب جان جاك روسو[٢] حيث قال:

"مِن الناس- يريد الأوربيين- مَن يتعلم قليلا من العربيـة، ثـم يقـرأ القـرآن، ويضحك منه. ولو أنه سمع محمدًا (ﷺ) يُمليه على الناس، بتلك اللغة الفصـحى الرقيقة (لغة القرآن، ونصه كما هو)، وبصوته المشبَّع المقنع، الـذي يطـرب الآذان، ويؤثر في القلوب، والتفت إلى أنه (القرآن) كلمـا بـدت أحكامـه، أيَّـدها (محمـد) بقوة البيان، وما أوتي من بلاغة اللسان- لخرَّ ساجدًا على الأرض، ونـاداه قـائلاً: أيها النبي. رسول الله! خذ بيدنا إلى مواقف الشـرف والفخـار، أو مواقـع التهلكـة والأخطار؛ فنحن من أجلك نود الموت أوالانتصار"!

قال "بولاتكيلير":

"إني لأعترف بأنه من الصعب أن يظن الإنسـان- ولا يـتحير في أمـره: أن قـوة الفصاحة الإنسانية تؤثر ذلك التأثير، خصوصًا وأنها تصدر عالية بغير ضعف قط،

---

[١] الصواب في هذا الأمر: أن الغـربيين لم يحظـوا بترجمـة أمينـة لمعـاني القـرآن، تقـرب لهـم معانيه، وتنقل إليهم روحه. فترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية، يقول عنها "جورج سال": 'إن ما نشره 'بيبلياندر' في اللاتينية، زاعمًا بأنها ترجمة للقـرآن الكـريم، لا تسـتحق اسـم ترجمة، فالأخطاء اللانهائية والحذف والإضافة، والتصرف بحريـة شـديدة، في مواضـع عـدة يصعب حصرها، يجعل هذه الترجمة لا تشتمل علـى أي تشـابه مـع الأصـل". وفي القـرن الثامن عشر، ظهرت ترجمات أنجزت أيضًـا علـى أصـل عربي، حيـث نشـر الإنجليـزي 'جورج سال'، ترجمة مباشرة من العربية إلى الإنجليزية سنة (١٧٣٤م)، زعم في مقدمتها أن القرآن إنما هو من اختراع 'محمد'، ومن تأليفه، وأن ذلك أمر لا يقبـل الجـدل! وبالإجمـال، فإن ترجمات المستشرقين كانت حرة التصرف في النص القرآني؛ مما أدى كثيرًا إلى انغـلاق المعنى على القارئ؛ بالإضافة إلى فقدانها لعنصر التـأثير والجـذب. يقـول R.Aznaldez: 'إن الترجمات الفرنسية، كغيرها من الترجمات الأخرى للقرآن، مهما كانت نوعيتها وضـبطها، وقيمة أسلوبها، فإنها لا تؤثر في قلـب غـير المسـلم، كمـا يـؤثر القـرآن وحـده في قلـوب المتقين'.

[٢] جان جاك روسو (١٧١٢- ١٧٨٨م): كاتب فرنسي، وفيلسوف اجتماعي، ومحلـل سياسـي. أثرت أفكاره السياسية في الثورة الفرنسية، وفي تطوير الاشتراكية، ونمو القومية.

وتتجدد رفيعة معجزة، إذ تقصر دون تمثيلها رجال الأرض، وملائكة السماء".

وقد أشار المؤلف في كتابه إلى الآية التالية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ (هود: ١٣-١٤).

وكيف يعقل أن النبي (ﷺ) ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى، مع أنها في الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية، ما كان يعقلها إلا القوم العالمون[١].

ولقد أعجب من مسيو "رينارد دوزي" في كتابه "تاريخ الإسلام"، حيث يقول (في الصحيفة العشرين بعد المائة):

"إن في القرآن أغلاطًا نحوية كثيرة. وإن تلك الأغلاط، جُعلتْ- فيما بعدُ- من جملة قواعد النحو، أو مستثنيات من قواعده".

ولعمري! أيّ مصدر اعتمد عليه ذلك المؤلف فيما ادعى، مع أننا لم نعهد كتبًا نحوية قبل الإسلام. ولو صحَّ وجود شيء منها، فلابد أنه كان عزيزًا نادرًا[٢].

وقد شاهدنا أن أناسًا- وما كان أكثرهم- أميين، قاموا في أمة العرب، وادعوا النبوة. منهم مسيلمة، الذي زعم أنه قرين محمد (ﷺ)[٣]، أتى بسور، سَخِرَ العربُ منها[٤].

---

[١] العالمون، يقصد بهمم الذين تلقوا تعليمًا مدرسيًا منظمًا.

[٢] لو كان في القرآن أغلاط نحوية، لطعن فيه أعداء الإسلام العرب الأقحاح بذلك.

[٣] عن ابن عباس قال: قدم مسيلمة الكذاب على عهد النبي ﷺ المدينة، فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته. فقدمها في بشر كثير من قومه. فأقبل إليه النبي ﷺومعه ثابت بن قيس، وفي يد النبي ﷺ قطعة جريدة، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه. قال: "لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن أتعدى أمر الله فيك. ولئن أدبرت ليعقرنك الله. وإني لأراك الذي أريت فيك ما أريت. وهذا ثابت يجيبك عني". ثم انصرف عنه (أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ٣٤٢٤. ومسلم، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ، ٢٢٧٣).

[٤] مسيلمة الكذاب، من بني حنيفة باليمامة قرب الطائف، ادعى النبوة، وارتدَّ قومه معه بعد وفاة النبي ﷺ، وكانوا خطرًا داهمًا على الإسلام، حتى أن المرتدين هدَّدوا المدينة نفسها. فقاتلهم أبو بكر الصديق، وقتل مسيلمة على يد خالد بن الوليد. ولما قدمت

ولو لم يكن في القرآن غيرُ بهاء معانيه، وجمالُ مبانيه، لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار، ويأخذ بمجامع القلوب[١].

أتى محمد (ﷺ) بالقرآن، دليلا على صدق رسالته، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سرًا من الأسرار، التي تعذر فك طلاسمها. ولن يسبر غور هذا السر المكنون، إلا من يُصدِّق بأنه منزل من الله. اللهم إلا إذا اعتمدنا على قول ممجدي الديانة المسيحية، مما كنا نرتاح إليه أيام شبيبتنا، وهو يرجع إلى أن القرآن تأليفُ فاتحٍ، أراد تأييد سلطته، فجمع من كتب اليهود والمسيحيين قانونًا، أودعه بعضَ قواعدِ الأدب والدين، وأضاف إليه قصص الوقائع العظيمة؛ لتأييد رسالته.

وعلى كل حال، أي سواء توصلنا إلى معرفة حقيقة القرآن، أم لا. فلا يُنكر أحد أن مظهر محمد (ﷺ) كان مظهر نبوة بالفعل، بقطع النظر عن صدق تلك النبوة، وعدم صدقها؛ لأن النبوة من حيث هي: عبارة عن قيام رجل، يُملي على الناس أمرَ ربه، ويعتقد حقًا أن ما يقوله آتٍ من عند الله.

وهو تعريف أعلم أن المسيحيين لا يقبلونه، سواء كانوا من المتكلمين، أو الحكماء الباحثين. إلا أنني ما أردتُ به التوفيق بينهما، بل قصدتُ به تمهيدًا للإيضاحات التي أريد أن أقدمها للقراء في عرض رسالتي.

وفود بني حنيفة على أبي بكر الصديق قال لهم: أسمعونا شيئا من قرآن مسيلمة. فقالوا: أوَتعفينا يا خليفة رسول الله! فقال: لابدَّ من ذلك. فقالوا كان يقول: يا ضفدع بنت الضفدعين. نقي كما تنقين. لا الماء تكدرين. ولا الشارب تمنعين. رأسك في الماء. وذنبك في الطين. وكان يقول: والمبذرات زرعًا. والحاصدات حصدًا. والذاريات قمحًا. والطاحنات طحنا. والخابزات خبزًا. والثاردات ثردًا. واللاقمات لقمًا. إهالة وسمنا. لقد فضلتم على أهل الوبر. وما سبقكم أهل المدر. رفيقكم فامنعوه. والمعتر فآووه. والناعي فواسوه. وذكروا أشياء من هذه الخرافات التي يأنف من قولها الصبيان وهم يلعبون (البداية والنهاية ٦/٣٢٦).

[١] القرآن معجزة لغوية، ومعجزة تشريعية، ومعجزة إيمانية عقدية، ومعجزة غيبية (تكشف مخبآت من الماضي، والحاضر، والمستقبل)، ومعجزة بما احتوى عليه من إشارات علمية مختلفة، أكدها العلم الحديث. يقول الله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (فصلت: ٥٣).

وعلى ما تقدم أقول: إن لظهور النبوة سببين مختلفين، فإما أن تكون صادرة عن وحي سماوي، أو عن اتقاد في الذهن، واشتداد في حركة النفس الباطنية.

والمتأثر بأحد هذين السببين، ينفعل به قهرًا غير مختار، فهو صادق على الحالين. وتكون النبوة حقيقة، أو كاذبة بحسب المؤثر فيها. فإن كان إلهيًا، فالأول، وإلا فالثاني[١].

ولو رجعنا إلى ما وضَّحه الحكماء عن النبوة، ولم يقبله المتكلمون من المسيحيين[٢]، لأمكننا الوقوف على حالة مشيِّد دعائم الإسلام، وجزمْنا بأنه لم يكن من المبتدعين. فمحمدٌ (ﷺ)- كما قال "أيولد"- عن أنبياء بني إسرائيل- اعتقد أن روحًا من الله استولت على لبِّه، فلم يعدْ يشعر بأن له فكرًا خاصًا، بل إنه أوتيه من عند ربه، واختفتْ في نظره أنانيته، ولم يعد يسمع غير صوت ذات فوق ذاته[٣]. ومن الصعب أن نقف على حقيقة سماعه لصوت جبريل ﷺ: هل

---

[١] تعريف الكاتب للنبوة يتفق مع تعريف علماء الإسلام. (انظر: الفصل في الملل والنحل لابن حزم ١٣/٥. الملل والنحل للشهرستاني ٢٠٠/٢).

[٢] هذه مسألة وقع فيها النزاع بين علماء النصارى، فقال بعضهم: إن كل قول مندرج في الكتب المقدسة إلهامي- أي موحى به، ولكن أغلب النصارى يعتقدون بعدم حرفية الوحي، وبأنه غير مختص بالأنبياء، بل يسوق الله الأنبياء والقديسين أيضا بالروح القدس لكتابة ما يريد. كما في رسالة بطرس الثانية (١/٢١): "لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناسُ الله القديسون مسوقين من الروح القدس". ومن الطبيعي أن يتعرض هذا المفهوم للوحي عند النصارى للنقد؛ إذ هو مخالف لنظرية الوحي الإلهي- كما عرفتها الأمم السابقة على أنبيائها. كما أن هذا المفهوم له نتائج وخيمة على مصداقية الوحي نفسه، بل هو مدعاة للخبط والخلط، والتلبيس والتدليس، وفرصة متاحة لمن يشاء أن يقول ويكتب ما يشاء؛ مدعيا أنه أحد الملهمين، الذين استخدم الله عقولهم وأرواحهم في كتابة ما يُراد تدوينه، وعصمهم من الخطأ فيما يُكتب.

[٣] هناك ما يقوله الرسول مبلغًا عن ربه. وهذا منفصل عمَّا بقوله بصفته البشرية. وقد اختلف علماء الإسلام: هل الرسول ﷺ يجتهد، أم لا؟ والراجح أنه يجتهد فيما لم يوحَ إليه فيه؛ نظرًا منه للمصلحة. وقد قال لأصحابه: "أنتم أعلم بشئون دنياكم"، والسبب أنه مرَّ في نخل المدينة، فرأى أقواما في رءوس النخل، يلقحون النخل. فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قيل: يأخذون من الذكر، فيحطون في الأنثى، يلقحون به. فقال: "ما أظن ذلك يغنى شيئا".

كان ذلك في الحلم، أو غيبوبة في عالم التصورات الإلهية[١].

على أن معرفة هذه الحقيقة لا تغير نتيجة المسألة؛ لأن الصدق حاصلٌ في كل حال.

كذلك لو قال قائل: إن القرآن ليس كلام الله، بل كلام محمد (ﷺ)[٢].

فلابد لنا على الحالين، مِن الاعتراف بأن تلك الآيات البينات، لا تصدر عن مبتدع أبدًا، خلافًا لرأي من ذهب إلى تكذيب نبوته. ولعلَّ رأيهم جاء من ضيق اللغة التي تلجئنا إلى أن نرمي بالكذب نبيًا، هو في الحقيقة شخص مُلِيءٌ أمانة وصدقًا.

ولقد نعلم أن الصوت الذي كان يسمعه نبي المسلمين شبيه بالصوت الذي أيقظ إيوانس من قبله فقال له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ {١} قُمْ فَأَنذِرْ {٢} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ

فبلغهم فتركوه، ونزلوا عنها، فلم تحمل تلك السنة شيئا. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: "إنما هو ظن ظننته. إن كان يغني شيئا، فاصنعوا فإنما أنا بشر مثلكم، والظن يخطئ ويصيب. ولكن ما قلت لكم: قال الله ﷻ، فلن أكذب على الله" (أخرجه ابن ماجه، كتاب الرهون، باب تلقيح النخل، ٢٤٧١. وأحمد في المسند، من حديث طلحة بن عبيد الله، ١٣٩٩. وصححه الأرنؤوط).

[١] كان جبريل يأتي النبي ﷺ على أربع حالات: الأولى ونائم. والثانية في اليقظة، على صورته الحقيقية، أو في صورة أخرى. والثالثة هي أن ينفث في روعه الكلام نفثا، كما قال ﷺ: "إن روح القدس نفث في روعي: أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها، ورزقها. فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب". والرابعة أن يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس. وهو أشده عليه. فكان جبينه يتفصد عرقا في الليلة الشاتية. عن الحارث بن هشام، أنه سأل النبي ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ قال: "كلُّ ذاك. يأتي الملك أحيانا في مثل صلصلة الجرس، فيفصم عني وقد وعيتُ ما قال. وهو أشده عليَّ. ويتمثل لي الملك أحيانا رجلا، فيكلمني، فأعيْ ما يقول" (أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٣٠٤٣. ومسلم، كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي، ٢٣٣٣).

[٢] قال محمد ﷺ: إن القرآن كلام الله ﷻ. وقال القرآن نفسه صريحًا: إنه كلام رب العالمين. فيكون التكذيب بذلك هو تكذيب لرب العالمين ولرسوله الكريم. وذلك كفر مبين. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة: ٧٧-٨٠).

{٣} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ {٤} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ {٥}} (المدثر).

فلما سمع ذلك، وتباطأ على هذا النداء، فضعفت صحته، واستولى عليه الهلع، كرجل يخاف أن يذهب لبه. ثم انتهى به الحال إلى أن صدع بأمر ربه، وجعل يبشر الناس. وحصل على شيء من الراحة وإن لم ينلها بتمامها، لأنه كان كثير التألم، كما يؤخذ ذلك من سورة هود، والقارعة، والحاقة[1].

ومن ذلك الحين، أخذت شفتاه تنطلق بألفاظ، بعضها أشد قوة، وأبعد مرمىً من بعض. والأفكار تتدفق من فمه على الدوام، إلى أن يقف لسانه، ولا يطيعه الصوت، ولا يجد من الألفاظ ما يعبر به عن فكر قد ارتفع عن مدارك الإنسان، وسما عن أن يترجمه قلم، أو لسان.

وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه بادية، فظنَّ بعضهم أن به جِنَّة. وهو رأيٌ باطل؛ لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين؛ ولم يُشاهد عليه قبل ذلك اعتلال في الجسم، أو اضطراب في القوة المادية[2].

وليس من الناس، مَن عرَف الناسُ جميع أحواله في حياته كلها مثل محمد

---

[1] قال رسول الله ﷺ: "شيبتني هود وأخواتها: الواقعة، والحاقة، وإذا الشمس كورت" (أخرجه الطبراني في الكبير، من حديث سهل بن سعد الساعدي، ٥٨٠٤. وبلفظ قريب أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الواقعة، ٣٢٩٧. والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة هود، ٣٣١٤). وصححه الألباني. وكل هذا من شدة معرفة النبي ﷺ بالله ﷻ، وخوفه على أمته. وقد كان يصلي، وفي صدره أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء، كما روى البيهقي (شعب الإيمان، الباب الحادي عشر، في الخوف من الله تعالى، ٧٧٤).

[2] كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكت، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، فصل لا فضول، ولا تقصير. دمث ليس بالجافي، ولا المهين. يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئا، لا يذم ذواقا، ولا يمدحه. ولا تغضبه الدنيا، ولا ما كان لها، فإذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء، حتى ينتصر له. لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها. (أخرجه الطبراني في الكبير، من حديث هند بن أبي هالة التميمي، ٤١٤. والبيهقي في الشعب، الرابع عشر في حب النبي ﷺ، فصل في خلق الرسول ﷺ وخلقه، ١٤٣٠).

(ﷺ). فلقد وصل المحدِّثون عنه إلى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض في لحيته[1]. ولو كان مريضًا لما أخفى مرضه. مع أن المرض في مثل تلك الأحوال يعتبر أمرًا سماويًا عند الشرقيين[2].

إذن، ليست حالة محمد (ﷺ) في انفعالاته وتأثراته بحالة ذي جِنَّة، بل كانت حالته مثل التي قال نبي بني إسرائيل، في وصفها:

"لقد شعرت بأن قلبي انكسر بين أضلعي، وارتعشت مني العظام، وصرت كالنشوان. وذلك لِما قام بي من الشعور عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة"[3].

فثبت بهذا أن محمدًا ليس من المبتدعين، ولا من المنتحلين كتابهم. وليس هو نبي سلاب كما يقول مسيو "سايوس".

نعم، قد نرى تشابهًا بين القرآن والتوراة في بعض المواضع، إلا أن سببه ميسور المعرفة، ذلك أن محمدًا (ﷺ) كان يلصق ديانة الإسلام بالديانتين المسيحية واليهودية، فالبحث مباح فيما إذا كان دينه صحيحًا، أو موضوعًا اتخذه ليؤيد به الحقيقة الدينية، من حيث هي. ولكن لا نسلم إنكار هذه الحقيقة، وحينئذٍ لا عجب إذا تشابهت تلك الكتب في بعض المواضع، خصوصًا إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها، كما أن النبي (ﷺ) خاتم الأنبياء والمرسلين[4].

---

[1] اهتمام الصحابة ومن بعدهم بنقل أقوال وأحوال رسول الله فائق. فعن أنس بن مالك ﷺ: "كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق، وليس بالآدم، وليس بالجعد القطط، ولا بالسبط. بعثه الله على رأس أربعين سنة، فأقام بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، فتوفاه الله وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء" (أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، ٣٣٥٥. ومسلم، كتاب الفضائل، باب في صفة النبي ﷺ، ٢٣٤٧).

[2] أظنه يشير به إلى بعض حالات الصوفية.

[3] مزمور ٢٢:١٤ "كالماء انسكبت. انفصلت كل عظامي. صار قلبي كالشمع. قد ذاب في وسط أمعائي".

[4] يبعث الله ﷻ الرسول مصدقا لمن سبقه، كما قال عن عيسى ﷺ: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} (الصف:

والآن نلخص لك اعتقاد نبي المسلمين في الديانات الثلاث، فنقول: إن دين الأنبياء كان كله واحدًا، فهم متحدون في المذهب، منذ آدم إلى محمد. وقد نزلت ثلاثة كتب سماوية، وهي الزبور، والتوراة، والقرآن[١].

والقرآن بالنسبة إلى التوراة، كالتوراة بالنسبة إلى الزبور، أو أن محمدًا (ﷺ) بالنظر إلى عيسى، كعيسى بالنظر إلى موسى. ولكن الأمر الذي تهم معرفته، هو أن القرآن آخر كتاب سماوي ينزل للناس، وصاحبه خاتم الرسل، فلا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد (ﷺ)، ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلا[٢].

إذا تقرر هذا، لم يعد هنالك وجه للاستغراب، من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة. فمحمد كعيسى، قال بأنه بُعث ليتمم رسالة من قبله، لا ليبيدها، فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تقدمه. ولذلك كان يصرِّح على الدوام، بأنه يُعيد على الناس ما نزل على الأنبياء من قبله، وكان يسمع صوتًا من السماء يقول له: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً {١٦٣} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً {١٦٤} رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً {١٦٥}﴾ (النساء). ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

---

٦). وقال عن محمد ﷺ: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} (آل عمران: ٣).

[١] ونزل أيضًا الإنجيل، وصحف إبراهيم، وغيرها مما يؤمن به المسلمون إجمالا. يقول الله تعالى: {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (البقرة: ١٣٦). ويقول سبحانه: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} (آل عمران: ٣).

[٢] يقول الله سبحانه: {وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} (يونس: ٣٧). ويقول الله سبحانه: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً} (الأحزاب: ٤٠).

فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥). ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ {٤٣} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ {٤٤}﴾ (النحل).

على أن بعض المشابهات لا تحتاج إلى مثل هذا التفسير؛ إذ نفس محمد (ﷺ) كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بني إسرائيل؛ وكان يعبد الله الذي عبدوه، فلا عجب إن تشابهت ألفاظ التضرعات، وتجانست أنواع الدعاء.

إذن، لا يمكن أن ننكر على محمد (ﷺ) في الدور الأول من حياته كمال إيمانه، وإخلاصه، وصدقه. أما في الدور الثاني، فلم يتزعزع الإيمان من قلبه مثقال ذرة. وما أوتيه من النصر، كان من شأنه أن يُقويه على الإيمان، لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغًا لا محل للزيادة فيه. ولم يكن فيه عيب، بل إن ما نسبوه إليه من هذا القبيل[1]، لا يؤثر بشيء على سيرته الطاهرة.

إن محمدًا (ﷺ) ما كان يميل إلى زخارف الدنيا، ولم يكن شحيحًا بخيلاً. بل كما قال أبو الفداء[2]:

"كان يستدر اللبن من نعاجه بنفسه، ويجلس على التراب، ويرتق ثوبه ونعاله بيده، ويلبسها مرقعة مرتقة".

وكان قنوعًا، خرج من هذا الباب[3]، كما رواه أبو هريرة، ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته[4]. (هذا هو النبي الذي قال عنه المنشدونٍ من النصارى: إنه كان نهمًا، يأتي المغيبات في الحانات). تجرَّدَ من الطمع، وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب، ولكنه لم يجنح إلى الاستبداد فيها، فلم تكن له حاشية- ولم يتخذ وزيرًا، ولا حَشَمًا.- وقد حاز المال والمعالي، وبلغ من السلطان منتهاه،

---

[1] يعني ما نُسب مِن قبل بعض الكُتاب الأوربيين. وسيورد الكاتب أهمَّه، وسيردُّ عليه.

[2] أبو الفداء: هو إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي. وقد أورد ذلك في البداية والنهاية (٤٤/٦).

[3] يعني توفي.

[4] الحديث عن أبي هريرة ﷺ: أنه مرَّ بقوم بين أيديهم شاة مصلية (مشوية). فدعوه، فأبى أن يأكل، وقال: "خرج رسول الله ﷺ من الدنيا، ولم يشبع من خبز الشعير" (أخرجه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون، ٥٠٩٨).

ولكنه لم يكن له من علامات الإمارة والملك، سوى خاتم من الفضة، مكتوب عليه "محمد رسول الله"[1].

ولم يكن فيه عيب، إلا كما خلق الله الإنسان. قال "رينان"[2]:

"خلق الإنسان ضعيفاً، فلا يقوى على احتمال الرسالة الربانية زمنًا طويلا. ومَن لم تطل مدة رسالته، فهو من البَرَرة المعصومين".

ومع ذلك، فرينان لا يعتقد بصدق رسالة النبي العربي (ﷺ)[3]!

على أنه لو صحَّ أنه كان فيه عيوب أكبر مما نُسب إليه، لَما قدح ذلك في رسالته؛ لأن هبة النبوة، كمواهب الوحي، لا تستلزم حتمًا خلو من اختص بها[4].

---

[1] لم يكن النبي ﷺ يتميز عن أصحابه في مجلس، ولا ملبس، ولا شيء. فكان يأتي الرجل الغريب فلا يعرفه. عن أنس بن مالك قال: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد، ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم. فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي ﷺ: "قد أجبتك". فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك، فمشدد عليك في المسألة، فلا تجدْ عليَّ في نفسك. فقال: "سل عمَّا بدا لك". فقال: أسألك بربك، ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: "اللهم نعم". قال: أنشدك بالله! آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: "اللهمَّ نعم". قال: أنشدك بالله! آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: "اللهم نعم". قال: أنشدك بالله! آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا، فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: "اللهم نعم". فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول مَن ورائي مِن قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة، أخو بني سعد بن بكر" (أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم، ٦٣).

[2] أرنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢): مؤرخ وكاتب فرنسي، اشتهر بترجمته لعيسى، التي دعا فيها إلى نقد المصادر الدينية نقدًا تاريخيًا علميًا، وإلى التمييز بين العناصر التاريخية، والعناصر الأسطورية الموجودة في الكتاب المقدس. وأصبح رمزًا من رموز فرنسا الجمهورية العلمانية القومية، وأطلق اسمه على كثير من المدارس والمباني العمومية.

[3] هناك جانب أسود لرينان، فهو يؤمن بتمايز الأعراق، ويُهين الإسلام.

[4] يؤمن المسلمون بعصمة الأنبياء من الكبائر، وعصمتهم في البلاغ عن الله تعالى. أما اليهود والنصارى، فينسبون إلى الأنبياء اقتراف الكبائر والرذائل التي لا تصدر إلا من

فلقد هفا داود مع بنت صابا[١]. ونحن نعلم أن من ذريته المباركة أنبياء بني إسرائيل، وأن الله يُنزل حكمه آيات تحار فيها الأفكار، ومهما اجتهدنا في إدراك كل معنى من معانيه، فإنا به جاهلون. فلقد وعد ملوكَ بني إسرائيل أن يرسلَ المسيح من أصلابهم. ورأينا أن عيسى وُلِد على غير ما عَهِدوا.

على أن محمدًا (ﷺ) كان يقول عن نفسه: إنه يخشى العذاب، ويسأل الله الغفران. وكم مرة شوهدتْ على وجهه علائمُ الهلع، وما به من هول رسالته، عندما كان يتلو على الناس آيات الفزع الأكبر!

هذا ما كان من صدق محمد (ﷺ)، وأمانته بعد بعثته. وأما أمانته قبل البعثة، فقد أسماه معاصروه بالأمين[٢].

وأما حاله في بقية مدته، بعد أن صار رئيسًا سياسيًا، فالاستدلال عليه أدقُّ، وأدعى إلى طول البحث والتنقيب. قال "رينارد دوزي":

"يكاد أن يكون من المستحيل، الجزم بأن محمدًا كان في آخر حياته يعتقد بصدق رسالته. أما في الدور الأول، فاعتقاده وصدقه لا شك فيهما"!

سقط الناس، وتقدح في نبوتهم. وأما ما يدَّعيه الغربيون من أخطاء لرسول الله محمد ﷺ، فكلام مردود عليه.

[١] يزعم اليهود والنصارى: أن نبي الله داود فعل أمرًا قبيحًا، لا يجوز من أعتى المجرمين. فاشتهى زوجة قائده "أوريا الحثي"، وزنى بها، وحبلت من هذا الزنا. ثم أضاف على خطيئته خطيةً أخرى، بمحاولته تغطية الأولى وإخفائها، وهي قتل زوجها (القصة بتمامها في سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الحادي عشر). ولا شك أن الله تعالى عصم نبيه داود ﷺ من مثل هذا. وما هو إلا كذب وافتراء. كما افتروا على غيره من الأنبياء والرسل، فصوروا لوطا شرب الخمر حتى سكر، ثم زنا بابنتيه حتى أحبلهما. وصوروا يهوذا يزني بكنته.

[٢] عن مجاهد، عن مولاه أنه حدثه: أنه كان فيمن يبني الكعبة في الجاهلية قال: فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر، وما يرى الحجر أحد. فإذا هو وسط حجارتنا، مثل رأس الرجل، يكاد يتراءى منه وجه الرجل. فقال بطن من قريش: نحن نضعه. وقال آخرون: نحن نضعه. فقالوا: اجعلوا بينكم حكمًا. قالوا: أول رجل يطلع من الفج. فجاء النبي ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين. فقالوا له. فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم، فأخذوا بنواحيه معه، فوضعه هو ﷺ" (أخرجه أحمد في المسند، من حديث السائب بن عبد الله ﷺ، ١٥٥٤٣).

والأدلة كثيرة من الجانبين، ووضع المسألة على هذه الكيفية، هو الذي فرَّق بين الباحثين. وانتصر كل حزب من المتطفلين لرأيٍ رجَّحه، تبع أمياله، وما يشتهي. إلا أن الناقد المنصف، لا يجب عليه أن يرجح قَولا على آخر، بدون ملاحظة القرائن التي تتبع الاثنين. ولكن الناس- كما وصفهم مسيو "مونور"- محتاجون إلى الإيقان والاعتقاد. وهم في احتياجهم هذا يميلون إلى من يلقي عليهم المسائل كأنها حقيقة ثابتة، ويمقتون من ينهاهم عن الاعتقاد بشيء، أو نفيه مطلقا بغير تثبيت ولا دليل.

ولست ممن يدَّعِي الترفع عن هذا التقريع، غير أني أقول: إنه بفرض صحة المذهبين، وإن صدق النبي (ﷺ) في آخر حياته وعدمه سيان في الوضوح والدليل. فلا يزال عندنا سبيل آخر للوصول إلى الحقيقة، أو القرب منها، ألا وهو علم النفس وحركاتها. وهذا العلم وإن لم يبلغ بعد الدرجة التي تزيل كل شبهة علقت بالأفكار، لكنه مع ذلك، يوصلنا إلى الإيقان بأن من الأنبياء من لا يتيسر للباحثين أن يجزموا بشيء في أمرهم، كأن يؤكدوا أنهم صادقون، أو أنهم جروا في أعمالهم على ما يخالف الواقع وهم يعلمون، كما يفعل السياسيون.

وما من كاتب ولا باحث يستطيع أن يجزم بأن الإمبراطور كونستنتان الذي رفعه القسس مكانًا عليًا في المعابد، واختصوه بالمواهب الإلهية، كان صادقاً بعد انتصاره في قنطرة "ميلفيوس".

ولكن محمدًا (ﷺ) قاوم الوثنية بعزم واحد طول الحياة، ولم يتردد لحظة بينها، وبين عبادة الواحد الأحد، كما فعل الملك الروماني. وإيمانه كان حقاً ثابتًا على الدوام. لذلك لم تتغير حميَّته، ولم تفتر عزيمته، فقد انتهى كما بدأ. ولو أنه جال بفكره ساعة من زمانه شكٌ في صدق رسالته؛ لكفى بنصره الدائم مزيلا لهذه الغُمَّة، ومؤيدًا له في صحة صبوته، وصدق رسالته.

وفي الصدق درجات. فليَتبيننْها الباحثون، وليفقهوها قبل أن يحكموا بالبدع وهم مخطئون.

ولقد عانى محمد (ﷺ) كثيرًا من بني قومه، إذ كانوا منكرين، ولم يأخذهم على غِرة منهم بعد أن صاروا مؤمنين. نحن لا نصدق بما يقولون، بل نرى أن قومه كانوا في استعمال أمانته من المتطرفين. ولئن أعجم لهم القول حينًا في

مخاطبتهم، فذلك لأنه يعزُّ وجود من يحب الحق، ولا تلجئه الحوادث إلى الإعجام؛ طلبًا لتقريره في ذهن قوم جاحدين.

إن الذين ينكرون صدق محمد (ﷺ) في آخر حياته، لا يستطيعون أن ينكروا عليه أنه بقي إلى آخر لحظة منها نبيًا رسولا، شديد التمسك بدينه، وأنه فارق الدنيا موقنًا بأداء رسالته. فلقد اتفق مؤرخو العرب طرًّا على الحوادث التي تخللت أيامه الأخيرة، وأورثونا عنهم ما كان من حركاته وسكناته، بقول واحد، ومعنىً لا يتغير. مما يبرهن على صدق حديثهم، وأمانتهم في نقلهم[١].

ولولا زيغ المنشدين من النصارى، وكثرة تخيلهم لمَا قالوا:

"إن محمدًا قد مات، تنهشه الخنازير، إذ وجدوه نشوان، وليس عنده معين، ولا نصير".

تلك جريمة لا تُغتفر.

ومما يَستغرب له المطالعُ، أن يجد حكاية هذا الموت الفاضح في "تاريخ الحرب الصليبية الأولى"، لمؤلفه "جيبير دي نوجان". وهو معدود من المؤرخين الذين لا يميلون إلى التحريف، غير أنه أتى بهذه الأكذوبة، وزاد عليها أن المسلمين كرهوا لحم الخنزير من ذلك التاريخ.

فلنسدلْ ثوب النسيان على هذه الأقاصيص المحزنة، ولنقرأ كيفية وفاة النبي (ﷺ) في كتب المؤرخين الصادقين.

لما قرُبتْ المنية، خارتْ قواه، وخرج إلى الحج بمكة في شهر مارس سنة ٦٣٢م. وهي حَجَّة الوداع[٢]. وخَطبَ في الناس على منبر المسجد الحرام[٣]، فقال:

---

[١] هي كتب الحديث، والسيرة، والتاريخ.

[٢] خرج النبي ﷺ لحجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة، ويقال لها: حجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع، لأن النبيّ ﷺ ودَّع فيها الناس.

[٣] الصحيح أنه خطب على راحلته. فعن أبي أمامة قال: "سمعت رسول الله ﷺ يخطب الناس في حجة الوداع، وهو على الجدعاء، واضع رجله في غراز الرحل، يتطاول يقول: ألا تسمعون؟!" (أخرجه أحمد في المسند، حديث أبي أمامة الباهلي، ٢٢٢١٥). وصححه الأرنؤوط.

"ربِّ إني أديتُ رسالتي، وبلغتُ أمانتي اليوم. قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ (المائدة: ٣)[١].

ثم رجع إلى المدينة، وأقام ببيت عائشة- زوجته المصطفاة- برضا من زوجاته[٢].

ولما أحسَّ بقرب الأجل، ذكر الفقراء؛ فإنه لم يرغب طول حياته في المال، بل كان كلما اجتمع إليه شيء منه، أنفقه في الصدقات[٣]. وكان قد أعطى عائشة يسيرًا لتحفظه، فلما حضره المرضُ أمرَ بإنفاقه على المعوزين لساعته، وغاب في سِنَة. ولما أفاق سألها: إن كانت أنفذتْ أمره. فأجابته: كلا. فأمرَ بالنقود، وأشار إلى العائلات المعوزات، فوزع عليهم. وقال:

"الآن استراح قلبي؛ فإنني كنت أخشى أن ألاقي ربي، وأنا أملك هذا المال"[٤].

وكان في مرضه يخرج كلَّ يوم ليصلي بالناس. وآخر يوم خرج فيه، هو الثامن

---

[١] عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ خطبهم في حجة الوداع فقال: "ألا إن الله حرَّم عليكم دماءكم وأموالكم، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. ألا هل بلغتُ؟" قالوا: نعم. قال: "اللهم اشهد". قال ذلك ثلاثا. ثم قال: "انظروا! لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض" (أخرجه الطبراني في الكبير، ١٣٣٣٦).

[٢] عن عائشة- رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه يقول: "أين أنا غدا؟ أين أنا غدا؟". يريد يوم عائشة. فأذن له أزواجُه يكون حيث شاء. فكان في بيت عائشة، حتى مات عندها. قالت عائشة: "فمات في اليوم الذي يدور عليَّ فيه في بيتي، فقبضه الله وإن رأسه لبين نحْري وسحْري، وخالط ريقه ريقي" (أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ٤١٨٥. ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب في فضل عائشة، ٢٤٤٣).

[٣] قال رسول الله ﷺ: "ما أحب أنه يحول لي ذهبًا، يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث، إلا دينارا أرصده لدين" (أخرجه البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون، باب أداء الديون، ٢٢٥٨. ومسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة، ٩٤).

[٤] قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه: "يا عائشة ما فعلت الذهبُ؟". فجاءت ما بين الخمسة، إلى السبعة، أو الثمانية، أو التسعة. فجعل يقلبها بيده ويقول: ما ظنُّ محمدٌ بالله ﷺ لو لقيه وهذه عنده؟! أنفقيها" (أخرجه أحمد في المسند، من حديث عائشة، ٢٤٢٦٨). وصححه الأرنؤوط.

من شهر يونيه سنة ٦٣٢م. وكانت مشيته مضطربة، فتوكأ على الفضل بن العباس، وعلي بن أبي طالب. وقصد منبر الخطابة، الذي كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة[1]، وحمد الله، وأثنى عليه. ثم خطب في المسلمين بصوت رفيع، سمعه من كان خارج المسجد قال:

"أيها الذين تسمعون قولي، إن كنتُ ضربت أحدكم على ظهره، فدونه ظهري فليضربهن. وإن كنت أسأتُ سمعة أحد، فلينتقم من سمعتي. وإن كنتُ سلبت أحدًا ماله، فإليه مالي، فليقتص منه، وهو في حِلٍ من غضبي. فإن الغلَّ بعيدٌ عن قلبي".

ثم نزل من المنبر، وصلى بالجماعة. ولمَّا أراد الانصراف أمسك به رجلٌ من إزاره، وطلب منه ثلاثة دراهم دينًا له، فأدَّاها على الفور قائلا:

"لَخِزيُ الدنيا، أهونُ من خزي الآخرة"[2].

ثم دعا لمن حارب معه في أحد، وسأل الله لهم الرحمة والغفران.

---

[1] لم يختص وعظ النبي ﷺ على منبر مسجده بما قبل الصلاة. بل كان يخطب على منبره الجمعة، ثم في أي وقت آخر يراه، سواء قبل الصلاة، أو بعدها.

[2] عن الفضل بن عباس قال: جاءني رسول الله ﷺ، فخرجت إليه، فوجدته موعوكًا، قد عصب رأسه. فقال: "خذ بيدي يا فضل". فأخذت بيده حتى انتهى إلى المنبر، فجلس عليه ثم قال: "صِحْ في الناس". فصحتُ في الناس، فاجتمع إليه ناس. فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أيها الناس! إلا أنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم. فمَن كنتُ جلدتُ له ظهره، فهذا ظهري، فليستقدْ منه. إلا ومَن كنتُ شتمنت له عرضًا، فهذا عِرْضي، فليستقدْ منه. إلا لا يقولن رجلٌ: إني أخشى الشحناء مِن قِبل رسول الله ﷺ. ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتي، ولا من شأني. ألا وإن أحبكم إليَّ مَن أخذ حقا إن كان له، أو حللني، فلقيت الله وأنا طيب النفس. ألا وإني لا أرى ذلك مغنيًا عني حتى أقوم فيكم مرارًا". ثم نزلَ فصلى الظهر، ثم عاد إلى المنبر، فعاد لمقالته في الشحناء، وغيرها. ثم قال: "أيها الناس! مَن كان عنده شيء فليرده، ولا يقول: فضوح الدنيا. وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة". فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله! إن لي عندك ثلاثة دراهم. قال: "أما أنا لا نكذب قائلا، ولا نستحلفه. فبمَ صارت لك عندي؟ قال: تذكر يوم مرَّ بك مسكين، فأمرتني أن أدفعها إليه؟ فقال: "ادفعها إليه يا فضل" (أخرجه الطبراني في الكبير، ٧١٨).

وكان مشهد النبي (ﷺ) بين المؤمنين في ذلك اليوم مشهد جلال ووقار، والناس يلمحون على وجهه تأثير السم الذي شربه من يد يهودية خيبر، وقلوبهم منفطرة من الوجْد عليه، ذلك أنه لما كان في واقعة خيبر، قدَّمتْ إليه يهودية- اسمها زينب- شاة مشوية، أضافت إليها سُمًّا. فأخذ منه النبي (ﷺ) قطعة واحدة بين شفتيه، وأحسَّ بأنها مسمومة فألقاها. ثم لمَّا حضرته الوفاة بعد حين كان يقول: "مازالت تعاودني أكلة خيبر"[١].

وكان أبو بكر نفسه يبكي، ويقول للرسول (ﷺ): "هلا افتدينا روحك بأرواحنا!"[٢].

ثم أوصله الصحابة إلى بيت عائشة، واضطجع تعبًا مهزولا، وصار المرض يشتد عليه، فتخلفَ عن الصلاة بالمسلمين. وقيل له: قد جاء وقت الظهر، فأشار إلى أبي بكر ليصلي بالناس، فكان من وراء هذه الإشارة خلافة أبي بكر بعد النبي (ﷺ)[٣].

وأخبرت عائشة (رضي الله عنها) عن حالة الاحتضار فقالت:

---

[١] عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة، فأهدت له يهودية بخيبر شاة مصلية سمتها. فأكل رسول الله ﷺ منها، وأكل القوم. فقال: "ارفعوا أيديكم، فإنها أخبرتني أنها مسمومة". فمات بشر بن البراء بن معرور الأنصاري. فأرسلَ إلى اليهودية: "ما حملَك على الذي صنعتِ؟". قالت: إن كنتَ نبيًّا لم يضرك الذي صنعتُ، وإن كنت ملكًا أرحتُ الناس منك. فأمر بها رسول الله ﷺ فقتلت. ثم قال في وجعه الذي مات فيه: "ما زلتُ أجدُ مِن الأكلة التي أكلتُ بخيبر. فهذا أوانُ قطعت أبْهَري" (أخرجه أبو داود، كتاب الديات، باب فيمن سقى رجلا سمًّا أو أطعمه فمات. أيُقاد منه؟، ٤٥١٢. وأخرج بعضه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ٤١٦٥).

[٢] عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ خطب فقال: "إن الله خيَّر عبدًا بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين لقائه، فاختار لقاء ربه". فبكى أبو بكر، وقال: بل نفديك بآبائنا وأبنائنا" (أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب مرض النبي، ٦٥٩٤).

[٣] عن أبي موسى قال: مرض النبي ﷺ فاشتد مرضه فقال: "مُرُوا أبا بكر، فليصلِّ بالناس". قالت عائشة: إنه رجل رقيق. إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس. قال: "مُرُوا أبا بكر، فليصلِّ بالناس" (أخرجه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، ٦٤٦).

"كانت رأس رسول الله (ﷺ) مسندة إلى صدري، ويقربه قِدْر ماء. وكان يقوم ليضع فيها يده، ويمسح جبينه ويقول: "ربِّ أعنِّي على تحمل سكرات الموت. ادنُ مني يا جبريل! ربِّ اغفرْ لي، واجمعْ بيني وبين أصحابي في الجنة". ثم ثقلت رأسه، ومال ثانية إلى صدري"[1].

أمَّا ما تركه (ﷺ)، فبيتٌ بناه بيده، وبضع نِياقٍ آلتْ إلى بيت المال؛ لأنه (ﷺ) قال:

"نحن معاشر الأنبياء لا نورث"[2].

إلى هنا، نقصر القول عن ذات النبي (ﷺ). فما أردنا أن نطيل فيها، إلا لنعرف حقيقة تلك النفس المتشبعة بالدين؛ إذ الدين يدعو إلى الدين؛ وكان من الوجوب دقة البحث عن اعتقاده (ﷺ)، قبل أن نتبع دينه، كيف انتشر، ولا يزال ينتشر في الوجود.

[1] كانت عائشة تقول: "إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته... وبين يديه ركوة، أو علبة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه يقول: "لا إله إلا الله. إن للموت سكرات!". ثم نصب يده فجعل يقول: "اللهم في الرفيق الأعلى". حتى قبض، ومالت يده" (أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ٤١٨٤).

[2] عن عائشة: أن فاطمة والعباس- عليهما السلام- أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ، وهما حينئذ يطلبان أرضيهما من فدك، وسهمهما من خيبر. فقال لهما أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا نورث. ما تركنا صدقة". إنما يأكل آل محمد من هذا المال. قال أبو بكر: والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته! قالت: فهجرته فاطمة، فلم تكلمه حتى ماتت" (أخرجه البخاري، كتاب الفرائض، باب قول النبي ﷺ: "لا نورث. ما تركنا صدقة"، ٦٣٤٦).

الفصل الثاني

الإسلام في زمن الفتح ومدة حكم العرب

استعصاء بلاد العرب على الإسلام

القديس "اوغستين" ومعاقبة أهل البدع

انتشار الإسلام وملاينته في الشرق

اعتناق الإسلام بمصر في زمن بني أمية

إسلام في الأندلس - اضطهاد قرطبة

تعذيب "فلورا" العذراء

المضطهدون في مراكش

نتائج ملاينة الدين الإسلامي

قال القديس "بولس": "يطلب اليهود معجزات ليصدقوا، واليونان أدلة ليؤمنوا".

وأمَّا العرب، فإنهم آمنوا بغير معجزات، ولا أدلة؛ إذ إن النبي (ﷺ) كان يقول لجلسائه على الدوام: إنه آدمي مثلهم، وإنه مرسل إليهم، وإنه مجردٌ عن كل سلطان في المعجزات: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾

(الكهف: ١١٠). ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨)[1].

وأما البراهين، فنحن نعلم مقدار بُعْد عقله عن التخيلات الذهنية، كالأمَّة التي بُعثَ فيها. إلا أننا رأينا الإسلام في واقعة بدر سنة (٦٢٤م)، وليس له من الأنصار إلا ثلاثمئة وأربعة عشر نفرًا. فلم يمض عليه قرن واحد حتى اجتاز جبال الألب، وتوسط البلاد الفرنسية. وقد أسلمت الشام، وفارس، ومصر، وبلاد المغرب، من مراكش، إلى الجزائر، إلى تونس، إلى طرابلس.

نعم، قد سبق هذا الانتشار العظيم عناءٌ شديد، واضطرابٌ في العمل كثير، واضطهادٌ للناس كبير. شأن كل ديانة عامة في مبدأ ظهورها. ولكن الإسلام لم يلبث أن تغلبَ على أكبر العثرات، فمهَّد الصعاب، حتى صار لا يعرف حاجزًا، ولا ممانعًا.

وما أشبه الدين في انتشاره بامتداد السائلات الطبيعية، فهو نتيجة مؤثرين: مؤثر داخلي، يسمى المقاوم. ومؤثر خارجي، وهو المحرك. والأول خفي لا يظهر

---

[1] هذا قول شاع في كتابات الغربيين، ولا حقيقة له. فإن النبي ﷺ أتى بمعجزات حسيَّة كثيرة. مثل: تسبيح الحصى في يده، وتكثير الطعام والماء القليل، حتى يأكل منه ويشرب العدد الكثير، وانشقاق القمر، وحنين الجذع إليه حين اتخذ منبرًا وترك الوقوف عليه في خطبه، والإخبار بالمغيبات الماضية والآتية. أمَّا ما في القرآن من إنكار الله سبحانه على المشركين طلبهم معجزات معينة. فإنما لم يعطهم الله هذه المعجزات المعينة التي طلبوها؛ لأنهم طلبوها على وجه الإنكار والتحدي والتكذيب، ولأنهم ليس لهم أن يقترحوا آيات غير ما أذن الله به. ولأن الله يعلم أنه لو أتتهم كل آية لا يؤمنون بها. يقول الله تعالى: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} (الأنعام: ٢٥). ويقول سبحانه: {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} (الأنعام: ١٠٩). ويقول الله تعالى: {وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ} (الأنعام: ١٢٤).

أثره، وإن كان هو الذي يلتقط جميع الحرارة الواصلة إلى الجسم، فعمله الوحيد التغلب على مقاومة العناصر، فإذا انحلتْ جاء المؤثر الخارجي، فنشأ عنه مع اختلاف يسير، تمدد الجسم العظيم، الذي يسمى تبخرًا.

وقد احتاج الإسلام في الانتشار إلى التغلب على قوة العوائد والتقاليد التي وجدها، وهو مانع يصادف كلَّ دين جديد، إلا أنه كان قويًا للغاية عند العرب؛ لتمسكهم بعاداتهم؛ وإعجابهم برسوم قبائلهم العريقة القديمة. وكان من الصعب جدًا أن يعتنقوا دينًا يرى آباءهم غير مطهرين[١].

ومن الموانع التي قوَّت في العربَ استعصاءَهم على الإسلام، ما اشتمل عليه من مبدأ قهر النفوس، وتذليلها للواحد المعبود. فالقول بالمساواة بين الناس طرًا أمامه، كان ثقيلا على آذان العرب، مخالفًا لتقاليدهم الأولية، حتى يدينوا إليه بغير عناء. ولذلك فإن الإسلام سنة (٦٣٣م)، حين وفاة النبي (ﷺ)، لم يكد يبلغ حدود جزيرة العرب. إلا أنه كان بين المسلمين الأولين، رجال من العظماء، اعترف بفضلهم الأب "بروغلي" حيث قال:

"إن الذين آمنوا بمحمد، كانوا قومًا صادقين، ذوي دراية وذكاء. منهم: أبو بكر، وعمر. رجلان توليا زمام مملكة فسيحة الأرجاء، فأحسنا سياستها، وكانا ذوي ثبات وعدل، وقناعة وفضل، وشدة عزيمة. وكانا أرفعَ قدرًا، وأبعد مرمى من القياصرة، والحكام الذين حاربوهما".

ومن الغريب أن الدين الإسلامي، لم يلقَ في طريقه من المقاومات إلا ما قابله بها العرب الوثنيون. فإنهم- كما قدَّمنا- كانوا مدفوعين إلى المقاومة بسبب تمسكهم بعوائدهم وشعائرهم القديمة، وحبهم لحريتهم واستقلالهم. فكان جميع تلك القبائل المنثورة، وهم رُحَلٌ في الوديان، غيورون على إطلاقهم في الفلوات، لا

---

[١] يقول الله تعالى عن قريش: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ {٢} كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ {٣} وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ {٤} أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ {٥} وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ {٦} مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ {٧} أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ {٨}﴾ (ص).

يعرفون من الحكم إلا سوق الماشية إلى المرعى، ومحاربة بعضهم في كل آن. وتكوينُ أمة واحدة منهم، أكبرُ عقبة قامت في وجه النبي (ﷺ)، ولولا قوة الدين الجديد، لما بقيت تلك الوحدة زمنًا طويلا. إلى أنها لم تدم إلا وقتًا، وعادت بعد ذلك إلى التفرق والانقسام.

غير أن القبائل بعد تفرق وحدتها، لا تزال متمسكة بدينها الجديد. وصار الاسم العربي ذا المقام الأول بين الأسماء في جميع أطراف المسكونة، وصار كلٌّ من ينتسب إلى عائلة من عائلات الجزيرة- خصوصًا عائلة قريش، له المجد الباذخ، والشرف الرفيع.

وهذا هو السبب في إطلاق اسم العرب في التاريخ على أمور كثيرة، فقالوا عائلة كذا عربية، وأمة كذا عربية، وتمدن كذا عربي، مع أنه لا جامعة بينها وبين بلاد العرب سوى الإسلام.

ولم تتوحد قبائل العرب لتصير أمة واحدة من غير إراقة الدماء، بل قامت حروب داخلية، أذكتها الأحقاد القديمة، وجلبت على المتحاربين خسائر جمة. وكان النبي (ﷺ) مهتمًا كثيرًا بفتح جزيرة العرب كلها؛ لظهوره بينهم، وكون بلاد العرب صارت مطلع شمس الإسلام، حيث ترسل أشعة نورها في جميع الأقطار، وكان أشياعه يسمعونه على الدوام يكرر عليهم هذا النداء: "لا يكون دينان في العرب أبدًا"[1].

ولذلك نزلت في القبائل المعاندة تلك الآيات التي تنذر بغضب الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ١٢٣)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ١٢٣). ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد: ٩)، ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ

---

[1] عن ابن شهاب الزهري: أن رسول الله ﷺ قال: "لا يجتمع دينان في جزيرة العرب" (أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في إجلاء اليهود من المدينة، ١٥٨٤. والبيهقي في السنن، كتاب الجزية، باب لا يسكن أرض الحجاز مشرك، ١٨٥٣١). وهو مقطوع.

الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد: ٤).

وقد نظر بعضهم إلى هذه الآيات، وما يماثلها فاتهموا النبي (ﷺ) بالتعصب. أفما كان يجب عليه أن يحارب بقوة السلاح المعاندين من الوثنيين؛ ليبيد تلك الديانة إلى الأبد من بلاد العرب؛ كما أنها هي التي أخنت[١] على مذهب التوحيد، مذهب الخليل[٢] قبل الإسلام، وأن يجعل بين المؤمنين وبين عبادة الأصنام حدًا فلا يرجعوا إليها ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (الأنفال: ٣٩).

ولقد فرَّق جميع مفسري القرآن على الدوام بين الوثنيين، وبقية الكافرين[٣]. فالمجوسي على قول خليل[٤]، هو الوثني الذي لا يعترف المسلمون بديانته، كما يعترفون بدين اليهود والنصارى، وليس له مقام في دارهم، وإن أدَّى الجزية؛ لأنها غير مقبولة منه، ويجب عليه أن يهاجر في ثلاثة أيام من يوم تكليفه بذلك، أو أن يعتنق الإسلام، أو أن يموت[٥].

---

[١] أخنت: الفعل أخني. ويقال: أَخْنَى عليه الدَّهْرُ، إذا مالَ عليه، وأَهلكه (لسان العرب ٢٤٤/١٤).

[٢] الخليل: هو إبراهيم ﷺ، خليل الرحمن.

[٣] من الكافرين، يتميز أهل الكتاب عن المشركين بأحكام، فتؤخذ منهم الجزية، ويُتركون وما يدينون، وتؤكل ذبائحهم، وتنكح نساؤهم. يقول الله تعالى: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (البقرة: ٢٢١). أما نساء أهل الكتاب فأباحهن قوله: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (المائدة: ٥).

[٤] ربما هو خليل صاحب مختصر خليل في الفقه المالكي.

[٥] اختلف الفقهاء فيما سوى أهل الكتاب من المشركين: هل تقبل منهم الجزية، أم لا؟ فقال قوم: تؤخذ الجزية من كل مشرك. وبه قال مالك. وقوم استثنوا من ذلك مشركي العرب. وقال الشافعي وأبو ثور وجماعة: لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب والمجوس. قال

على أننا نرى في الكتاب الخامس من التوراة[١]، أمرًا بالتشدد في معاملة الوثنيين قال:

"إذا أدخلك ربك في أرض لتملكها، وقد أباد أممًا كثيرة من قبلك، فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم، ولا تعطهم عهدًا، ولا تأخذك عليهم شفقة أبدًا"[٢].

كذلك أمر الله إسرائيل باستئصال سكان المدائن التي اختص بها قومه. ولم يأمر بالإشفاق إلا على المدن البعيدة، التي لا تصل دعوتهم إليها[٣].

مالك في المدونة في مجوس البربر: إن الجزية أخذها منهم عثمان بن عفان. قال مالك: في المجوس ما قد بلغك عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "سنوا بهم سنة أهل الكتاب". فالأمم كلها في هذا بمنزلة المجوس عندي" (بداية المجتهد ٥١٤/١. المدونة الكبرى ٥٢٩/١). وفي تاريخ المسلمين، لم يجبروا شعوب البلاد المفتوحة على الإسلام، من المجوس، والبوذيين، والهندوس، والصابئة. ولا تزال بعض هذه الأديان قائمة في البلاد التي حكمها المسلمون فترات طويلة كالهند.

[١] في الأصل "الزبور". والصحيح التوراة. والكتاب الخامس منها هو سفر التثنية.

[٢] التثنية "١٠: ٢٠ حين تقرب من مدينة لكي تحاربها: استدعها إلى الصلح. ١١ فإن أجابتك إلى الصلح، وفتحت لك. فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويُستعبد لك. ١٢ وإن لم تسالمك. بل عملت معك حربًا، فحاصرها. ١٣ وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. ١٤ وأما النساء، والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. ١٥ هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًا، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. ١٦ وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا، فلا تستبق منها نسمة ما ١٧ بل تحرّمها تحريمًا: الحثيين، والأموريين، والكنعانيين، والفرزّيين، والحوّيين، واليبوسيين- كما أمرك الرب إلهك".

[٣] التثنية "١٣:١٢ إن سمعت عن إحدى مدنك التي يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولا ١٣ قد خرج أناس بنو لئيم من وسطك، وطوّحوا سكان مدينتهم قائلين: نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفوها ١٤ وفحصت وفتشت، وسألت جيدًا. وإذا الأمر صحيح، وأكيد قد عمل ذلك الرجس في وسطك ١٥ فضربًا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف، وتحرّمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف. ١٦ تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها، وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها، كاملة للرب إلهك، فتكون تلا إلى الأبد، لا تبنى بعد".

ثم إن شدة اعتقاد النبي (ﷺ)، وقوة إيمانه بأن القرآن أُنزل إليه؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور- سببان يؤيدانه في استعمال الحرب. فكان مثل يوشع[١]، يخدم ربه بإبادة الوثنيين.

كذلك اعتناق بعض القبائل للإسلام في مبدأ ظهوره، كان أوجب عداوات شتى، اشتعلت بسببها نيران الفتن في بلاد العرب أجمعها. وما كان ينبغي للنبي (ﷺ)- حبًا في السلام- أن يترك الباطل يعلو على كلمة الحق المبين.

كتبَ القديس أوغستين[٢]- وعصره ليس ببعيد عنا- كتابه الشهير إلى الكونت

---

[١] في الأصل "أشعيا". والصحيح أنه يوشع بن نون، خليفة موسى. كما في السفر المسمى باسمه كثيرًا. منه: "٨:٢٤ وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية، حيث لحقوهم، وسقطوا جميعا بحد السيف حتى فنوا، أن جميع إسرائيل رجع إلى عاي، وضربوها بحد السيف. ١٠:٢٨ وأخذ يشوع مقيدة في ذلك اليوم، وضربها بحد السيف، وحرّم ملكها هو وكل نفس بها. لم يبقِ شاردًا. وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا. ١٠:٣٢ فدفع الرب لخيش بيد إسرائيل، فأخذها في اليوم الثاني، وضربها بحد السيف وكل نفس بها، حسب كل ما فعل بلبنة. ١٠:٣٥ وأخذوها في ذلك اليوم، وضربوها بحد السيف، وحرّم كل نفس بها في ذلك اليوم، حسب كل ما فعل بلخيش. ١٠:٣٧ وأخذوها، وضربوها بحد السيف مع ملكها، وكل مدنها، وكل نفس بها. لم يبقِ شاردًا، حسب كل ما فعل بعجلون، فحرّمها وكل نفس بها. ١٠:٣٩ وأخذها مع ملكها، وكل مدنها، وضربوها بحد السيف، وحرّموا كل نفس بها. لم يبقِ شاردًا. كما فعل بحبرون، كذلك فعل بدبير وملكها، وكما فعل بلبنة وملكها. ١١:١١ وضربوا كل نفس بها بحد السيف. حرّموهم. ولم تبقَ نسمة. وأحرق حاصور بالنار. ١:١٢ فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك، وجميع ملوكها، وضربهم بحد السيف. حرّمهم كما أمر موسى عبد الرب. ١١:١٤ وكل غنيمة تلك المدن والبهائم نهبها بنو إسرائيل لأنفسهم. وأما الرجال، فضربوهم جميعًا بحد السيف حتى أبادوهم. لم يُبقوا نسمة".

[٢] القديس أوغستين (٣٥٤-٤٣٠م): ولد في مدينة طاغست (سوق أهراس حاليا). أسس للمسيحية بمفهومها العام باعتراف جل المؤرخين الأوروبيين، وعلماء اللاهوت المسيحيين على اختلاف مذاهبهم. وأهلته مواهبه ليكون من أكبر فلاسفة المسيحية. وقد ترك أكثر من (٢٣٠) مؤلفا في قضايا الفلسفة والفكر واللاهوت. منها كتابه "مدينة الله" الذي يعد مصدرًا رئيسيًا في تاريخ الأديان. مما فرض على روما، عاصمة العالم آنذاك، تكريمه ودعوته إليها؛ لتمنحه أعلى استحقاقات الإمبراطورية الرومانية.

"بونيفاس"، يشير عليه فيه باستعمال القوة لردع أهل البدع من المسيحيين، وردهم إلى الديانة النصرانية، (راجع ترجمة هذا الخطاب في الملحق الثاني). وقد جاء فيه تمثيل المنشقين ببغال تعض، وترفس قومًا يعالجونها مما أصابها، وهم مُلجَئون إلى تعذيبها؛ ليتمكنوا من تضميد جراحها. وإن الطفل الصغير لا تتيسر تربيته بغير السياط والإيلام الجسماني. فالاضطهاد الذي يُستعمل ضد الأشرار؛ لردهم إلى طريق الخير، أكبر معروف يُصنع بهم.

نعم، لا يشك أحدٌ في أن حَمْل الناس على طاعة الله بالحسنى وبالتعليم، أولى من إلجائهم إليها بالإرهاب والتعذيب. إلا أن الناس رجلان: فمنهم من يسهل إقناعه بالمناظرة، فيرجع إلى الحق. ومنهم الغبي المكابر. ولقد دلتنا التجارب ولا تزال ترينا، أن مِن الناس مَن ينفع الخوف في تعليمهم، أو في استعمال ما تعلموه على الوجه الذي ينبغي[١].

ثم أخذ الكاتب يشرح للمكتوب إليه: أن الاضطهاد عدل وظلم. فهو عدل من الأتقياء ضد الأشقياء، وظلم من هؤلاء على الأولين، قال:

"تضطهد الكنيسة من تحب، ويضطهد الأشرار من يكرهون. فهي تريد جمع الشمل، وهم يفرقون. وهي تجري خلف الهدى، وهم للضلال يسارعون".

ولقد كان يتعذر أن يلاقي الناس تساهلا ولينًا من الإسلام في مبدأ ظهوره، لما في ذلك من المخالفة لثورة الدين في نفس النبي (ﷺ) وأصحابه الأولين. ولكن بعد أن دانتْ العرب، وآمنتْ بالقرآن، واستنارتْ القلوب بنور الدين الحنيف- برزَ المسلمون في ثوب جديد أمام أهل الأرض قاطبة، هو المسالمة وحرية الأفكار في المعاملات، وتتابعت آيات القرآن: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ

---

[١] هل نترك من يلقي نفسه في النار يفعل؟ وهل ندع من يحترق في النار لشأنه؟ ليس ذلك من الحكمة. ولكن لابد من القوة الرحيمة، كما في حديث النبي ﷺ: "عجبَ الله من قوم، يدخلون الجنة في السلاسل!" (أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الأسارى في السلاسل، ٢٨٤٨). قال أبو حاتم: "القصد في هذا الخبر: السَّبْيُ الذي يسبيهم المسلمون من دار الشرك، مكتفين في السلاسل، يُقادون بها إلى دور الإسلام حتى يسلموا، فيدخلوا الجنة".

علم﴾ (الأنعام: ١٠٨)، ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾ (المزمل: ١٠)، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾ (الفرقان: ٦٣).

هكذا كانت تعاليم النبي (ﷺ) بعد إسلام العرب. وقد اقتفى أثره فيها الخلفاء من بعده. وذلك يحملنا على القول كما قال "روبنسون":

"إن شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة، ومحبة انتشار دينهم. وهذه المحبة التي دفعت العرب في طريق الفتح. وهو سبب لا حرَج فيه، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة، إذ أغاروا على الشام، وساروا سير الصواعق إلى أفريقيا الشمالية، من البحر الأحمر، إلى المحيط الأطلنطي. ولم يتركوا أثرًا للعسف. ولو قارنا بين إغارة المتبربرين[1]، وبين إغارة المسلمين التي تلتها، لوجدنا الثانية أخف ضررًا، وأكثر لينًا. فكلما التقى المسلمون بأمة، خيَّروها بين واحد من ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو تحكيم الحرب حتى تضع أوزارها[2]".

وهكذا كانت الأوامر التي زوَّدَ بها أبو بكر الصديق خالد بن الوليد، لمَّا أنفذه

---

[1] المتبربرون: لفظ يطلق، ويراد به المتخلفين عمومًا. وأما خصوصًا، فيطلق على الأمازيغ، وهو جمع، مفرده أمزيغ، ويعني الحر النبيل. وهم السكان الأصليون لشمال أفريقيا التي عمروها منذ قرون عدة. وبسبب استقلال لغتهم، واختلافها عن لغة الرومان، فقد سموهم بـ"البربر"، التي تعني العجمة. والعجيب أن الكاتب يقصد بهم هنا الرومان، الذين أذاقوا أهل الشمال الأفريقي من الأهوال ما سطرته كتب التاريخ.

[2] كان رسول الله ﷺ إذا أمَّرَ أميرًا على جيش أو سرية، أوصاه خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا. ثم قال: "اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال)، فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم.... فإن هم أبَوا، فسلهم الجزية. فإن هم أجابوك، فاقبل منهم، وكفَّ عنهم. فإن هم أبوا، فاستعن بالله وقاتلهم" (أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصية إياهم بآداب الغزو وغيرها، ١٧٣١).

إلى الشام[١]. وقد سرتْ هذه الأوامر، إلا في الوثنيين؛ لَمّا تقدم بيانه، من أنهم كانوا يُعاملون بغير معاملة الأمم الأخرى.

ومما يحسن هنا: أن نقابل بين أوامر أبي بكر (ﷺ)، وبين تعاليم الكتاب الخامس من التوراة[٢]، فيما يتعلق بحصار المدائن، ومعاملة الكلدانيين. قال:

"إذا اقتربتَ من مدينة لتحاصرها، فاعرض عليها الأمان. فإن قبلته، فقد سلم كل من فيها. وإن أبتْ، وبادأتك بالعدوان، فشدد عليها الحصار. ومتى وفقك الله للظفر بها، فحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام"[٣].

ولم يلقَ المسلمون من نصارى آسيا وأفريقيا إلا مقاومة خفيفة، أخلدوا بعدها إلى الدين الجديد. ولقد مضى زمن طويل، وهم ينسبون سقوط تلك الكنائس في حوزة الإسلام، مع ما كان لها من المكانة الرفيعة قبله، مثل كنائس "قرطاجة"[٤]- إلى ما استعمله المسلمون معهم من العنف والتعصب، وعدم المحاسنة.

وذهب معاصرو هذا الفتح من المؤلفين، إلى تفسيره بما يلائم أحوال زمنهم، فنسبوا سرعة تقدم الإسلام، إلى ما استحقه المسيحيون من غضب الله عليهم؛ فأرادَ

---

[١] بعث أبو بكر ﷺ يزيدَ بن أبي سفيان إلى الشام، فأوصاه قال: لا تقتلوا صبيًّا، ولا امرأة، ولا شيخا كبيرًا، ولا مريضًا، ولا راهبًا، ولا تقطعوا مثمرًا، ولا تخربوا عامرًا، ولا تذبحوا بعيرًا ولا بقرة إلا لمأكل، ولا تغرقوا نخلا، ولا تحرقوه" (أخرجه البيهقي في السنن، كتاب السير، باب ترك قتل من لا قتال فيه من الرهبان والكبير وغيرهما، ١٧٩٣١).

[٢] في الأصل "الزبور". والصحيح ما أثبت.

[٣] التثنية "١٠ :٢٠ حين تقرب من مدينة لكي تحاربها، استدعها إلى الصلح. ١١ فإن أجابتك إلى الصلح، وفتحت لك. فكل الشعب الموجود فيها، يكون لك لَلتسخير، ويُستعبد لك. ١٢ وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربًا، فحاصرها. ١٣ وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف".

[٤] قرطاجة: قامت بها إمبراطورية قرطاج، وكانت إمبراطورية كبيرة حكمت شواطئ المغرب الكبير وصقلية وإسبانيا، إلى أن وقعت تحت الهيمنة الرومانية بدءًا من عام (١٤٦ق.م). وقد انتشرت فيها الديانة المسيحية، وقامت بها كثير من الكنائس الشهيرة، إلى أن انتشر فيها الإسلام بعد الفتح. وتقع مدينة قَرْطَاج حاليًا في بلاد تونس، بالقرب من مدينة تونس الحاضرة.

أن يعاقبهم على زيغهم.

وأرادَ قومٌ من المتعبدين أن يؤيدوا هذه الحُجَّة، وأن يُحرِّضوا الناس على التوبة، فبالغوا في ذلك الزيغ، وشدَّدوا النكير على النصارى، وصاروا يُوعزون بأن الجيوش الإسلامية، إنما هي الآلة التي أراد الله أن ينتقم منهم بواسطتها؛ ذلك لأن الفتح الإسلامي، وتفرق الكنائس المسيحية في آسيا وأفريقيا- حادثتان متلازمتان، فلا لوم على المؤرخين في الجمع بينهما، حتى أن الفاتحين أنفسهم، ما كانوا يُفرقون بين اعتناق الإسلام، والرضوخ للقوة الظافرة.

ولكن الخطأ عند الجميع، هو تعليقهم الثانية على الأولى، مع أنه لا يوجد بينهما إلا تفاعل من بعض الوجوه. فكما أن الفتح الإسلامي حَمَل النصارى على ترك دينهم، كذلك تفرُّقُ ذاتِ بينهم، سهَّل الفتح للمسلمين.

أنكر "آريوس" ألوهية عيسى، فكان بذلك طليعة لنبي المسلمين؛ إذ فتح الطريق إلى الإسلام؛ لأن الإسلام ما كان يقول عن المسيح إلا أنه آخر الرسل قبل محمد (ﷺ). وبعد أن ظهر لم يقم أحد بطعن يُذكر ضد مذهب التثليث، بل جرى النصارى عليه بالإجماع اثني عشر قرنًا متتالية[1]، حتى صار عامًا، ولم يعد الباحثون غير المتدينين يجرءون على نبذه من بين الديانات القائلة بالتوحيد؛ مع يلزمه من تعدد ذات الإله.

ولذلك كان من خوارق العادات، قيام أسقف الإسكندرية آريوس في وجه الدين المسيحي، حتى ارتجتْ له أركان ذلك الدين، واستولى اليأس على قلوب المسيحيين المخلصين، وصار القديس "جيروم" يتنهد الصعداء قائلا:

"لقد اندهش الكون من صيرورة الناس كفارًا، لا يعتقدون بتجسم الآب في الابن".

---

[1] ظهر آريوس في القرنين الثالث والرابع الميلاديين؛ لذا لا أفهم القرون الاثني عشر. وهناك من الموحدين النصارى كثير. منهم بيلاجيوس، وهو راهب بريطاني، ولد حوالي سنة (٣٦٠م)، وتوفي سنة (٤٢٠م)، رفض عقيدة تأليه المسيح وحاربها، ورفض أيضًا عقيدة الخطيئة الموروثة. (يراجع في ذلك كتاب د.رءوف شلبي: "يا أهل الكتاب تعالوا"، ص٢٢٤. وانظر أيضًا: عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية: حسني يوسف الأطير، دار الأنصار، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٣٢-٣٣).

ومع أن المسيحيين أتباع "أثناسيوس"، تمكنوا من التغلب على هذا المذهب الجديد، فقد نتجَ من هذا الخلاف انشقاقٌ عظيم في كنائس أفريقيا وآسيا.

وظهر الإسلام يخطو خطاه الواسعة، فلم يرَ فيه أولئك المتنافسون دينًا جديدًا، بل قبلوه مذهبًا مسيحيًا!

ولانتشار الإسلام، ورضوخ الأمم لسلطانه، سببٌ آخر في هاتين القارتين: آسيا، وشمال أفريقيا، هو استبداد القسطنطينية[1]. فإنه كان قد بلغ منتهى العسف، ووصل جَوْر الحُكام إلى درجة أزهقت النفوس.

فلما جاء الإسلام، ترامَوا إليه هربًا من الضرائب الفادحة، واستلاب الأموال؛ لأنه كلما أسلمتْ عشيرة رُفع عنها أثقال المغارم، ورُدَّ إليها مالها المسلوب.

ومَن لم يقبل شريعة القرآن، عوملَ هذه المعاملة عينها بلا قيد، غير أداء الجزية، وكانت شيئًا يسيرًا (العشر)[2]، أو جزءًا من اثني عشر[3]. وبذلك أمنوا في ظل الدين الجديد، ولم يتعرض إليهم أحد من دعاته في دينهم، ولم يُفرَّق بين أصلي في

---

[1] المقصود بها الإمبراطورية البيزنطية، وكانت عاصمتها القسطنطينية. غُيِّر اسمها بعد الفتح الإسلامي لها لإسطنبول، وجُعلت عاصمة للخلافة الإسلامية العثمانية.

[2] جعل عمر بن عبد العزيز على من خرج منهم من بلاده إلى غيرها يتجر إليها فعليه العشر. من تجر منهم من أهل مصر إلى الشام، ومن أهل الشام إلى العراق، ومن أهل العراق إلى المدينة، أو اليمن، أو ما أشبه (الموطأ ١/٢٧٩).

[3] وضع عمر بن الخطاب ﷺ على أهل السواد، على كل جريب يبلغه الماء، عامرًا وغامرًا، درهمًا وقفيزا من طعام. وعلى البساتين، على كل جريب عشرة دراهم، وعشرة أقفزة من طعام. وعلى الكروم، على كل جريب أرض، عشرة دراهم، وعشرة أقفزة من طعام. وعلى الرطاب، على كل جريب أرض خمسة دراهم، وخمسة أقفزة طعام. ولم يضع على النخل شيئا، وجعله تبعا للأرض. وعلى رءوس الرجال، على الغني ثمانية وأربعين درهمًا، وعلى الوسط أربعة وعشرين درهمًا، وعلى الفقير اثني عشرة درهمًا" (أخرجه ابن أبي شيبة، كتاب الزكاة، ما يؤخذ من الكروم والرطاب والنخل وما يوضع على الأرض، ١٠٧٢٢). وعفي من أداء الجزية النِّساءَ والصبيانَ والمساكينَ والرُّهبان وذوي العاهات، فلا تُجبى الجزية من امرأة، ولا فَتاة، ولا صبي، ولا فقير، ولا شيخ، ولا أعمى، ولا أعرج، ولا راهب، ولا مختل في عقله. بل زاد الإسلام في فضله فتكفل بالإنفاق على من شاخ وعجز من أهل الذّمة.

المسيحية، ومنشق عنها. وهذه المعاملة هي التي جاء بها القرآن، وجرى عليها الخلفاء الأولون، فكان اليهود والمسيحيون يسمون أهل الذمة.

واليهود والنصارى ثلاثة: ذميون، ومستأمِنون، ومحاربون. فالأول منهم، مَن سكنَ بلاد المسلمين، ودانَ لسلطة الحاكم الإسلامي، وأدَّى الجزية إليه. يعبد الله على دينه، ولا يُكرَه على الإسلام، ويخضع لقوانين النظام والأمن العام، ويرجع إلى دينه في الأحوال الشخصية، من زواج وطلاق وميراث، إلا إذا اشترك معه مسلم، فيرجع إلى الدين الإسلامي[1].

ومن الخطأ الفاحش، استعمال لفظة الذمي في معنى الخسة والدناءة؛ لأن معناها الحقيقي: "المؤمَّن"، (بتشديد الميم الثانية وفتحها)[2].

والمستأمِن هو الغريب، العابر السبيل. وهو يعيش تحت حماية المعاهدات والقوانين الدولية العامة.

(وأما المحارِب)، فهو من كان في بلاد تجاهر بالعداوة للإسلام، أو لم تتعاقد مع المسلمين على ما يضمن لأهلها الأمان في ديارهم. فإن وُجِدَ في بلد مسلم، وشهَرَ السلاح في وجهها- خُيِّر بين الإسلام، أو الإعدام. وما عدا ذلك، فهو آمن إن أدَّى الجزية. قال عليٌّ (ﷺ):

"ما كانت الجزية إلا ليتساوى دم الذمي بدم المسلم، وماله بماله"[3].

---

[1] إذا تزوج مسلم كتابية كانت الشريعة الإسلامية هي الحاكمة.

[2] الذمي هو من له ذمة وعهد عند المسلمين؛ لذا يسمى معاهَدًا. وعن النبي ﷺ قال: "من قتل معاهَدًا، لم يرحْ رائحة الجنة. وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا" (أخرجه البخاري، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهَدًا بغير جُرم، ٢٩٩٥).

[3] روي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: "إنما بذلوا الجزية؛ لتكون دماؤهم كدمائنا؛ وأموالهم كأموالنا". قال الألباني (إرواء الغليل، حديث (١٢٦٤) ٥/١٠٣): "لم أقف عليه. ثم رأيت الحديث في "الهداية" من كتب الحنفية. فقال الحافظ الزيلعي في تخريجه (٣/٣٨١): "قلت: غريب". قلت: يعني أنه لا أصل له".أهـ. وأُتي علي بن أبي طالب ﷺ برجل من المسلمين، قتلَ رجلا من أهل الذمة. قال: فقامت عليه البيِّنة، فأمرَ بقتله. فجاء أخوه فقال: إني قد عفوت. قال: فلعلهم هددوكَ، وفرقوك، وفزعوك! قال: لا ولكن قتله لا يردُّ عليَّ أخي؛ وعوضوني فرضيت. قال: أنت أعلم! مَن كان له ذمتنا، فدمه كدمنا، وديته كديتنا"

وكان من وراء هذه المسالمة ولين المعاملة، تقدم الإسلام حثيثًا، وسهولة استعلاء فاتحيه؛ لما سبقه من ظلم أكاسرة المملكة الشرقية، التي بغضها الناس، وسئموا الحياة منها.

هذا، وإذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام، إلى استقرار حكومته استقرارًا منظمًا- رأيناه أكثر محاسنة، وأنعمَ ملمسًا بين مسيحيِّ الشرق على الإطلاق. فما عارَضَ العربُ أبدًا شعائر الدين المسيحي، بل بقيتْ روما نفسها حرة في المراسلات مع الأساقفة الذين مازالوا يرعون الأمة الخالية.

وفي سنة (١٠٥٣م)، كتب البابا ليون التاسع إلى مسيحيي أفريقيا، يوصيهم باتخاذ أسقف "قرطاجة" مطرانًا عامًا بينهم. وكان الوئام مستحكمًا بين المسلمين والمسيحيين، حتى أن "غريغوريوس" السابع كتب إلى المسيحيين يلومهم على المحاكمة مع أسقفهم أمام المسلمين. وكان ذلك في ٥ سبتمبر، سنة ١٠٧٣م[١].

ومع هذه المسالمة العظيمة من جانب المنتصر إلى المغلوب، ضعفت الديانة النصرانية جدًا، ثم زالتْ بالمرة من شمال أفريقيا.

على أن الإسلام لم يكن له عمال (دعاة) مخصوصون، يقومون بالدعوة إليه،

(أخرجه الشافعي في مسنده، كتاب الديات والقصاص، ١٥٨٥. والبيهقي في السنن، باب بيان ضعف الخبر الذي روي في قتل المؤمن بالكافر وما جاء عن الصحابة، ١٥٧١٢).

[١] البابا القديس غريغوريوس السابع (١٠٢٠-١٠٨٥م): تعززَّت العلاقة بين البابا غريغوريوس السابع (تولى البابوية من ١٠٧٣ إلى ١٠٨٥) وملك موريتانيا المسلم بتحرير بعض الأسرى وإرسال الهدايا والرسائل. ومن قوله في إحدى رسائله: "يجب علينا، نحن وأنتم، أن نعطي للأمم الأخرى مثالاً على محبة الله، لأننا نؤمن ونعترف بإله واحد، وإنْ بطرق مختلفة، ونسبِّحه ونعبده كلَّ يوم، خالق الدهور كلِّها، وسيد هذا العالم". وهناك أيضًا رسالة بعث بها البابا غريغوريوس السابع في سنة (١٠٧٦م)، إلى الأمير المسلم الناصر، الذي كان يتولى الحكم في بجاية، الجزائر الحالية. وقد جاء فيها: "إن الله القدير، الذي يودُّ أن يخلِّص الجميعُ ولا يهلك أحدٌ، لا يحبذ شيئًا فينا، أكثر من أن يحبَّ المرءُ قريبَه بعد حبِّ الله، وألا يصنع بغيره ما لا يريد أن يصنع غيرُه به. إننا نتمنى، نحن وإياكم، هذه المحبة لذواتنا، ولاسيما أننا نؤمن بالله الواحد، ونقرُّ به، كلٌّ على طريقته الخاصة، ونمجِّده يوميًّا ونكرِّمه، هو خالق العالم وسيده".

وتعليم مبادئه، كما في الديانة المسيحية. ولو أنه كان له أناس قوّامون؛ لسهل علينا حلُّ إشكال السبب في تقدمه القريب. فإنا شاهدنا الملك شارلمان[1] يستصحب معه على الدوام في حروبه ركبًا من القسس والرهبان؛ ليباشروا فتح الضمائر والقلوب، بعد أن يكون هو قد باشر فتح المدائن والأقاليم بجيوشه، التي كان يُصْلي بها الأمم حربًا تجعل الولدان شيبًا!

ولكنا لا نعلم للإسلام "مجمعًا دينيًا"، ولا رسلا، وأحبارًا وراء الجيوش، ولا رهبنة بعد الفتح. فلم يُكره أحدٌ عليه بالسيف، ولا باللسان. بل دخل القلوب عن شوق واختيار، وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير، والأخذ بالألباب.

نعم، قد اعتنق الإسلام قوم، مشَوا وراء منافعهم. ولكنهم قليلون بجانب مَن أسلمَ عن اعتقاد صادق، وميل صحيح. وكان ذلك من أسهل الأمور؛ لبساطة الدين؛ وكفاية النطق بكلمة التوحيد؛ ليصير قائلها من المسلمين.

ومع ذلك، فلم نرَ بعد استقرار الحكومة الإسلامية استقرارًا منظمًا، عشائر من المسيحيين تركوا دينهم جملة واحدة. بل إنه صار من اللازم أن يثبت الإسلام لمن أراده على يد القاضي، ويُحرَّر بذلك محضر[2]، يُذكر فيه: أن المسيحي اعتنق الإسلام عن اعتقاد تام، غير خائف، ولا مكره؛ إذ لا يجوز أن يُكره أحد على تغيير دينه. (راجع المحضر المذكور في الملحق الثالث).

وقد كثر دخول المسيحيين في الدين الإسلامي أيام حكم الأمويين، حتى أن الخلفاء لم ينظروا إليه بعين الرضا؛ لما كان ينشأ عنه من الضرر ببيت المال، فقد نزلت ضرائب مصر مدة خلافة معاوية إلى النصف، عمّا كانت عليه في خلافة عثمان؛ بسبب دخول عديد من الأقباط في الإسلام. ومن أجل ذلك ضيَّق الخلفاء باب الدخول في الدين الجديد، فلم يعفوا الراغبين فيه من أداء الجزية. يدلنا عليه

---

[1] الملك شارلمان: أشهر ملوك الفرنجة. تولى الحكم سنة (٧٦٨م)، فزاد في رقعة المملكة، وفي عهده أصبح الفرنج سادة غرب أوربا. أما الشمال الأوروبي الوثني فقد تنصر بعد ذلك بسيف الملك شارلمان، الذي سنّ قانوناً يقضي بإعدام كل من يرفض أن يتنصّر. لذلك توجه البابا في سنة (٨٠٠م) بوصفه إمبراطور الرومان.

[2] كتابة مثل هذا المحضر هو من الأمور التنظيمية، فلم يوجبه الشرع الإسلامي.

ما كتبه حيان إلى عمر الثاني وهو عمر بن عبد العزيز- أتقى الخلفاء الأمويين، حيث قال له في خطابه:

"إذ دام الحال في مصر على ما هو فيه الآن، أصبح مسيحيو هذه البلاد كلهم مسلمين، وخسرت الخلافة حينئذٍ ما تجبيه منهم من الأموال"[١].

فلما قرأ الخليفة هذا الكتاب، أنفذ لساعته إلى حيان رسولا، وقال له:

"إذا لقيت حيانًا فاضربه ثلاثين سوطًا على أمِّ رأسه؛ عقابًا له على كتابه. وقل له أن يرفع الجزية عن كل رجل يعتنق الإسلام؛ فإني أرى سعادتي في أن يصبح النصارى أجمعون مسلمين؛ لأن الله أرسل نبيه ليبغ رسالته؛ لا ليجمع الضرائب والأموال"[٢].

وليس في خوف المسلمين على نفاد النقود من بيت المال ما يوجب استغرابنا؛ لأن الضرائب في الجزائر تصيب مسلميها، فهي أكثر جدًا من التي تُطلب من المسيحيين. فلو تنصَّر مسلمو الجزائر، ومُنحوا جميع الامتيازات المخولة للمسيحيين، لأصبحنا في حيرة شديدة من قلة المال!

ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين في بلاد الأندلس، حتى صاروا في حالة أهنأ من التي كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين، الذين يقال لهم "فزيجو"[٣].

---

[١] عزل عمر بن عبد العزيز: الجراح بن عبد الله الحكمي عن إمرة خراسان بعد سنة وخمسة أشهر من ولايته. وإنما عزله لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار، ويقول: أنتم إنما تسلمون فرارًا منها. فامتنعوا من الإسلام، وثبتوا على دينهم، وأدَّوا الجزية. فكتب إليه عمر: إن الله إنما بعث محمدًا ﷺ داعيًا، ولم يبعثه جابيًا. وعزله وولى بدله عبد الرحمن بن نعيم القشيري على الحرب، وعبد الرحمن بن عبد الله على الخراج (البداية والنهاية: ابن كثير ١٨٨/٩).

[٢] كتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد. فإن الناس قد كثروا في الإسلام، وخفت أن يقل الخراج. فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: "فهمت كتابك! ووالله لوددت أن الناس كلهم أسلموا؛ حتى نكون أنا وأنت حراثين، نأكل من كسب أيدينا" (أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣٠٥/٥).

[٣] قدماء الجرمانيين: قبائل وثنية انتشرت في أوروبا الشماليّة، كانت الملكية عندهم هي ملكية مجموع القبيلة، ولم يعترفوا بالملكية الخاصة للفرد.

ويقول "دوزي":

"إن هذا الفتح لم يكن مُضرًّا بالأندلس. وما حصل من الاضطراب والهرج بعده، لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الإسلامية في تلك البلاد. وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم، وقلدّوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون في خدمة الخلفاء، كثير منهم تولى قيادة الجيوش. مثل "سيد".

وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين، وحصل بينهم زواج كثير. وكم من أندلسي بقي على دينه! ولكن أعجبته طلاوة التمدن العربي، فتعلم اللغة العربية وآدابها، وصار القسس يلومونهم على ترك ألحان الكنيسة، والتعلق بأشعار الظافرين. وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها. لذلك لما اضطهدت أوروبا اليهود، لجئوا إلى خلفاء الأندلس في "قرطبة"، لكن لما دخل الملك "كارلوس" في سرقسطه، أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود، ومساجد المسلمين[1].

ونحن نعلم: أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية، ما دخلوا بلادًا إلا وأعملوا السيف في يهودها ومسلميها، وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مُجيرًا وملجأ في الإسلام. فإن كانت لهم باقية حتى الآن، فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم، لا إلى ما يوجد بين الاثنين من الجامعة في الأصل والجنس، واللغة والدين- كما ادعاه "أفيديكور شايكين".

ولم يطلب المسلمون من مسيحي الأندلس، إلا ما فرضوه على غيرهم، وهو الجزية. ويحسن بي أن أذكر نادرة رواها أحد مؤرخي العرب؛ لكونها تدلنا على آرائهم في الجزية، وما كان بين المسلمين والنصارى من العلائق والروابط:

"كان لفقيه من فقهاء قرطبة جار مسيحي، يُسَلم عليه كلما لاقاه في طريقه بقوله: أطال الله عمرك! فسمعه ذات يوم بعض المتشددين في التمسك بالقرآن،

---

[1] كارلوس الخامس: حكم الأندلس في بداية القرن السادس عشر، قضى نهائيًا على اليهود عن طريق محاكم التفتيش، ولم يسلم منه النصارى المخالفين في المذهب، بل أصدر أمرًا في سنة (١٥٢١م) بطرد البروتستنتيين في بلاد فلامنك عن رأي البابا. وبسبب ذلك قتل خمسمائة ألف نفر!!

ولاموه على دعائه لجاره النصراني بمثل هذا الدعاء. فلم يحفل الفقيه بملامهم، وأجابهم بسكينة: إنني بقولي لنصراني بمثل: أطال الله بقاك، أريد أن يُفسح له في الأجل؛ ليؤدي الجزية زمنًا طويلا.

والظاهر أن الفقيه كان مصافيًا للمسيحي، وأنه أراد التخلص من عتب اللائمين، فأسكتهم بهذا الجواب.

وقصص العرب والأندلسيين محشوة بمثل هذه النادرة، مما يدل على حصول المودة الأكيدة بين الفريقين. فمما هو مبالغ فيه إذن، تعظيم الضغينة التي كانت بين الأمتين. أمَا رأينا الخلفاء أنفسهم في الشام والأندلس، يتخذون لهم نصحاء من المسيحيين، ويرفعونهم إلى أعلى الدرجات. وكان المسلمون يَشْكون من ذلك علنًا، ويرددون هذه الحكمة البديهية، التي نزلتْ على النبي (ﷺ): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: ٥١).

وذهب العلماء إلى تحريم مصافاة المسيحيين[1]، وقالوا بعدم جواز ولايتهم في المناصب، إلا أن أوامر الدين لا تقوى على الضرورة. فتولي المسيحيين مناصب في الإسلام، كان ضربة لازب[2] عقب الفتح، لعدم تعود العرب على سياسة الأمم، فكانت إدارة ممالكهم من أصعب الأمور لديهم، ووجب لذلك استخدام المسيحيين.

إلا أن أولئك الموظفين، كانوا يشوهون- بوجودهم في المناصب- وحدة الإسلام. وقد سمَّاهم المحدثون من العرب: "قذى حقيقيًا في أعين الإسلام". وكان بغض المسلمين لهم مسببًا في الغالب من جورهم في الأحكام، لا من مخالفتهم في الدين.

وليس من غرضي، أن آتي على تاريخ المسيحيين في الممالك الإسلامية أيام القرون الوسطى، ولكن من البديهي أنه لابد من أن يكون حصل بين الفريقين

---

[1] أجازت الشريعة الزواج من الكتابيات. وهذا معناه جواز مصافاتهم إن كانوا مصافين لنا. ولكن لا يجوز موالاتهم ضد مصالح المسلمين؛ لأن ذلك من خيانة الله ورسوله والمؤمنين. وكل قوانين الدول تحرم خيانة الوطن، وتسمي ذلك "جريمة الخيانة العظمى".

[2] لازب: اللَّزْبة الشدَّةُ. ومنه قولهم: هذا الأمر ضربَةُ لازبٍ، أَي لازمٍ شديد (لسان العرب ٧٣٨/١).

تعدٍ واعتساف. كما يحصل المد والجزر في البحر، إلا أن رأي المؤرخ لا يأتيه من جمع الحوادث مجردة عن ظروفها، بل من نظره في أسباب تلك الحوادث، والوقوف على كيفية ظهورها.

وأنا قد قرأت التاريخ، وكان رأيي- بعد ذلك- أن معاملة المسلمين للمسيحيين، تدل على ترفع عن الغلظة في المعاشرة، وعلى حسن مسايرة، ولطف مجاملة. وهو إحساس لم يُشاهَد في غير المسلمين إذ ذاك، وخصوصًا أن الشفقة والحنان كان عنوان الضعف عند الأوروبيين. وهذه الحقيقة، لا أرى وجهًا للطعن فيها، على وجه العموم.

على أنه لا يسعني أن أترك ذكْر حادث عظيم الشأن، ذلك أن الكنيسة الأندلسية تخيلت- سنة (٨٥١م)- أنها على شفا جُرُف الاضطهاد من المسلمين. فبينما عامة المسيحيين في قرطبة يقيمون شعائر دينهم مطمئنين، ولا يشكون من حكومة العرب. كان القليل منهم يتميز من الغيظ ضدهم، بما هيَّجه القسس والرهبان في صدورهم من الغل، وما ملئوا به ضمائرهم من الحقد والبغضاء. وقد امتاز من بينهم "إيلوغوا"، وكان قسًا في قرطبة، في عنفوان شبيبته، حتى أنه احتاج في كسر ثورة نفسه، إلى قهرها بالصوم والسهر، ووهب نفسه للموت؛ حبًّا في المسيح، فأنساه هذا الميل كل شهوة دنيوية. وكان يجتمع دائمًا بمبغضي الإسلام، ويخطب فيهم حتى أهاج ضمائرهم[١] لقوة بيانه. وهاموا جميعًا يطلبون الموت فداء لدينهم.

إن الأندلسي حاد التخيل، سهل الاعتقاد بالأوهام.

وبينما القاضي في مجلسه بمدينة قرطبة، إذ دخل عليه راهب، يقال له إسحاق. وكان كاتبًا لأحد أمراء العرب، وعلى وجهه سمات التهيج الذهني، وعيناه حائرتان. فلمَّا صار بين يديه قال: حضرتُ لأعتنق الإسلام. فأمره القاضي أن ينطق بالشهادتين، فاندفعَ يسبُّ النبي والدين سبًا شنيعًا؛ فظنه سكران، أو مختلٍّ الشعور. وتردد في الحكم بإعدامه، إلا أن إسحاق لم يرجع من أول مرة، بل استمرّ على شتائمه، حتى اضطر القاضي أن يحكم عليه بالموت، على ما به من الحلم؛ طوعًا لحكم الشرع؛ إذ يقضي بالإعدام على من يسب الرسول (ﷺ).

---

[١] ضمائرهم: جمع ضميمة. وهي ما اشتملت عليه النفس من دخائل.

وأعدم إسحق (في ٥ يونيه، سنة ٨٥١م)، وهو يعترف بالمسيح، ويسب محمدًا (ﷺ).

ومن ذلك الحين، انفتح الباب أمام كل شخص يظن نفسه معذبًا، وأراد كلُّ واحد أن يذهب إلى المحكمة؛ ليسب محمدًا (ﷺ)، ويموت. فتقاطروا إليها أفواجًا أفواجًا، حتى تعب الحُجَّاب من ردِّهم. وكان القاضي يصم الأذن كي لا يُحكم عليهم بالإعدام. وعقلاء المسلمين مشفقون على هؤلاء المساكين، آسفون على أنهم يُعرِّضون أنفسهم للحكم بالإعدام، ويظنونهم من المجانين. وقد بلغ عدد الذين حُكم عليهم بالقتل أحد عشر في شهرين.

واتخذ "إيلوغو" ذلك دليلا على انتصاره؛ لأنه هو الذي أوجدَ خيال الاضطهاد في الأذهان، واستحق بذلك أن يخلد ذكره في الكنائس. ومع هذا، كان عقلاء المسيحيين يرون أولئك المتعصبين قومًا أرادوا الانتحار، ويجاهرون بالتنديد بأعمالهم. على حين كان "إيلوغو" وصاحبه "القارو" يرميانهم بالخيانة؛ لعدم إقدامهم على سب النبي (ﷺ) ودينه.

ثم عظم الهياج في كنائس الأندلس، واستولى القلق على حاشية الخليفة، فأمر الأمير عبد الرحمن الثاني بجمع رؤساء القسس. وطلب منهم الفتوى فيما هو حاصل من المسيحيين، فلم يتعرضوا للماضي، وقالوا بالمنع في المستقبل. وتقرر أن لا يحضر مسيحي أمام القاضي إلا إذا دُعِّي إليه. فانقادوا آسفين، ولكن ثورة الخواطر استمرت في الكنائس إلى سنة (٨٥٩م).

وانتهى هذا الدور الذي سمَّاه "إيلوغو": زمن الاضطهاد في قرطبة. وتبعه في ذلك غيره من المؤرخين. ومَن تخلى عن الأغراض، لا يرى في ذلك إلا أن قومًا خاطروا بأنفسهم، فذهبت ضحية الأوهام، ولكنه لم يحصل من المسلمين اضطهاد مطلقًا.

ودليلنا على ذلك كتاب "إيلوغو" نفسه، وكُتب مَن جاء من بعده؛ فإنها كلها تنطق بأن المسلمين لم يبدءوا بالشر. بل ثورة المسيحيين وتعديهم هما اللذان كانا السبب فيما أصابهم.

ومَن أراد أن يطالع تلك الكتب، فجزاؤه من قراءاتها أن يقف على حكاية إحدى العذارى، التي كانت تسمى "فلورا".

وُلدت فلورا لزوجين مختلفين دينًا وجنسًا. وتيتمت صغيرة، فربتها أمها على الدين المسيحي. وكان لها أخ شديد الإسلام، فشكاها إلى القاضي، وعُزرتْ تعزيرًا شديدًا بالسياط، حتى تقطعت بشرة رأسها من الخلف. وكانت ذات حسن وجمال باهرين، كما أن أبويها كانا من جنسين عظيمين.

واتفق أن جراحها زادت في حسنها. واهتم بها أشياع "إيلوغو"، وصاروا يذهبون لمشاهدتها في المحكمة، ويعجبون بشجاعتها في تمسكها بدينها. وقد ذهب "إيلوغو" نفسه لزيارتها، فكشفت له عن جراح رأسها، وشاهدها بغير تلك الشعور التي كانت تزينها، فتأثر التقي الصالح "إيلوغو" لمرآها، واشتعل قلبه بحبها، غير أنه حب طاهر طهارة الأبكار. ثم وضع يده على الجروح، ووَدَّ لو تمكن من شفائها بين شفتيه، ولكنه لم يتمكن، فانصرف عنها مكتئبًا مفكرًا.

وكانت فلورا تعيش في عزلة عن نظر المسلمين، ولا تخرج عن مخبئها إلا إلى الكنيسة. وهنالك تعرفت بإحدى العذارى، واسمها مريم. وكان لها أخ حُكم عليه بالموت، وهي تريد أن تفعل كما فعل. وكانت هذه المعرفة سببًا في أن كل واحدة منهما أهاجت ضمير أختها، حتى وصلتا إلى درجة أحبتا فيها الموت، فذهبتا مسرورتين إلى المحكمة؛ لتشتما محمدًا (ﷺ) أمام القاضي. إلا أن القاضي أشفق على شبابهما وجمالهما، وأجَّل إعدامهما، ثم أمر بسجنهما.

ولما كان الثبات من أصعب الفضائل احتمالا، ولاسيما على الطباع الشديدة التأثر، ومضى على البنتين أشهرٌ طوالٌ، وهما في السجن تهددان بالفحش والفجور- ضعفتْ منهما العزائم، بعد أن طلبتا الموت بقلب ثابت.

ولكن "إيلوغو" ما كان لينسى، تلك التي ألقت في قلبه شعورًا، يقرب من العشق والهيام، يوم أن كشفت له عن رأسها. واتفق أنه سُجن أيضًا؛ لمخالفته ما قرره القسس لدى الخليفة، فسهل عليه أن يراها. وكان لذلك أثر شديد في قلبه، لكن الدين كان له جماحًا شديدًا. وأخذ يشجع البنت على الثبات، والتعلق بأهداب المسيح، حتى أعدَّها ثانية إلى تحمل الآلام. إلا أن قلبه مع ما هو عليه من التأثر بالدين، كان يشعر بأمر دنيوي، وإحساس غريب، ذلك أن "إيلوغو" كان يحزن كثيرًا لمفارقة فلورا، ولكنه ضاعف في حرمان نفسه بالصوم والجوع.

وأراد الله أن لا يطول عليه هذا العذاب، ونفذ الموت في البنتين (يوم ٢٤ نوفمبر

سنة ٨٥٣م)، وأطلق بعدهما صراح "إيلوغو"، فعُين قسًا في "توليد"، ومات مقضيًا عليه (في ١١ مارس سنة ٨٥٩م).

ولم تنته هذه الثورة من أسبانيا، إلا في آخر القرن التاسع. ومع ذلك، حصلتْ ثورة دينية- تشابه ما تقدم- بعد ثلاثة أجيال في "أشبيلية"[١]. ذلك أن القديس "فرانسوا داسيز"، كان أرسل بعض أخوة من أشياعه لنشر الدين المسيحي في بلاد المغرب. وكان أول عمل أتاه أولئك المرسلون، أن دخلوا جامعًا في أشبيلية والمسلمون يصلون، وجعلوا ينشرون الإنجيل، ويعظون الناس بالدين المسيحي. فطُردوا، ولكنهم ذهبوا إلى سراي الملك، وجعلوا يطعنون على القرآن، فحكم عليهم بالسجن في منارة. فاستعلوها، وصاروا يدعون الناس إلى عبادة الدين المسيحي، فلم يرَ السلطان بُدًّا من نفيهم، فأرسلهم إلى مراكش، فلم يزدْهمْ ذلك إلا تشددًا فيما كانوا يفعلون. ولم تنفع فيهم شفاعة دون بيترو، مع علو مكانته عند الأمير المراكشي، فقتلوا (في ١٦ يناير سنة ١٢٢٠م).

ولقد أطلنا القول في مسالمة المسلمين عند انتشار دينهم في الغرب؛ لأن الضد ثابت في أذهان المسيحيين، ولا يزال مستحكمًا من نفوسهم إلى يومنا هذا، مع ما أظهره المؤرخون، ومَن طافوا بلاد الشرق، مِن مخالفته للواقع. قال ميشو في "تاريخ الحروب الصليبية":

"لمَّا استولى عمر على مدينة أورشليم، لم يفعل بالمسيحيين ضررًا مطلقًا، ولكن لمَّا استولى المسيحيون على تلك المدينة، قتلوا المسلمين ولم يُشفقوا، وأحرقوا اليهود حرقًا".

وقال الحبر ميشون:

"مما يؤسف عليه جدًا، بالنسبة إلى المسيحيين، أن تأتيهم المسالمة وحسن

---

[١] أشبيلية: مدينة أندلسية جميلة، يخترقها نهر الوادي الكبير. وهي عاصمة المنطقة الأندلسية، تقع في جنوب أسبانيا، ويخترقها نهر الوادي الكبير من شمالها إلي جنوبها، وهي ثالث المدن الأسبانية من حيث الحجم، وهي عاصمة المنطقة الأندلسية. وكانت أشبيلية الأندلسية ذات مكانة مهمة، وواحدة من أكبر وأشهر المدن في ذلك الوقت. وبالرغم من محاولة تغيير الوجه الإسلامي لهذه المدينة على أيدي الأسبان بعد خروج العرب منها، إلا أنها ما زالت تحتفظ بكثير من عبق التاريخ الإسلامي.

المعاملة من المسلمين، مع أن المسالمة هي أكبر الخيرات بين بعض الأمم وبعض".

وقد انتشر الإسلام شرقي بلاد العرب، في جميع القارة الأسيوية، بين القرن الثاني عشر والرابع عشر. ولم ينشأ عنه عسف ولا حروب، حتى أن حكام المسلمين أنفسهم احترموا مدينة "بينارس"[١]؛ لاعتبارها عند الهنديين مدينة مقدسة، مع أن أهلها جميعًا كانوا من البراهمة تقريبًا.

وبالجملة، فإن الإسلام ما دخل بلدًا إلا وصار ذا المقام الأول بين الديانات المسيحية، من غير أن يتعرض لمحوها.

وعلى هذا، يتحقق أن الدين الإسلامي لم ينتشر بالعنف والقوة، بل الأقرب للصواب أن يقال: إن كثرة مسالمة المسلمين، ولين جانبهم، كانا سببًا في سقوط المملكة العربية. ولقد يعجب المؤرخون من سرعة انتشار الإسلام حتى بلغ نهر "اللوار" في فرنسا، ويتساءلون ما الذي كان يصير إليه حال أوربا إذا لم يقف "شارلز مارتل" في وجه المسلمين في سهول "بواتييه"[٢].

ونحن نرى أن هذا السؤال موضوع وضعًا مقلوبًا. والأولى أن يقال: ماذا كان يصير إليه حال أوربا المسيحية، لو كان المسلمون متعصبين؟ لأن انكسارهم في بواتييه ليس سببًا كبيرًا، يكفي لأن يعوق الإسلام عن الانتشار، كما أصاب في الإشارة إليه مسيو "مرسييه". وخسارة مرة في الحرب، لا تنتج عادة مثل هذه

---

[١] بينارس: منطقة حج مقدسة عند الهندوس. بها معبد البراهما. وتعرف مدينة بينارس أيضا باسم فاراناسي، ، وتعد العاصمة الدينية للهندوسية. وعادة ما تكون مكتظة بالزوار الدينيين والسائحين الأجانب.

[٢] في بواتييه كانت معركة بلاط الشهداء، وقعت ١٠ أكتوبر عام (٧٣٢م)، بين قوات المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي، وقوات الإفرنج بقيادة تشارلز مارتل. هُزم المسلمون في هذه المعركة، وقتل قائدهم، وأوقفتْ هذه الهزيمة الزحف الإسلامي تجاه قلب أوروبا، وأبقت المسيحية ديانة سائدة فيها. ويرى فريق من المؤرخين في هذا الانتصار نكبة كبيرة حلتْ بأوروبا، وحرمتها من المدنية والحضارة، فيقول "جوستاف لوبون" في كتابه المعروف "حضارة العرب": "لو أن العرب استولوا على فرنسا، إذن لصارت باريس مثل قرطبة في إسبانيا، مركزًا للحضارة والعلم؛ حيث كان رجل الشارع فيها يكتب ويقرأ، بل ويقرض الشعر أحيانا، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبا، لا يعرفون كتابة أسمائهم".

النتيجة الكبرى، فعادة الحرب أن تكون سجالا. وكم من كسرة شفعت بنصر عظيم!

وقد علل مسيو "مرسييه" انسحاب العرب نهائيًا من أوربا بعد تلك الحرب، بالثورة التي قامت بين سكان المغرب؛ لأنها منعت عن المسلمين المدد الذي كان يأتيهم من تلك الأقطار، وكانت العمدة في حروبهم على عساكرها، وهو سبب قوي في الواقع.

لكننا لا ننسى أن نضيف إليه تطرف المسلمين في الحماسة، فإنه سهل العصيان، ومهَّد لبعض عائلات المغرب المستقلة طريق الخروج عن الجامعة في بلاد الأندلس وبلاد المغرب. وانتهى الأمر- مع تلك الحماسة- إلى انحلال عناصر المملكة العربية. ومن المظنون أن المسلمين لو عاملوا الأندلسيين مثل ما فعل المسيحيون بالأمم الساكسونية، و"الوانديه" لأخلدت إلى الإسلام، واستقرت عليه؛ لأنها مع تمتعها بحرية دينها المسيحي، كانت كثيرة الانشقاق والأحزاب.

ومالنا ولهذه الظنون والتخمينات! وأمامنا أمر واحد ينبغي الوقوف عنده، وهو أن ديانة القرآن تمكنت من قلوب جميع الأمم اليهودية والمسيحية والوثنية، في أفريقيا الشمالية، وفي قسم عظيم من آسيا، حتى أنه وُجِد في بلاد الأندلس من المسيحيين المتنورين مَن تركوا دينهم حبًا في الإسلام. كل هذا بغير إكراه، إلا ما كان من لوازم الحروب، وسيادة حكومة الفاتحين، ومن دون أن يكون للإسلام دعاة وقوَّام مخصوصون. وهو مما يقنعنا بأن في الإسلام جاذبية وقوة انتشار، سنبحث- فيما بعدُ- عن سببها الحقيقي؛ لأنه لا يزال ينتشر حتى الآن.

وقبل أن نبحث عن تلك الأسباب، ننبه القارئ إلى أن لا يعد من جملتها- كما ذهب البعض إليه: أن الدين الإسلامي ينتشر؛ لكونه دينًا ماديًا، أكثر مما هو دين أدبي. فهو يُبيح تعدد الزوجات، ويُبشر أصحابه بالتنعم في اللذائذ الشهوية، في جنات بالغ الوُصَّافُ في نعوتها، وهذا هو الذي اتخذه أعداء هذا الدين مطعنًا عليه زمنًا طويلا.

كذلك سنأتي بشيء في القضاء والقدر؛ لأن منهم من رآه سببًا مهمًا لانتشار الإسلام؛ وعلة الشجاعة التي امتازَ بها المسلم، فجعلته لا يعبأ بالموت في مواقف الحروب.

الفصل الثالث

تعدد الزوجات

تعدد الزوجات قبل الإسلام
تعدد الزوجات في القرآن
الحشمة عند المسلمين

يرى الناس في أكثر الأزمان الوسطى، أن أكبر عمل أتى به النبي (ﷺ)، هو إباحة تعدد الزوجات؛ لأنه توصل بذلك إلى استجلاب الرجال. وتطرف "بيرون"، فقال: "... والنساء؛ لأنه وعدهم بتعدد الأزواج".

واعتمد القصاصون على هذه الروايات الكاذبة، فوصفوا الإسلام بأنه "دين الجاموس، والجمال، وجميع الحيوانات".

وقال "رينان" في كتابه "ابن رشد"، إنه:

"دين الخنازير، أو القوم المنهمكين في الشهوات".

وتعدد الزوجات يجرح أخلاقنا المتمدنة، وعوائدنا الدينية على الخصوص. فلا نكاد نفقه في شريعة موسى[1]، وهي أيضًا شريعة إلهية كدين المسيح.

---

[1] ورد في التوراة أنه كان لنبي الله إبراهيم ﷺ ثلاث زوجات، ونبي الله يعقوب، كان له أربع زوجات، وتزوج موسى ﷺ من أربع نساء، وقد ورد في سفر صموئيل (٢٣ :٢٦)

قال الأب بروغلي:

"إنها ديانة يصعب إدراك مرادها. وإن الله حللها في ظروف مخصوصة، يستحيل علينا معرفتها".

وكأني به وبأمثاله، يخشون على الدين المسيحي من مجاورة ديانتين منزلتين مثله، وفيهما آداب تغاير ما جاء به!

ولعمري! لست أرى وجهًا يمنعنا من أن نعتقد في الشارع الإلهي من الحكمة، ما نعتقده في الشارع الوضعي. فشرائع البشر تحتاط في نصوصها، وتلاحظ الزمان والمكان في تقرير أحكامها. وليس من داعٍ يُلجئنا إلى أن نحرِّم على الشارع الإلهي مثل هذا الاحتياط. وذلك هو رأي أحد عمُد المتكلمين: مسيو "دولست" حيث يقول:

"إن أول شريعة أدبية، أنزلها الله على الناس، كانت موافقة لأحوالهم، ملائمة لزمانهم، وما كانوا عليه من درجة الآداب. وفي آداب الساميين نقص، يوجد مع أصل الخلقة، لا يمكن جبره مدى الأيام، وهو وفرة شهواتهم. وذلك عيب أدبي لا محالة، إلا أنه برهان على قوة الجسم، وسلامة الجنس. فالذكر من الشرقيين، أكثر قوة ونشاطًا من الغربي".

ولذلك قال بعض المشتغلين بعلم طبائع الأمم: إن تعدد الزوجات أمرٌ من ضروريات الأمم الشرقية؛ لما فيهم من القوة العظيمة.

ومن الغرائب الإلهية التي تحار في إدراكها الأفهام، أن الغربي مع ميله إلى اعتقاد تعدد الآلهة، كان على الدوام يأبى الزواج بأكثر من امرأة واحدة، والشرقي الذي لا يعبد غير إله واحد، يقول بتعدد الزوجات. فآلهة كثيرون وزوجة واحدة، صيغة تليق عادة بالغربي. وإله واحد وزوجات متعددات، صيغة تجمل بالشرقيين!

ثم إنه ليصعب جدًا على الغربيين، أن يقدروا شريعة القرآن في تعدد الزواج حقَّ قدرها؛ لما بينهم وبين الشرقيين من الاختلاف الكلي في الجنس والدين والتمدن. ولذلك فمن الأمور التي تهم معرفتها ما أهمله الباحثون دائمًا، وهو أن تعدد الزوجات عادة قديمة في العرب قبل الإسلام. فكثرة النساء أقدم من وجود

ذكر تسع زوجات لسيدنا داود ﷺ. هذا غير جواريه. وورد أنه كان لسليمان ﷺ سبعمائة زوجة، وثلاثمئة أمة.

الجوامع.

ومن الخطأ المطلق قول الأب "بروغلي": "إن كثرة النساء وُجدتْ مع الإسلام"[1].

إذ من المحقق: أن قبائل العرب الذين أسلموا في مبدأ الأمر، كانت على هذا المذهب، كما عليه الآن الأمم السوداء، التي تميل بكلياتها في هذه الأيام إلى الإسلام.

وكان هذا المذهب في تلك القبائل وفي السود، أوسع مما جاء به القرآن، فهو لا يبيح أكثر من أربع بالكتاب. ولذلك يقول أولئك القوم عن النبي (ﷺ): إنه مصلح شديد المعاملة.

ولا شك في أن ميله أولاً- كان الاقتصار على زوجة واحدة، كما جرى على ذلك في أول حياته، ولكن كان من الصعب أن يلزم بني قريش بذلك، وقد كان من بينهم مثل: الحارث، وغيلان، لكلٍ منهما عشر نساء، اعتنقن الإسلام مع زوجهن. فلو أمرٍ بالاقتصار على زوجةٍ واحدة، لشق الأمر جدًا عليهم، وصعب احتماله، وربما أدّى ذلك إلى تزعزع عقيدتهم في الدين الجديد. لهذا أمرهم (ﷺ): أن اختاروا من بين أزواجكم أربعًا تفضلونهن على البقية، وطلقوا من عداهن[2].

---

[1] يرد ذلك ما ورد في إنجيل متى (الإصحاح الخامس والعشرون)، أن المسيح ضرب هذا المثال: "١ حينئذ يشبه ملكوت السموات عشر عذارى، أخذن مصابيحهن، وخرجن للقاء العريس. ٢ وكان خمس منهنّ حكيمات، وخمس جاهلات. ٣ أما الجاهلات، فأخذن مصابيحهن، ولم يأخذن معهن زيتا. ٤ وأمّا الحكيمات، فأخذن زيتا في آنيتهن، مع مصابيحهن. ٥ وفيما أبطأ العريس، نعسن جميعهن ونمن. ٦ ففي نصف الليل، صار صراخ: هو ذا العريس مقبل، فأخرجن للقائه. ٧ فقامت جميع أولئك العذارى، وأصلحن مصابيحهن. ٨ فقالت الجاهلات للحكيمات: أعطيننا من زيتكن؛ فإن مصابيحنا تنطفئ. ٩ فأجابت الحكيمات قائلات: لعله لا يكفي لنا، ولكنّ بل اذهبن إلى الباعة، وابتعن لكنّ. ١٠ وفيما هنَّ ذاهبات ليبتعن، جاء العريس، والمستعدات دخلن معه إلى العرس، وأغلق الباب". فهذا العريس، له عشر زوجات، والمسيح لم يُنكِر عليه ذلك.

[2] زوجات غيلان والحارث أسلم غيلان بن سلمة وتحته عشر نسوة . فقال له النبي ﷺ: "خذ منهن أربعًا" (أخرجه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة، ١٩٥٣. وأحمد في المسند، من حديث عبد الله بن عمر ﷺ، ٤٦٠٩). وصححه

ولا يعجبن القارئ: إن لم أذكر شيئًا عن تعدد زوجات النبي (ﷺ)، فقد ذكرتُ طرفًا منه في آخر الفصل الأول، وسأعود إليه فيما بعد.

ويؤخذ ميل الدين الإسلامي إلى تفضيل زوجة واحدة، مِن الآيـة الثالثـة، مـن السورة الرابعة، التي تحدد عدد ما يُباح من الزوجات: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾ (النساء: ٣)[1].

ومعنى القسم الثاني من هذه الآية، على ما أوردَ العلماء، هو أن الرجل إذا خاف أن لا يكون عدلا بين زوجاته، وخشي تفضيل إحداهن، ولم يكن في حالة تسمح له أن يُوفي كلا حقها، وَجبَ عليه أن لا يتزوج بأكثر من واحدة[2].

وذهب بعض العلماء إلى أن المسلم ليس حرًا في الحكم على مقدرته، وفي جواز تعدد زوجاته، بل القاضي هو الذي ينظرُ في ذلك، ويقضي بما يظهر له، فإن رأى عدم العدل في الطالب، حكم بالاقتصار على زوجة واحدة. وأيدوا قولهم

الألباني. وعن قيس بن الحارث قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة. فأتيت النبي ﷺ فقلت ذلك له. فقال: "اخترْ منهن أربعًا" (أخرجه أبو داود، كتاب الطلاق، باب من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع أو أختان، ٢٢٤١. وابن ماجه، كتاب النكاح، باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة، ١٩٥٢). وصححه الألباني.

[1] قال محمد الطاهر بن عاشور: "وأما إن افتقدت ناحية آيات أحكامه- أي القرآن- فإنك تجدها مبرأة من اللبس، وبعيدة عن تطرق الشبهة. وحسبك قوله: {فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى أن لا تعولوا} (النساء: ٣)، فإنك لا تجد في التوراة جملة تفيد هذا المعنى، بله ما في الإنجيل" (التحرير والتنوير ٣٩/١).

وهذا من مقتضيات كون القرآن مهيمنا على الكتب السالفة في قوله تعالى (وأنزلنا عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه)

[2] التفسير قال الألوسي: "كأنه لَمَّا وسَّع عليهم، أنباهم أنه قد يلزم من الاتساع خوف الميل. فالواجب حينئذ أن يحترزوا بالتقليل، فيقتصروا على الواحدة. والمراد: فإن خفتم أن لا تعدلوا فيما بين هذه المعدودات، ولو في أقل الأعداد المذكورة، كما خفتموه في حق اليتامى، أو كما لم تعدلوا في حقهن، فأختاروا، أو الزموا واحدة، واتركوا الجميع بالكلية" (روح المعاني ١٩٥/٤).

بالقصة التالية:

كان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يحب زوجته حبًا مفرطًا؛ ولذلك لم تمِلْ نفسه إلى التزوج بغيرها. ولكنه بعد سنين قضاها في السعادة والهناءة، جَنحَ إلى طلاوة الجديد، وأراد أن يتخذ زوجة ثانية.

ورأت زوجته أنه سيكون لها ضَرَّة، وربما أساءت معاملتها، فأنكرت عليه ما ظهرت إباحته في القرآن، وقالت بأنه لا يجوز له أن يتزوج بأكثر من واحدة، فاستدعى الخليفة أبا حنيفة، وكان من الأئمة الأعلام[1]، وسأله: كَمْ من النساء أبحْنَ للرجل في الزواج؟ فأجاب من فوره: أربْع. فالتفت الخليفة إلى زوجته، وكانت تسمع من وراء حجاب، وقال لها بصوت رفيع: ها قد سمعتِ ما قال الإمام. فلما سمع أبو حنيفة ذلك منه، استدرك قائلا: إلا أنه لا يجوز لأبي جعفر أن يتزوج بأكثر من واحدة، فقال: ولماذا؟ قال الإمام: لأنك لمَّا التفتَ إلى زوجتك وكلمتها، رأيتُ من صوتك ما علمتُ منه أنك لن تعدل معها. ولهذا أحكم الآن بأن تقتصر على معاشرتها وحدها.

ولم أقف بعد ذلك إن كان الخليفة أطاع حكم الإمام.

وحالة أبي جعفر، هي حالة كل مسلم يميل إلى الإكثار من الزوجات، إذ الواقع عدم المقدرة على العدل بينهن. ولذلك فمن النادر أن تعرض هذه المسألة على قضاة المسلمين. ولكن ليس الحال كذلك بالنظر إلى ميسرة الزوج، وقدرته أن ينفق على أكثر من زوجة واحدة. فمن أسباب عدم الإكثار من الزوجات، خوف الرجل من العجز عن القيام بالنفقة بدون توسط القاضي. فتعدد الزوجات في الشرق معدود من التكاثر، وهو عزيز النوال للفقراء، ولا يتمتع به إلا الأغنياء، حتى كأن تعدد الزوجات في الشرق عند الأغنياء، أمرٌ توجبه عليهم حيثياتهم بين الأمة، كما كان ذلك حاصلا عند قدماء الجرمانيين. (راجع الملحق الخامس).

ولما كان التفاوت في الدرجات أمرًا مقبولا عند المسلمين، مع كمال الرضا، وحسن الاعتقاد، ترى الفقراء منهم يقفون عند نواهي القرآن في تعدد الزوجات، كما يحترمونها في غيرها، ولا يحسدون الأغنياء على زوجاتهم، كما أنهم لا يحسدونهم على بقية ما اختصهم الله به من المميزات. وهم من جهة ثانية،

---

[1] ربما يريد المؤلف غير الإمام المجتهد أبي حنيفة.

يعلمون جيدًا ما يلحق بذي الزوجات من المتاعب والأوصاب[١]، وأن نعيم العيش الوسط لذي امرأة واحدة.

ومع ذلك، قد أخطأ مسيو "كاروز"، حيث ذهب إلى أن تعدد الزوجات، يُغتفر للأغنياء، ويحرم على غيرهم. بل الذي يفهمه المسلمون في القرآن عند الزواج، هو ما كان القديس بولس يقوله: "ما كل مباح ينبغي فعله"[٢].

والمسلمون لا يُقدِمون كثيرًا على استعمال ما أباحه شرعهم الديني من تعدد الزوجات، خلافًا لم يتوهمه غيرهم؛ لأنهم يخشون ضيق العيش، وفقدان الصحة. فكثيرًا ما تشكو النساء أزوجهن على هجرهن. ثم إن المنازعات في كل يوم، تجعل البيت جحيمًا.

وللكُتاب من العرب في هذا المعنى كلام، يدل على عدم الميل إلى تعدد الزوجات، كما نقلناه عن بعضهم- في غير هذا الكتاب- حيث قال:

"أيها الراكب على فرسين، احذرْ مِن السقوط، وكفاكَ من ربٍّ زوجتين، وكفاك واحدة إن رُمْتَ السلامة".

وقد يُلاحَظ أن القانون الذي لا يسوي بين الغني والفقير في الزواج، يخالف عاداتنا في هذه الأيام. ولكن من عرف طبائع المسلمين، علم أن ذلك القانون لا يحدث بينهم ما يظهر لنا من نتائجه، لو كان عندنا فقراء المسلمين راضين عن حالهم، قانعين بما قسم الله لهم من العيش، جريًا على حكم الضرورة عن طيب نفس، خلافًا لما يتوهمه مسيو "دوبروجلي". وإنما القرآن يوصِي المعدم بالانتظار، فلا يتزوج غير قادر عليه (انظر الملحق السادس).

ومع ذلك، فالمعدم عن الزواج نادر. والعامة يتزوجون في الثامنة عشرة غالبًا. وأهل الشرق لا يعرفون العزوبة، وهي المصيبة التي جلبها التمدن على الغربيين. وكان محمد (ﷺ) في محادثته مع صحابته يحب أن يسمعهم كثيرًا قوله:

"لا رهبانية في الإسلام"[٣].

---

[١] الأَوْصابُ الأَسقام الواحد وَصَبٌ (لسان العرب ١/٥٦٨).

[٢] المباح هو ما ليس بواجب، ولا مستحب. فلا يثاب فاعله، ولا يذم. ومن ذلك تعدد الزوجات، فهو ليس بمأمور، ولا مندوب.

[٣] قال ابن حجر: لم أره بهذا اللفظ، لكن في حديث سعد بن أبي وقاص عند البيهقي: "إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة" (كشف الخفاء، حديث: ٣١٥٤، ٢/٢١٥٥). ولكن

ثم قال لهم يومًا: "نفس المتزوج أحب إلى الله من صلاة ستين أعزب"[١].

ويرى القارئ مما تقدم: أن الناس بالغوا كثيرًا في مضار تعدد الزوجات عند المسلمين، إن لم نقل: إن ما نسبوه إليه من ذلك غير صحيح. فما تعدد الزوجات هو الذي ولد في الشرق تلك الرذائل الفاضحة، التي يشير إليها الأب "بروجلي". بل المعقول أنه من شأنه تلطيفها، على أنني لست أدري: إن كانت تلك الرذائل أكثر منها في الغرب. بل تلك وصمة ألصقت بالإسلام بواسطة السياح، الذين يرون أمرًا في فردٍ، فيجعلونه عامًا من غير تثبت فيه، ولولا هذا التعميم السطحي، لما وجدوا شيئا يملئون به مؤلفاتهم.

والواقع أن الرذائل الفاضحة موجودة في كل أمة، ولقد يقع منها في باريس ولندن وبرلين، أكثر مما يحدث في الشرق بأجمعه[٢]؛ لأن النبي (ﷺ) بالغ في تحريمها، ولم يعدها من الذنوب الخفيفة، كما فهم بعضهم من آية: ﴿وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾ (النساء: ١٦). لأن ذلك خروج بالآية عن معناها، وشطط في تفسيرها. وليست هذه الآية هي الوحيدة التي جاءت في القرآن، بل كثير غيرها، كما في سورة الأعراف، قال الله

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا رهبانية فينا" (أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، حديث: ١٠٦١، ٢/٦٤١) وضعفه. ولمّا كان من أمر عثمان بن مظعون، الذي كان من ترك النساء، بعث إليه رسول الله ﷺ فقال: "يا عثمان! إني لم أومَرْ بالرهبانية. أرغبتَ عن سنتي؟" قال: لا يا رسول الله! قال: "إن من سنتي أن أصلي وأنام، وأصوم وأطعم، وأنكح وأطلق. فمن رغب عن سنتي، فليس مني. يا عثمان! إن لأهلك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا" قال سعد: فوالله! لقد كان أجمعَ رجالٌ من المسلمين على أن رسول الله ﷺ إن هو أقر عثمان على ما هو عليه، أن نختصي فنتبتل" (أخرجه الدارمي، كتاب النكاح، باب النهي عن التبتل، ٢١٦٩). وصححه حسين سليم أسد.

[١] حديث: "ركعتان من المتأهل خير من اثنين و ثمانين ركعة من العزب". حكم الألباني بوضعه (الجامع الصغير وزيادته، حديث: ٦٨٧٨، ١/٦٨٨) والشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة (حديث: ٤، ١/١٢٠).

[٢] صورة الشرق المادي الشهواني، صورة قديمة، رسمها الغربيون وصدَّقوها. انقلبت هذه الصورة على الغرب الآن. فصار هو المادي الشهواني المنفلت من الدين والأخلاق.

تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ {٨٠} إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ {٨١} وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ {٨٢}﴾ (الأعراف).

هذا، والشرع الإسلامي- سواء كان آخذًا عن القرآن، أو السنَّة- من أشد الشرائع صرامة في معاقبة هذا الفعل. ففيه يُقتل البالغان إن أتيا هذا الفعل معًا. فإن فسق بالغٌ بصبي، يُقتل الأول، ويُؤدَب الثاني. فإنْ فعله صغيران، جُلد كل منهما مائة جلدة[١].

وأمَّا ما يتعوده المراهقون من الأمر القبيح، وكذلك فساد الأخلاق، فمما لا وجود له في الشرق إلا بطريق الاستثناء؛ لسهولة الزواج.

ومن الخطأ الفاضح، والغلو الفادح قولهم: إن عقد الزواج عند المسلمين عبارة عن عقد، تُباع فيه المرأة، فتصير شيئا مملوكا لزوجها؛ لأن ذلك العقد يخوِّل للمرأة حقوقا أدبية، وحقوقا مادية، من شانها إعلاء منزلتها في الهيئة الاجتماعية[٢]. فلها أن تشترط على زوجها عدم التزوج بغيرها، وعدم التسري، وأن لا يغيب أيامًا كثيرة عن بيته بدون إذنها، وأن لا يؤذيها، ولا يسبها، وأن لا يكلفها بأعمال البيت الشاقة... وهكذا. فإن لم يفِ بهذه الشروط، جاز للمرأة أن تطلب الطلاق. فإن لم ترده لنفسها، جاز لها أن تطلب منه على يد القاضي أن يطلق ضرتها، أو

---

[١] هذا الحكم في السنة، قال رسول الله ﷺ: "مَن وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا: الفاعل، والمفعول به" (أخرجه أبو داود، كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، ٤٤٦٢. والترمذي، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، ١٤٥٦. وابن ماجه، كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط، ٢٥٦١). وصححه الألباني.

[٢] يقول الله تعالى: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (البقرة: ٢٢٨). وعن حكيم بن معاوية القشيري، عن أبيه قال قلت: يارسول الله! ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: "أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت (أو أكسبت)، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت" (أخرجه أبو داود، كتاب النكاح، باب في حق المرأة على زوجها، ٢١٤٢. وأحمد في المسند، من حديث حكيم بن معاوية، ٢٠٠٢٧).

أن يعتق الجارية؛ كي يبطل حق التسري بها[١].

ولم يقتصر القرآن في التضييق على تعدد الزوجات، بل حرَّم- ما كان معروفا عند العرب قبله- من الزواج لزمن محدد[٢]. وفي ذلك شبه تحريم للطلاق؛ لكونه لا يتأتى إلا بشروط مخصوصة[٣].

ومع هذا كله، فإن تعدد الزوجات، أوجبَ عدم إعظام الديانة الإسلامية؛ حتى أن المتنورين من المسلمين أنفسهم شاعرون بهذا[٤]. ولو كان لهم شيخ، ومؤتمر ديني- (أريد سلطة قائمة على الدين؛ لتوفق بين نصوصه وحاجات الزمان)، لأصبحنا في شك من بقاء إباحة تعدد الزوجات*. قال مسيو "ريفيل":

---

[١] بعض هذه الأحكام مما اختلف فيه المذاهب الفقهية. وجميع ما ذكر الكاتب يجري على مذهب الإمام أحمد بن حنبل. فهو أوسع المذاهب الإسلامية في اعتبار الشروط العقدية.

[٢] هو نكاح المتعة الذي حرمه الإسلام.

[٣] الطلاق في الإسلام مُحرَّم، إذا كانت الحياة الزوجية مستقيمة، قال رسول الله ﷺ: "أيما امرأة سألت زوجها طلاقا في غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة" (أخرجه أبو داود، كتاب الطلاق، باب في الخلع، ٢٢٢٦. والترمذي، كتاب الطلاق، باب ما جاء في المختلعات، ١١٨٧. وابن ماجه، كتاب الطلاق، باب كراهية الخلع للمرأة، ٢٠٥٥). وصححه الألباني. وجاء عن النبي ﷺ قال: "أبغض الحلال إلى الله ﷻ الطلاق" (أخرجه أبو داود، كتاب الطلاق، باب في كراهية الطلاق، ٢١٧٨. وابن ماجه، كتاب الطلاق، باب حدثنا سويد بن سعيد، ٢٠١٨). وضعفه الألباني.

[٤] تعدد الزوجات ليس عيبًا نعتذر منه؛ لأنه شرع إلهي، ومصلحة اجتماعية؛ فإن تعدد الحليلات خير من تعدد الخليلات.

* ليس للمسلمين بابا مثل النصارى يحل ويحرم. وهذا ليس عيبًا في الإسلام؛ لأنه لا قداسة فيه للبشر، وليس لنا أن نبدل الدين باسم الله. وهذا التبديل من الشرك الذي حظره الله ورسوله ﷺ. يقول الله تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (التوبة: ٣١). وعن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: "يا عدي! اطرح هذا الوثن من عنقك". فطرحته، فانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة، فقرأ هذه الآية: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله}. حتى فرغ منها فقلت: إنا لسنا نعبدهم. فقال: "أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟"

"على أننا لو رجعنا إلى زمن النبي (ﷺ)، ومكان ظهوره، لمَا وجدنا عملا يفيد النساء، أكثر مما أتاه (ﷺ). فهن مدينات لنبيهن بأمور كثيرة. وفي القرآن آيات ساميات في حقوقهن، وما يجب لهن على الرجال. فمنها ما يختص بتحريم ما لا يجوز من اللذائذ معهن. ومنها ما يوصي بالحشمة والوقار في استعمال ما أباحه الله. جاء: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (المائدة: ٥). ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور: ٣٠)، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ {١} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ {٢} وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ {٣} وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ {٤} وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ {٥}﴾ (المؤمنون)".

وقد أخذ الصحابة عن النبي (ﷺ) كثيرًا من الأوامر المشددة، التي تحرِّم الاسترسال مع الشهوات، وتوجب التمسك بقواعد العصمة والكمال، فلا يجوز للخاطب أن يرى من مخطوبته غير وجهها ويديها[١]، ومن الجناح على المسلم أن يرفع بصره إلى امرأة لا يريد أن يتزوجها[٢].

قلت: بلى. قال: "فتلك عبادتهم" (أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة التوبة، ٣٠٩٥. والطبراني في الكبير، من حديث عدي بن حاتم الطائي، ٢١٨)، واللفظ له. وحسنه الألباني.

١ دخلت أسماء بنت أبي بكر، على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال: "يا أسماء! إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم تصلح أن يرى منها إلا هذا، وهذا". وأشار إلى وجهه وكفيه (أخرجه أبو داود، كتاب اللباس، باب فيما تبدي المرأة من زينتها، ٤١٠٤). وصححه الألباني.

٢ يقول الله تعالى: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا

جاء في الإنجيل: "من نظر إلى امرأة نظر شهوة، فقد زنى بقلبه"[١].

ويقول المسلمون: "لَزنا العين، أشدُّ حرمة من زنى الصدور"[٢].

هذه أوامر عاصمة، تسوي بين الجريمة، وبين مجرد الشهوة، وتحرِّم النظر إلى زوجة الغير. وليس من يعيها إلا المسلمون؛ لأن نساءهم محتجبات عن العيون.

ويرى القارئ من جميع تلك الآيات، مقدار اهتمام الإسلام بمنع عوامل الفساد الناشئة عن التعشق بين المسلمين، لكي يجعل الأزواج والآباء في راحة ونعيم.

وربما كان الإنجيل أكثر تدقيقًا، وآكَدُ في التشديد[٣]. ولكنه لا يعمل به إلا قومٌ خصهم الله بمواهب الكمال، وهم قليلون. أما البقية من الأمة، فليس لها أخلاق أطهر من أخلاق الأمم المتدينة بغير النصرانية. لكن شريعة القرآن جاءت ملطفة، وجمهور المسلمين يلاحظها، ويجري على مقتضاها. وقد مارسوا النظافة والاعتناء بالصحة؛ عملا بما جاء في القرآن، وفي السنَّة، فكانت لهم من ذلك أخلاق مخصوصة بهم. وتولدت في نفوسهم ملكات الحشمة والوقار. وجاء هذا مغايرًا لآداب الأمم المتمدنة اليوم على خط مستقيم، ومزيلا لِمَا عساه كان يحدث عن ميل الشرقيين إلى الشهوات، لولا هذه التعاليم والفروض.

والفرق بين الحشمة عند المسلم، وبينها عند المسيحي، كما بين السماء والأرض. فالمسلم يُجرح نظره، ويستحي من مرأى الإعلانات التي ينشرها

يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (النور: ٣٠-٣١).

[١] متى ٥:٢٨ "وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه".

[٢] عن النبي ﷺ قال: "العين تزني، والقلب يزني. فزنا العين النظر، وزنا القلب التمني. والفرج يُصدِّق ما هنالك، أو يكذبه" (أخرجه أحمد في مسنده، من حديث أبي هريرة ﷺ، ٨٣٣٨). وصححه الأرنؤوط.

[٣] أين هذه الأحكام المفصلة في الأناجيل عن الحياة الاجتماعية والعفة؟ هل يقصد قوله (مت ١٨:٩): "وإن أعثرتك عينك فاقلعها، وألقها عنك. خيرٌ لك أن تدخل الحياة أعور، مِن أن تلقى في جهنم النار ولك عينان"!

الغربيون، ومن راقصاتهم في لباس كأنهن به عراة، ومن حفلات الرقص حيث النساء خالعات العذار[1]، كاشفات المناكب، ومن جميع ملاهينا التي لا تمتاز عن بعضها إلا برقة ما يستر وجه الحياء.

رأيت ذات يوم في سراي الوزير المصطفى بالجزائر، قومًا من الشيوخ رؤساء القبائل، أجابوا الدعوة ليزدان المكان بوجودهم، وهم من أقاصي الصحراء، حيث صفاء الأخلاق، وطهارة العادات. عليهم البرانس، وعلائم العزة والوقار تعلو جباههم. ينظرون إلى المسيحيات رائحات غاديات وهن عراة الصدور، تحت ذراع من يتقدم لهن من الرجال، وقلوبهم ملأى من الاحتقار.

ومَن كان بين أولئك الشيوخ غير متمسك تمامًا بجميع العوائد القومية، كانوا يتخيلون بأنهم لا يشاهدون حالة اعتادها الإفرنج لترويح النفس، بل ينظرون إلى مجتمع انطلقت فيه الشهوات، ورُفع برقع الحياء عن الوجوه، فاستباح كل واحد ما أراد، كما يقع ذلك مرة في كل سنة عند الزنوج، أو بعض قبائل الهمج، حيث يأتي الأسافلُ مِن الأمة مثلَ تلك الفعال، ولكنهم عند وقوع نظرهم بين الجمع على رؤساء المصالح، الذين هم أصحاب الإمرة عليهم، كانوا يرجعون من وهمهم، ويعلمون أن ما يشاهدون من المناظر حقيقة، اعتاد أولئك القوم عليها.

هنالك يجول بخواطرهم تعاليم شرعهم، ويعظم شأن القرآن في قلوبهم، عندما تقترن آدابه بالمشهد المخجل الذي أمامهم: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (الأحزاب: ٥٩).

---

[1] خلَعَ العِذَارَ: أي الحياء. وهذا مثل للشابّ المُنْهَمِك في غيِّه. يُقال: أَلْقَى عنه جِلْبَابَ الحياء، كما خلَع الفرسُ العِذارَ، فجَمَعَ وطَمَّح (لسان العرب ٤/٥٤٥).

وقلما تستبيح امرأة غير شابة أن تكون بلباس أقل من ذلك حشمة وكمالا، ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٠).

ولقد أطلنا الشرح، فخرجنا عن الموضوع، ووضحنا أخلاق المسلمين؛ ذلك لأننا نعتقد أن ما قدّمناه برهانٌ قاطع على أن تعدد الزوجات لم يُتخذ، ولم يكن ليُتخذ مشجعًا على انتشار ديانة الإسلام. وبقي علينا أن ننظر، إن كان النبي (ﷺ) اتخذ لذائذ الجنات التي وعدَ بها الشهوات، سلمًا لاستمالة بني آدم، وحملهم على اعتناق ديانته.

الفصل الرابع

جنات المسلمين

الحياة الآخرة

السعادة الأخروية في مذهب المسيحيين

الرمز والتفسير

السعادة الأخروية في مذهب المسلمين

ليس للحياة الآخرة من المكانة في بعض الديانات القائلة بخلود الأرواح، ما لها في البعض الآخر. فالديانة المسيحية تشير إلى أنها هي المقصد الأسمى من الحياة الدنيا. ولذلك يجب أن يعتقد المرء بأن لذائذ هذه الدار وزخارفها- خيال باطل، وأن يتجرد عن نفسه؛ كي تطهر روحه، فيتقدم رويدًا في الحياة العقلية؛ لينال بها السعادة العظمى.

ومع تكرار هذه الحقائق، ونشرها بواسطة القائمين بأمر هذا الدين، لا يزال أغلب المسيحيين يراها تصورات ذهنية كمالية، بها تجتهد الكنيسة أن ترفع ما انحط من طبائعهم.

ومن هنا، يشاهد المتأمل فرقًا عظيمًا بين التعاليم والأعمال، كما تتناقض الأقوال والأفعال كثيرًا عند المسيحيين، ويرى كثير منهم في ضميره- وإن لم يجاهر به- أن في ديانتهم قسمًا من التخيلات، لا تسمو إليه مداركهم، ولا يصبو إليه إلا من اختصه الله بالمواهب الصمدانية. ويحسبون أنهم يرجعون إليها عند الحاجة؛ لبيان مقامها الرفيع، ومكانتها العليا. كذا هم يعملون في قاعدة: "إنما الحياة

الدنيا طريق الآخرة".

على أن سعادة الأصفياء سرٌّ من الأسرار التي تخفى على المسيحيين. وهو غريب؛ لأن سعادة الآخرة هي المرجع الذي كان يجب أن ترمى إليه أعمالنا كلها. ولكن مع الأسف، نرى العقول لا تكاد تدرك من هذا المقصد الأسمى شيئًا.

ومما يزيد الأمر تعقيدًا وإشكالا، مذهب بعثة الأجسام على الكيفية التي يذهبون إليها. فإنهم يقولون: إن الأجسام تتحول يوم الحشر، من أجسام مادية، إلى أجسام روحية. قال القديس بولس:

"خُلق الجسد من مادة تزول، وسيُبْعث على كيفية لا تقبل الانحلال؛ لأنه خُلق جسدًا حيوانيًا، وسيُبعث جسدًا روحيًا".

وماذا- يا ترى- تكون حقيقة تلك الأجساد الروحية، التي لا تزال أجسامًا. فلها حواس، وهي أرواح، فتتمكن من مشاهدة ربها؟!

فهل السعادة التي يَعدُنا بها القسس والرهبان، هي تصور تلك السعادة، أم هي سعادة حقيقية، تقوم بغير التصور والتخيلات؟

تلك مسائل، ليس في الإنجيل ولا التوراة، نصٌ صريح يُفسرها، وإن اجتهد الكنائسيون في إيضاح طرفٍ منها. وأهمهم في البحث هو القديس "أوغستين"، فإنه كان شديد الولع بمعرفة تلك السعادة. وغاية ما وصل إليه: أنه لم يبلغ حدَّ اليأس في تفسير هذا السر المكنون بمعرفة الله وقدرته. وجميعُ كتبه دالة على شدة اشتغاله بتلك الحياة الأبدية السعيدة، التي يتصورها الأولياء، فيشاهدون ربهم بتخيلها قبل البعث وبعده.

وعلى كل حال، فلا تزال تلك السعادة سرًّا مختومًا، لا يعرفه الناس، ولا يدركه إلا الأولياء.

ومن هنا، وقعت الديانة المسيحية بين مذهبين متناقضين، فمِن قائل بأن السعادة الأخروية إنما هي حالة نفسية، مرجعها طهارة القلب، والمشابهة بين المخلوق والخالق. ومنهم من يقول: بل هي غير ذلك، أمرٌ مادي محسوس.

وألف "سيرانتي" كتابًا كله بدع. غامض المعنى، مبهم المراد. جاء فيه: أن السعادة الأخروية عبارة عن أعراس تتعاقب إثر بعضها.

وقال المجذوب "شريد نبورج"- رئيس مذهب كنيسة أورشليم الجديد في القرن

الماضي: "إن لجميع اللذائذ الدنيوية نظائر في الآخرة".

ويظن بذلك أنه توصَّل إلى حلِّ الإشكال، وأعرَبَ عن مصير الناس. ولكن جاء كتابه بعبارة مستهجنة سخيفة، فلم ينل من قرائه التفاتًا، حتى بصفته أعجوبة، أو خرافة.

وأما الإسلام، فلم ينظر إلى الآخرة نظر الدين المسيحي. ونرى المسلمين ينتظرون ما وعدهم به النبي (ﷺ) من النعيم والسعادة، وقلوبهم مطمئنة. ولم يُضَحُّوا الدنيا للآخرة.

أما نعيم الآخرة، فالمتكلمون من أهل السنة يقولون: إنه حالة تقوم بالنفس فتجعلها من السعداء.

وأما مشاهد الذات العلية، فإن النبي (ﷺ) ضرب لها أمثالا حسية، قريبة المنال من مدارك الشرقيين[1]. ولولا ذلك لَمَا عقلوها؛ لبعد طبائعهم عن إدراك الأمور المعنوية المحضة. إذ الغربيون أنفسهم، لم يدركوا ذلك الأمر المعنوي.

على أن رسولهم قد كلفهم أمرًا جللا، إذ حرَّمَ عليهم أن يُفكروا في تشبيه الخالق بالمخلوق[2]، وحرَّم عليهم تصوير المخلوقات الحيَّة[3]. ولولا ذلك، للزِمَهُ أن

---

[1] عن النبي ﷺ أنه نظر إلى القمر ليلة البدر، ثم قال: "إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته" (أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة} (القيامة)، ٦٩٩٧. ومسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، ٦٣٣).

[2] قال رسول الله ﷺ: "تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في الله" (أخرجه الطبراني في الأوسط، من حديث ابن عمر ﷺ، ٦٣١٩. والبيهقي في الشعب، الأول من شعب الإيمان وهو باب في الإيمان بالله ﷻ، فصل في الإشارة إلى أطراف الأدلة في معرفة الله ﷻ في حدث العالم، ١٢٠. وأبو نعيم في حلية الأولياء ٦٧/٦). وقال علماؤنا: إن كل ما خطر ببالك، فالله بخلاف ذلك! ويقول الله تعالى: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الأنعام:١٠٣).

[3] قال رسول الله ﷺ: "إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم" (أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة، ٥٦٠٧. ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، ٢١٠٨).

يطلب من عقولهم ما لا قِبَل لهم به، فيكلفهم بإدراك اللذائذ الذهنية المحضة، أو أنه يرجع بهم إلى مذهب تجسم الإله، وما يتبعه من الأوهام، فيتصور لهم ربهم بصورة إنسان جالسٍ، من حوله الأولياء والأصفياء. ولكن صناعة الرمز والإشارة[١]، سهلتْ له الاستعلاء على هذه المشكلات: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٦).

ولو رجعنا إلى القرآن، لنتلوَ الآيات التي نزلت في بيان سعادة الأخيار في تلك الدار، لوجدناها في أول الأمر، تصف جنات عاليات، قطوفها دانية، كأنها الحدائق الغنّا، والبساتين الفيحا، التي توجد في هذه الحياة الدنيا. وعلمنا بأن تلك الأوصاف، كانت من أكبر المؤثرات في نفوس العرب المنزَّلة عليهم.

وفي الواقع، إنه ليلذ إلى البدوي، الذي تعوَّد أرضًا قحلاء، وماءً آسنًا، ربما لا يجده أيضًا طول يومه- أن يتصور بأن سعادته النهائية، هي الراحة في جنة خضراء، ودوحة فيحاء، تُسقى بماء كوثري، وفيها من كل فاكهة لذة للآكلين.

ولن يذوق لمثل هذا الوصف معنىً، إلا من عاش في البادية، وكابدَ الحياة في الصحراء. وهذا هو السبب في أن النبي (ﷺ)، كان يأتي بمثل ذلك حينًا بعد حين. وهو تكرار ربما تعبت منه عقول الغربيين؛ لعدم تعودها عليه، ولكنه كان يفعل كثيرًا في نفوس سامعيه من أمة العرب؛ إذ هو في الواقع أسلوب في الخطاب، له منزلة رفيعة عندهم، ولا يزال يثير عواطفهم، ويُحرك نفوسهم على بساطتها وسهولة موردها- كما شاهدتُ ذلك بنفسي

ولقد لذّ لي أن أتخيَّل النبي (ﷺ) واقفًا تحت شمس البادية، حيث لا ظلَّ يقي من حرِّها، ويخطب في القوم، واصفًا ظلال الجنة الوارفة، التي وعدَ الله بها المتقين. وأشاهد الجمْعَ هائمًا من حوله، مأخوذًا بحلاوة الخطاب الذي يلقيه بصوت يزداد وقعًا في القلوب: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ {٤٦} فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ {٤٧} ذَوَاتَا أَفْنَانٍ {٤٨} فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ {٤٩} فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ {٥٠} فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ {٥١} فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ {٥٢} فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا

---

[١] الرمز والإشارة. مثل ما بين الدنيا والآخرة اشتراك الأسماء. أما الحقائق فمختلفة.

تُكَذِّبَانِ {٥٣} مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ {٥٤} فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ {٥٥}﴾ (الرحمن).

وكان كلما قال آية، زادَ وَجْدُ السامعين بما تزيده في وصف الجنة من الطلاوة والتمكين.

ولقد جرى الشرقيون على عدم التفريق بين جنة الأخيار، وجنة الدنيا. لذلك أعجبهم ذلك الوصف، فأخذ بمجامع لبِّهم لمطابقته أذواقهم، واشتغل به عقولهم، وإن لم يُرد النبيُّ (ﷺ) غيرَ وصف السعادة الباقية في الواقع ونفس الأمر. وعلى هذا النمط، جاء وصف اللذائذ السماوية. وهو أيضًا مأخوذ مما كانت العرب تميل إليه في هذه الدار: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ {٤٨} كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ {٤٩}﴾ (الصافات)، ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ (الدخان:٥٤)، ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ {٧٠} فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ {٧١} حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ {٧٢} فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ {٧٣} لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ {٧٤} فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ {٧٥} مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ {٧٦} فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ {٧٧}﴾ (الرحمن). ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ {٨} وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ {٩} وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ {١٠} أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ {١١} فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ {١٢} ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ {١٣} وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ {١٤} عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ {١٥} مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ {١٦} يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ {١٧} بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ {١٨} لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ {١٩} وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ {٢٠} وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ {٢١} وَحُورٌ عِينٌ {٢٢} كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ {٢٣} جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {٢٤}﴾ (الواقعة) ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء {٣٥} فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً {٣٦}﴾ (الواقعة). ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً {٣١} حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً {٣٢} وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً {٣٣}﴾ (النبأ).

تلك إشارات واستعارات، ليس الأمر المادي فيها إلا رمزًا للعشق الروحاني، وهو ضرب من ضروب الكتابة والقولِ- معهودٌ عند الأمم الشرقية[1]. وفي الزبور

[1] بل يؤمن المسلمون بأن نعيم الجنة مادي وروحي معًا. مع إطلاقه عن مشابهة نعيم الدنيا في حقيقته. فما في الجنة من شيء مما في الدنيا إلا الأسماء. وفي الحديث القدسي، قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: "أعددتُ لعبادي الصالحين: ما لا عين رأت، ولا أذن

شيء كثير من ذلك[1]، وكأن الكتب المقدسة استعارت الحب الإنساني، وقوة تأثيره في النفوس، لتشبه به للناس نعيم الآخرة. وهو أمر طبيعي؛ لأن اجتماع النوعين- الذكر والأنثى، يشخص في نفوسنا- نحن الغربيين- صورة السعادة الأبدية. فالذوق الغربي، لا ينفر من هذه التشابيه والاستعارات، على شرط أن لا يُتوسع فيها إلى التصريح المطلق. ولكن الذوق الشرقي، لا يطلب هذه القيود، وينبغي له أن يكون التشبيه تامًا، فلا يُغفلُ أحَدٌ لوازمه، ولا يُبهمُ طرَفٌ من متمماته. وهذه يُتوصل بها إلى تمكين العقول المادية، من تصور الأدبيات المحضة.

وكان هذا الأسلوب مقبولا جدًا في القرون الوسطى، فقد احتوت قصة الورد- لمؤلفها "غليوم لوريس"، على أربعة آلاف بيت، كلها صور واستعارات وتشابيه. وقد ذهب بعض الباحثين الأتقياء، إلى أن تلك الوردة التي ولعَ المؤلف بحبها، هي الذات الإلهية، لا ذات المرأة المحبوبة.

ومع كون الكتاب صريح في الإشارة إلى الماديات، فقد عَدُّوه سِفرًا دينيًا.

وليس هنا موضع البحث في صحة هذا التفسير لقصة الوردة، وإنما غايتنا أن نستخلص مما تقدم، عدمُ المانع في اعتبار مؤلفات الشرقيين قابلة لتفسير أدبي، وإنْ دلَّ ظاهرُها على أن المقصود منها أمور مادية. فالعبرانيون، والعرب من

سمعت، ولا خطر على قلب بشر". فاقرؤوا إن شئتم: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (السجدة: ١٧)". (أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، ٣٠٧٢. ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ٢٨٢٤).

[1] في الكتاب المقدس من ذلك كثير. منه ما في نشيد الإنشاد: (٩ :١) "لقد شبهتك يا حبيبتي بفرس في مركبات فرعون. ١٠ ما أجمل خديك بسموط وعنقك بقلائد. ١١ نصنع لك سلاسل من ذهب، مع جمان من فضة. ١٢ ما دام الملك في مجلسه أفاح ناردينى رائحته. ١٣ صرة المرّ حبيبي لي. بين ثديي يبيت. ١٤ طاقة فاغية حبيبي لي في كروم عين جدي. ١٥ ها أنت جميلة يا حبيبتي. ها أنت جميلة! عيناك حمامتان. ١٦ ها أنت جميل يا حبيبي، وحلو وسريرنا أخضر. ١٧ جوائز بيتنا أرز، وروافدنا سرو. ١ أنا نرجس شارون، سوسنة الأودية. ٢ كالسوسنة بين الشوك، كذلك حبيبتي بين البنات. ٣ كالتفاح بين شجر الوعر، كذلك حبيبي بين البنين. تحت ظله اشتهيت أن أجلس، وثمرته حلوة لحلقي. ٤ أدخلني إلى بيت الخمر، وعلمه فوقي محبة. ٥ أسندوني بأقراص الزبيب. أنعشوني بالتفاح؛ فاني مريضة حبا. ٦ شماله تحت رأسي، ويمينه تعانقني".

بعدهم، استتروا بستار اللذائذ المادية، والنعيم البدني. وهم إنما قصدوا الأدبيات، والسعادة الروحانية. وفي عملهم هذا تعاكس في الألفاظ، وإشارات للمراد، أو مفارقات وموافقات، تلذُّ لها عقولهم. ولهذا لا يسعني أن أرى في نشيد بعضهم: "لعلها تقبلني بفمها"، إشارة إلى واقعة مع امرأة.

كذلك ألفاظ العشق، وعبارات الوجْد والهُيام المنثورة في المزامير[١]، لا تنقص من قيمة هذا الكتاب المقدس، وكونه كتابًا رمزيًّا.

نعم، إن تقرُّب بعض العباد المخلصين من الله، كان أمرًا بعيدًا عن عقول العبرانيين الأولين، والعرب الأولين، والشرقيين على العموم. ولكن ليس المراد هنا معرفة الوصلة والزلفى لدى الله؛ لأن ذلك يستلزم معرفة حقيقة تلك الأناشيد وهذه التشابيه، وإنما الغرض بيان أنها رمزٌ لا حقيقة[٢].

وقد اعترف مؤرخ اللغات الشرقية، وهو مسيو "رينان"، بصحة قولنا، وبأن عقول العرب والعبرانيين مطبوعة على استعمال التشابيه والاستعارات، والإكثار من المجازيات في الألفاظ.

ومتى سلمْنا بأن المقصود من المزامير شيء آخر، غير ما يعطيه ظاهر لفظها، فلا يجوز حينئذٍ تفسيرُها تفسيرًا لفظيًا- لزمنا أن ننحو هذا النحو بعينه، في فهم الآيات القرآنية، التي جاءتنا بوصف الجنان. نعم، يصعب علينا أن نرى خلف هذه الصور المادية الصرفة مرامي أدبية، إلا أن هذه الصعوبة آتية من مخالفة هذا الاستعمال لما تعودناه في أقوالنا وكتبنا.

---

[١] في المزامير: (٥ :١٦) "الرب نصيب قسمتي وكأسي. أنت قابض قرعتي". (٩ :١٩) "خوف الرب نقي ثابت إلى الأبد. أحكام الرب حق عادلة كلها. ١٠ أشهى من الذهب، والإبريز الكثير، وأحلى من العسل، وقطر الشهاد". (١: ٢٣) "مزمور لداود.الرب راعيّ فلا يُعوزني شيء. ٢ في مراع خضر يُربضني. إلى مياه الراحة يوردني".

[٢] إن كان الكاتب يقصد بكونها رمزًا نفي حقيقتها، فهذا خطأ. وإن كان يقصد نفي مشابهتها لما في الدنيا، فهذا صواب. إذ إن جميع ما في الجنة من النعيم، بعيد في كنهه عما في هذه الحياة الدنيا. وإنما يضرب الله لنا الأمثال على قدر ما نعرف، وما تحتمله عقولنا القاصرة. (١ :٦٣) "مزمور لداود لمَّا كان في برية يهوذا: يا الله! إلهي أنت. إليك أبكر. عطشتْ إليك نفسي، يشتاق إليك جسدي في أرض ناشفة، ويابسة بلا ماء".

ومن السهل جدًا أن يرى الواحد خُلفًا بينه وبين آخر من غير أمته في طرق التفاهم والحديث، فالذي يجب أن يشار إليه بلطف ورقة عندنا، يُبرزه الشرقيون في صورة حقيقية، فلا يَدَعون لعقولنا محلا لإبصاره من خلال ألفاظهم.

ولقد يتعذر علينا أن نعرف أيَّ المعنيين ينطبع في قلب المؤمن عند تلاوة القرآن: معناه اللفظي، أو معناه الحقيقي. ويُحتمل أن ذوي العقول الضعيفة منهم لا يفقهون غير ما يدل عليه اللفظ بظاهره. وأما الآخرون، فيرون فيه معنىً يميل بهم إلى مرامي سامية، يذوقون فيها حلاوة الزلفى بين العبد وخالقه. وكثير منهم يسمعون القرآن فلا يعتقدون بظواهر كلماته، ويشعرون بأنه يرمي إلى سعادة مخصوصة، يتصورونها على كيفية غير واضحة لهم تمامًا. على أن القرآن نفسه في آيات كثيرة، جاءت السعادة الأخروية خالية من التشبيه والاستعارات.

فلا يقول بأن المسلمين لا يعرفون سعادة ولا نعيمًا مما وعدَهم به القرآن- غيرَ ما كان ماديًا شهويًا- إلا من غفلَ عن تلك الآيات، ومالَ إلى تغيير أصل الكتاب، وقلب الحقائق التي ثبتت فيه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢).

وقال المفسرون في رضوان الله: إن الله يتجلى على عباده المصطفَيْن، فتكملُ سعادتهم، ويتمُّ بذلك نعيمهم[١]. وجاء: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ١٠)، ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٢)، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ

---

[١] قال النبي ﷺ: "إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك وسعديك، والخير في يديك. فيقول: هل رضيتمْ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب! وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا" (أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة، ٧٠٨٠. ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدًا، ٢٨٢٩).

الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران: ١٤).

على أن الكتاب نفسُه لم يترك مجالا لمعترض، فنهى عن تفسير آياته لفظيًا، أو تجسيم التشبيه بما لا يحتمله المقام، فقال في سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧)، ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٨)[1].

وقد اتفق المتكلمون من المسلمين، الذين اشتغلوا بتفسير القرآن، وخصوصًا أهل السنة، الذين يرجعون في تفسيرهم إلى الأحاديث النبوية، والأقوال المأثورة عن السلف، ويلاحظون أسباب النزول- على أن السعادة الأخروية، إنما هي أمرٌ ذهنيٌّ، يقوم بالنفس، فتصير منعَّمة مطمئنة. وهذا النعيم هو أكبر النعم، فلا نعيم بعده[2].

قال الشيخ العالم:

"ربِّ إن الجنة لا ترجى إلا لرؤياك. ولولا نورُ ذاتك البهيَّة لَعِفْناها".

---

[1] الاستدلال بهذه الآية هنا خطأ محض. فإنها في أهل الكتاب، وما بدلوه من التوراة والإنجيل. وليست في التأويل.

[2] قال الإمام الشوكاني: "أولا إن حصر هذه اللذات النفسانية ... لا ينافي حصول اللذات الجسمانية التي وردت في كتب الله ﷻ. ... فإن اللذات النفسانية ليست بلذة طعام ولا شراب، ولكن من أين يلزم أنه لا لذة طعام وشراب ونحوهما في تلك الدار الآخرة؟! فإن كان بالشرع، فكتب الله ﷻ جميعها ناطقة بخلاف ذلك... في كتب الله ﷻ، وفي القرآن العظيم، مما يكثر تعداده، ويطول إيراده، وهو لا يخفى مثله على أحد من المسلمين، الذين يقرءون القرآن؛ لبلوغه في الكثرة إلى غاية، يشترك في معرفتها المقصر والكامل. وإن كان بالعقل، فليس في العقل ما يقتضي إثبات اللذة النفسانية، ونفي اللذة الجسمانية، بل لا مدخل للعقل ههنا، ولا يُعوَّل عليه أصلا" (إرشاد الثقات: الشوكاني ١٨/١).

وإني أختم هذا الفصل، بدعاء مأثور عن الشيخ القشيري[١]، ولعله لا يدري ببعض كتب الدعاء المسيحية:

"إلهي! إنك تهددني بفراق يحرمني على الدوام من تجلياتك البهية. فيا ربِّ! اصنعْ بي ما تشاء، ولا تحرمني مشاهدتك العليَّة. فليس سُمٌّ أمرّ مذاقًا، وأشدّ قتالا، مِن ألم هذا الافتراق. وما حيلة النفس بغير ربها، إلا أن تعيش في فزع، وتبقى في حيرة واضطراب! ربِّ إن النفس لترضى بأن تذوق الموت مائة ألف مرة، ولا تذوق حرقة فرقتك مرة واحدة! ربِّ إن مصائب الدهر، وجميع الأمراس[٢] القتالة، لو اجتمعت عليَّ لاحتملتُها، غير متوجع من وقعها، ولكن لا طاقة لي على احتمال بُعدك عني. ربِّ لو احتجبت عنا برهة، أقحلتْ أرضنا، وغاضت أنهارنا. فماذا يكون حالنا لو دام هذا الاحتجاب، ولولاه لما احترقت نار الجحيم، واشتد لهيبها؟! ربِّ إن في تجليك حياتنا، وكمال سعدنا ونعيمنا، وفي احتجابك عذابنا وجحيمنا".

---

[١] الإمام القشيري (ت٤٦٥هـ): هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة، أبو القاسم القشيري. ولد بقرية من قرى "نيسابور" في ربيع الأول من سنة ست وسبعين وثلاثمئة. علم من أعلام الأمة، الذين كان لهم الدور الكبير في إنضاج النظام المعرفي الصوفي. لقب "زين الإسلام". واعتبره الكتاب المعاصرون من أفضل نماذج التصوف السني. من أهم مؤلفاته "الرسالة القشيرية".

[٢] الأمراس: المَرَسَةُ: الحَبْلُ، جمعها: مَرَسٌ. وجمع الجمع: أمْراسٌ (القاموس المحيط ٧٤١/١).

الفصل الخامس

القضاء والقدر

متشابهات القرآن ومذهب الناسخ والمنسوخ
الاختيار والقضاء والقدر في القرآن والحديث
مذهب "توماس"، ومذهب "مولينا"
الجبرية والقدرية

يثبتُ الناس كلَّ مبحث بالقرآن؛ إذ من السهل جدًا أن يجد فيه الباحثون سندًا لدعاويهم المتناقضة. والقرآن في هذا، لا يختلف عن غيره من الكتب المقدسة، التي تستوقف المُطالع بظواهر متشابهاتها[1].

والقرآن على مذهب أهل السنة، قديمٌ مرقومٌ من الأزل في اللوح المحفوظ. ونزل به الملك جبريل عليه السلام في الليلة السابعة[2] والعشرين من شهر رمضان. وهي ليلة

---

[1] قال الإمام ابن القيم: "إن الله سبحانه قسم الأدلة السمعية إلى قسمين: محكم، ومتشابه. وجعل المحكم أصلا للمتشابه، وأمًّا له، يُرَدُّ إليه. فما خالف ظاهر المحكم، فهو متشابه، يُردُّ إلى المحكم، وقد اتفق المسلمون على هذا. وأن المحكم هو الأصل، والمتشابه مردود إليه. وأصحاب هذا القانون، جعلوا الأصل المحكم ما يدعونه من العقليات، وجعلوا القرآن كله مردودًا إليه. فما خالفه فهو متشابه، وما وافقه فهو المحكم. ولم يبق عند أهل القانون في القرآن محكم يرد إليه المتشابه، ولا هو أمُّ الكتاب وأصله!" (الصواعق المرسلة ٢/٧٧٢).

[2] في الأصل " الثامنة". والصحيح ما أثبت.

القدْر من السماء السابعة إلى السماء الرابعة[١]، ثم نزل على النبي (ﷺ) في الأرض مفرقًا في مدى ثلاث وعشرين سنة. هي مدة الرسالة[٢].

ونرى أنه لا يجب الأخذ بهذه الرواية، إلا في أمر واحد، هو أن الست آلاف آية التي يتألف القرآن منها[٣]، نزلت تباعًا بعضها إثر بعض، على غير تساو في العدد كل مرة، وفي ظروف مختلفة بعضها عن بعض كثيرًا، بحيث تلزم معرفتها، حتى يتمكن الباحث من النظر في المتشابهات منها[٤].

وبينما الإنجيل يقصُّ على الناس جميع أدوار حياة رسوله وتعاليمه بعبارة وافية، سهَّلت على المسيحيين- من مبدأ أمرهم- أن يتناقلوها خلفًا عن سلف[*].

---

١ عن ابن عباس قال: "أنزل القرآن كله جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا أراد أن يُحدث في الأرض شيئا، أنزله منه حتى جمعه" (تفسير الطبري ٢/١٥٠).

٢ انظر: البداية والنهاية ٣/٦.

٣ اعلم أن القرآن نزل على النبي ﷺ فحفظ في الصدور. ثم إن المسلمين يتلقونه شفاهًا تلقيًا متواترًا منذ نزل إلى الآن. أما المكتوب في المصحف، فهو كتابة الصحابة الكرام لما هو محفوظ في الصدور؛ لذا قد يختلف الرسم، أو عدد الآيات، أو بدايات الأرباع والأحزاب، أو عدد آي السجود، وذلك للاجتهاد فيها. ولكن المحفوظ من البداية، وإلى الآن واحد. وعدد سور القرآن، وعدد أحزابه وأرباعه متفق عليه. وأمَّا عدد أي القرآن على وجه الدقة فهو (٦٢٣٦) آية. وهذا على طريقة العد عند الكوفيين. وهو ستة آلاف آية بطريقة العد المدني الأول. وهذا ليس زيادة في النص. ولكنه خلاف في تقسيم النص نفسه.

٤ لعل الكاتب يقصد: أن العبرة من هذه الرواية، أن القرآن نزل على النبي ﷺ مفرقًا على مدى فترة رسالته؛ شيئا بعد شيء على حسب الحاجة؛ والتدرج في التشريع؛ والرد على الشبهات التي يختلقها المشركون، ودحض أقوالهم الباطلة أولاً بأول.

* للنصارى أربعة أناجيل (غير الرسائل)، تختلف في كثير مما تورد عن حياة عيسى ﷺ. فتتحدث الأناجيل عن تعليق المسيح على الصليب، وأنه صلب بين لصين أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره، ويذكر متى ومرقس أن اللصين استهزءا بالمسيح، يقول متى: "بذلك أيضاً كان اللصّان اللذان صلبا معه يعيّرانه" (متى ٢٧:٤٤)، ومثله في مرقس (١٥:٣٢). بينما ذكر لوقا بأن أحدهما استهزء به، بينما انتهره الآخر، ولم يوافقه في استهزائه وسخريته بالمسيح، يقول لوقا: "وكان واحد من المذنبين المعلقين يجدف عليه

ترى القرآن لا يأتي على شيء من ذلك، غير أنه كلام الله لنبيه، وأن سورة كذا مكية، وسورة كذا مدنية. وهو تقسيم اختياري، أُدخل عند جمع الكتاب، وليس فيه شرح، أو حديث يساعد على معرفة الوقائع، والظروف التي استنزلت سوره وآياته. وهذا أحد الأسباب، التي تحمل على القول بأن في القرآن اختلافاً[١]. وهناك سبب آخر مقبول، ذلك أن الوحي كان ينزل على النبي (ﷺ) بحسب حالة الأفكار، وتحولها الديني بسبب رسالته. فكانت الآيات تنزل كما تقتضيه تلك الحال.

وكان من اللازم طبعًا، حصول التعديل في اللاحق منها، حتى يلائم المقام. فالحكم الذي يُوحى به لرد شبهة ظهرت، تخالف ذلك الدين الجديد، لا يمكن أن

قائلاً: إن كنت أنت المسيح فخلّص نفسك وإيانا. فأجاب الآخر، وانتهره قائلاً: أولا تخاف الله .. فقال له يسوع: الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس" (لوقا ٢٣/٣٩-٤٣). أما اللحظات الأخيرة في حياة المسيح، فتذكرها الأناجيل، وتختلف في وصف المسيح حينذاك، فيصور متى ومرقس حاله حال اليائس القانط، ينادي ويصرخ: "إلهي. إلهي! لماذا تركتني؟!" ثم يُسلم الروح. (متى ٢٧:٤٦-٥٠، ومرقس ١٥:٣٤-٣٧). وأما لوقا، فيرى أن هذه النهاية لا تليق بالمسيح، فيصوره بحال القوي الراضي بقضاء الله، حيث قال: "يا أبتاه! في يديك أستودع روحي، ولما قال هذا أسلم الروح" (لوقا ٢٣:٤٦).

ويتجنب يوحنا وصف مشاعر المسيح دفعاً للحرج، لكنه يسجل مقالة أخرى ينسبها للمسيح ويجعلها آخر كلماته على الصليب ، فيقول: "فلما أخذ يسوع الخل قال: قد أكمل. ونكس رأسه، وأسلم الروح" (يوحنا ١٩/٣٠)، فأي الكلمات كانت آخر كلام المسيح، وأي الحالين كان حاله على الصليب؟

[١] هذا الكلام فيه نظر؛ فلا خلاف في القرآن. يقول الله تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} (النساء: ٨٢). كما أن السنة تبيّن ما أُجمل في الكتاب، وما نسخ حكمه، وما أشكل معناه، وتحفظ أسباب النزول إن وجدت. وإلا فإن أكثر القرآن على عموم لفظه، غير مقيد بأسباب لنزوله. يقول الله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (النحل: ٤٤). وأرى أن الكاتب يقصد من طرف خفي مدح القرآن؛ حيث لم يخلط المسلمون بنصه شروحًا، ولا حديثا، بل تمحضَ فيه كلام الله. وهذا على عكس الإنجيل الذي اختلط فيه كلام الله بكلام البشر.

يبقى كما نزل بعد تبدل الأحوال، وزوال السبب من الأفكار. وليس مَن يُنكِر على الطبيب تنويع الأدواء بحسب أدوار المرض وتقلباته.

وعلماء الإسلام يردون طعن المنددين في هذا الموضوع بمذهب الناسخ والمنسوخ. فيقولون: إن الله أنزل أحكامًا في القرآن، ثم نسخها بغيرها؛ لأسباب حكمية عالية.

وتنقسم متشابهات القرآن قسمين: فمنها ما هو ظاهريٌ فقط، يسهل التوفيق بين قضاياه. ومنها ما خفيّ سببُه، أو تعسَّر فهمُه، وخصوصًا فيما يتعلق بالقدر المحتوم. ولذلك تشحذت أفهام العلماء في الكلام عليه[1].

وما جاء في القرآن متعلقاً بهذا الموضوع، قليل في جانب ما وردَ في الأحاديث الشريفة. وهي مجلدات كبيرة، جاءت بجانب القرآن، كالقوانين الكنسية. وحكمها يكاد أن يكون كحكم تلك القوانين، ولكنها ليست عند المسلمين في درجة القرآن اعتبارًا. وقد اعتنى الجامعون كثيرًا في جمعها، ولكنه حصل بعد النبي (ﷺ) بمئتي سنة تقريبًا، ولذلك لا يمكن للباحث أن يثق بصحتها، وثوقه بصحة القرآن نفسه. فلا يبعد أن بعض المتكلمين أضافوا رأيهم إلى النبي (ﷺ)، وأن كثيرًا من الأحاديث المنسوبة إليه موضوعة لم تصدر عنه[2].

ومن ذلك، سهُل على بعضهم أن يستنتج من بعض آيات القرآن، ومن كثير

[1] يقول الله تعالى: {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الألْبَابِ} (آل عمران: ٧).

[2] ابتدع علماء الإسلام علومًا كثيرة. من أهمها علم الإسناد، ودراسة الرجال، ومن طالع ما كتبهم في هذا الجانب أدرك تفوقهم، وإخلاصهم لخدمة سنة النبي ﷺ، وتخليص صحيح الحديث من سقيمة، دون أن يختلط كلام النبي بكلام مكذوب عليه. فنشأ علم مصطلح الحديث، وهو علم انتظم قواعد وقوانين، بها يُعرف الحديث من حيث القبول والرد، ودرجات هذا الحديث، وأنواعه. ووضعت المصنفات في الحديث وعلومه بناء على هذه القواعد. ومُيز الثقات العدول من غيرهم في كتب الرجال، وميزت الأسانيد الصحيحة من غيرها، وأفردت كتب للموضوعات. فلا يخفى على علماء الحديث ما قاله رسول الله ﷺ، مما انتحل عليه.

من الأحاديث على الخصوص، بأن الاستسلام للقضاء والقدر، أُسٌّ من أساسات الدين الإسلامي، وركنٌ من أركان الاعتقاد بأنه لا اختيار للمرء في أفعاله. ولكني أرى من السهل أيضًا، أن يجد الباحث في القرآن والحديث، سندًا للقول بأن الدين الإسلامي، لا ينافي الاختيار في الإنسان[١].

على أنه يوجد من المسائل، التي جاءت في الكتب المقدسة، ما لا تزال تحت نظر المتكلمين، وهمْ إلى اليوم لم يهتدوا إلى حلها.

ومسألة التوفيق بين قدرة الخالق وإرادته في كل شيء، وبين الاختيار في الإنسان، مسألة يشترك فيها المسلمون والنصارى، والخلاف فيها عند كل فريق لا يزال قائمًا حتى الآن.

وصَفَ النبي (ﷺ) ربه بأنه العالم بكل شيء، ثم وصفه بأنه علام الغيوب. وهذا الوصف الأخير جزء من الأول، ومعبِّر عن قدرة الذات الإلهية. واستخلص من ذلك تبعية المخلوق. وقال: إن الله هو السبب الأعظم الأول في كل شيء، فأرجع إليه جميع أعمالنا. لذلك جاء في غير موضع من القرآن: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٨). ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (التوبة: ١٠٥)[٢]،

---

[١] يرد المتشابه إلى المُحْكَم، ومن المحكم قول النبي ﷺ في هذه المسألة- آمرًا بالعمل مع الإيمان بالقدر: "ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من النار أو من الجنة". قالوا: يا رسول الله! أفلا نتكل؟ قال: "اعملوا فكلٌ ميسَّر. {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} (الليل: ٥-١٠). (أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الليل، ٤٦٦٣. ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، ٢٦٤٧). وعن سراقة بن مالك قال: يا رسول الله! بيِّنْ لنا ديننا كأنا خلقنا الآن. فيما العمل اليوم؟ أفيما جفتْ به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: "لا بل فيما جفتْ به الأقلام، وجرت به المقادير". قال: ففيمَ العمل؟ فقال: "اعملوا، فكلٌّ ميسَّر" (أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، ٢٦٤٨).

[٢] هذه الآية نفسها، تُحكِمُ أن علم الله تعالى، لا ينافي العمل والاختيار. وتمامها: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (التوبة: ١٠٥).

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٧٨).

وكلها حقائق دارتْ عليها أبحاث المختلفين. والنقيض على ما يقولون، وهو أن الاختيار في الإنسان مؤيدٌ أيضًا في مواضع كثيرة من الكتاب، فقد عدَّ المشتغلون بالتفسير واحدًا وخمسين آية، كلها في إثبات ذلك الاختيار، يضاف إليها ثلاث عشرة آية تختص بمسئولية الإنسان عن فعله. وكان من المتمنى أن يأتي النبي (ﷺ) بما يوفق بين هذين الأمرين[1].

على أن غيره من الكتب المقدسة لم يتعرض لذلك.

ولم يأتِ اجتهاد العلماء في التوفيق بين هاتين الحقيقتين بفائدة، غير توسيع الخلاف، أو وضع الخلط والتعسف في محاولة كشف سر لم تصل إليه الأفهام[2]. وقد اعترف بذلك "بوسويه"[3] في كتابة "الاختيار". حيث يقول:

"إن الحقَّ لا يهدم الحقَّ. وتعذرُ جمعهما على الأفهام، لا يستلزم عدم الاعتقاد بصحة كل واحد منهما. فمن المستحيل نفي الاختيار لثبوت القدرة الإلهية، ولا نفي القدرة الإلهية لوجود الاختيار في الإنسان؛ لأنهما حقيقتان، لا

---

[1] لقد أتى النبي ﷺ حقا بما يوفق بين هذين الأمرين، وهو أن علم الله السابق لا يمنع العمل والاختيار. فحين سُئل: أفلا نمكث على كتابنا (أي المقدَّر المكتوب)، وندع العمل؟ فقال: "من كان من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة. ومن كان من أهل الشقاوة، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة". فقال: "اعملوا، فكلٌّ ميسَّر. أمَّا أهل السعادة، فييسرون لعمل أهل السعادة. وأمَّا أهل الشقاوة، فييسرون لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} (الليل: ٥-١٠)" (أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، ٢٦٤٧).

[2] من هؤلاء مُحَمَّد بن عبد الكريم الشهرستاني، الذي لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، فقال:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيَّرت طرفي بين تلك المعالم

فلمْ أرَ إلا واضعًا كفَّ حائرٍ على ذقن، أو قارعًا سنَّ نادم

[3] لعله الأسقف بوسويه (Bossuet) (١٦٢٧-١٧٠٤): مؤدب ولي عهد لويس الرابع عشر، يعد أكبر مفكر أصولي كاثوليكي في القرن السابع عشر. وقد خلع المشروعية اللاهوتية على سياسة لويس الرابع عشر الهادفة إلى استئصال المذهب البروتستانتي من فرنسا.

شك فيهما".

وكان يرى أن هذه المسألة، مما لا تطيقه أفهام النوع البشري. وكان يوصي من يقترب منها: "بأن يتمسك بطرفي السلسلة جهده، وإن لم يقف على وسطها، حيث يرى كيفية الاتصال بينهما".

وهذان الطرفان اللذان لا ينبغي إفلات أحدهما: القدرة الربانية، والحرية الإنسانية، أي الاختيار. والوسط الخفي علينا، هو التوفيق بينهما. فلسنا نعرف صنع الله الذي به يحفظ على المرء اختياره، ولا كيف أن السبب الكلي القديم، لا يعدم السبب الثانوي الحديث. قال "بوسويه":

"ذلك أمر يعلمه الله، فلا شأن لنا فيه. ولا يضرنا بقاء السر مكتومًا لديه (ﷻ)".

وهذا هو مذهب المسلمين الحقيقي في الموضوع عند الله، فإن سألتهم: كيف يجمعون بين قدرة الله والاختيار؟ أجابوك من فورهم: ذلك علمه عند الله- كما قال "بوسويه". أو قالوا: ليس لأحد أن يبحث فيما يريد الله، ولله أن يسأل عبيده عما يريد- كما قال شيخهم البركاوي. وجاء في القرآن: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣).

ومن هنا، يتبين لك مقدار اعتقاد المسلمين في القضاء والقدر، وإنما ترجع التبعية في مذهب الاستسلام لبعض المتكلمين من علماء الإسلام دون البقية. وهم الذين نفوا الاختيار، حتى لا يعارضوا به قدرة الله، وتفرده في الوجود[١].

ومنهم من رأى حل الإشكال في عكس ذلك، وهم أحزاب الاختيار. فبينما الجبرية يقولون: إن كل عمل الإنسان صادر عن الله. يقول القدرية: إن المرء يخلق أعماله بنفسه[٢].

ولا شك أن ما رواه "بالجراف"، في أثناء طعنه على مذهب القضاء والقدر، عن النبي (ﷺ) حديث لأحد الجبرية، منسوب للرسول، ولم يكن من كلام النبي (ﷺ). وهو:

---

[١] هم الجبرية. وهم قليل بادوا، لا وجود لهم بين المسلمين الآن.

[٢] القدرية هم قليل بادوا، لا وجود لهم بين المسلمين الآن.

"لمَّا أراد الله أن يخلق الإنسان، تناول بيديه الطينة التي تكوَّن منها، وقسمها قسمين متساويين. وقال: هذا للجنة، ولا أبالي. وهذا للنار، ولا أبالي"[1]!

ولذلك اشتد "بالجراف" على الإسلام، كغيره من مستشرقي الانجليز. ورماه بأنه دين عبَّاد القوة، حيث إن إلههم إله بيده جميع الأعمال، اختصاصًا واستئثارًا[2].

ونحن نسلم: إنه قد يتأتى أن عالمًا من علماء التوحيد المسلمين، يحكم بأن النعيم أو الجحيم مقدَّران أزلا، بناءً على رواية سندها غير مجمع على صحته[3]، ولكننا لا نسلم مطلقًا: أن ينحو هذا النحو علماء البحث في حقائق الأمور، والتنقيب في أصولها. ولذلك، يسهل علينا أن نقبل من "بالجراف" قوله بأن دين

---

[1] الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان ، ٨٤. وأبي يعلى في مسنده، عن أنس، ٣٤٢٢). وضعفه حسين سليم أسد. لكن أتى أن عمر بن الخطاب ﷺ سئل عن هذه الآية: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} (الأعراف: ١٧٢). قال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال رسول الله ﷺ: "إن الله خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فأخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون". فقال رجل: يا رسول الله! ففيمَ العمل؟ قال فقال رسول الله ﷺ: "إن الله إذا خلق العبد للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله الجنة. وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله الله النار" (أخرجه مالك في الموطأ، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر، ١٥٩٣. وأبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، ٤٧٠٣. والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الأعراف، ٣٠٧٥. وأحمد في المسند، من حديث عمر بن الخطاب، ٣١١. وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، ٦١٦٦. والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة الأعراف، ٣٢٥٦. وصححه الذهبي، والألباني، والأرنؤوط.

[2] وما الخطأ في هذا: إنه من كمال التوحيد، اعتقاد أن الله خالق كل شيء، كما قال الله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} (الصافات: ٩٦).

[3] الحقيقة أن السعادة والشقاوة مقدَّران أزلا. وهذا لا ينافي الاختيار. والوقوف على حقيقة ذلك، مما تحار فيه العقول، وتعجز عن سبر غوره، كما سيقرر الكاتب بعد قليل.

الإسلام، يُرجع كل شيء إلى قدرة الخالق. ولا نقبل مذهب الجبرية.

على أن محمدًا (ﷺ) لم يكن من عبَّاد القوة، لكونه رأى في الله السبب الأولي في كل شيء[١].

وسنبين أن ما اعتقده، قد قال به فريق رفيع الكلمة من علماء الكلام المسيحيين، الذين لم يطعن على رأيهم، ولم يتعرض أحد من الباحثين للقدح في مذهبهم.

وليس الإسلام من الديانات التي تُرجع كل شيء إلى القوة، بل هو أول دين ميَّز بين الخلق والخالق على نحو واضح، بقول صريح. فما أبعد الاعتقاد بإلوهية الطبيعية عن شرع محمد (ﷺ)، فهو الذي أخرج عن الألوهية ما ليس منها. وبعيد عنه بعد ذلك، أن يقول بأن الله إنما هو كل شيء[٢].

ومن جهة ثانية، لو رجعنا إلى طبيعة أفكار الشرقيين، لرأيناها لا تلائم مذهب الطبيعيين، وإنما دبَّ فيهم هذا الفكر من الأعاجم، الذين أكثروا من السفسطة في الإسلام، حتى مالوا به إلى الطبيعة[٣].

ونقل "سالس" عن البخاري حديثًا، يؤخذ منه ما يدل على تقرير مذهب

---

[١] يقول الله تعالى: {ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} (الأنعام: ١٠٢).

[٢] قال الإمام البيهقي: "قال الله ﷻ: {ذلكم الله ربكم خالق كل شيء}، فدخل فيه الأعيان والأفعال من الخير والشر. وقال: {أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء}، فنفى أن يكون خالقٌ غيره. ونفى أن يكون شيء سواه غير مخلوق. فلو كانت الأفعال غير مخلوقه؛ لكان الله سبحانه خالق بعض الأشياء دون جميعها. وهذا خلاف الآية. ومعلوم أن الأفعال أكثر من الأعيان، فلو كان الله خالق الأعيان، والناس خالقي الأفعال؛ لكان خلق الناس أكثر من خلقه؛ ولكانوا أتم قوة منه، وأولى بصفة المدح من ربهم سبحانه. ولأن الله تعالى قال: {والله خلقكم وما تعملون}، فأخبر أن أعمالهم مخلوقة لله ﷻ" (الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، ص١٤٢).

[٣] يعتقد الطبيعيون بأنه لا وجود للكلي، إلا في ضمن جزئياته، فيكون الواجب هو العالَم. فلا فرق عندهم بين المخلوق والخالق، بل الله هو عين مخلوقاته. وهذا مذهب وحدة الوجود الذي قاومه علماء الإسلام.

النعيم أزلا عند المسلمين. ولا يخفى أن البخاري كان من الجبرية، القائلين بأن الله يخلق في المرء أعماله كلها، فالإنسان غير مختار[1].

وهذا ما نقله "سالس":

"تقابل موسى مع آدم أمام العرش، فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله، وبعث فيك الروح، وأمر الملائكة أن يعبدوك، وأسكنك الجنة، ثم حرمها على الناس بخطيئتك. فقال آدم: وأنت موسى، الذي اختاره الله رسولا، وائتمنك على أوامره، فأنزل عليك الألواح بشرعه، ووهبك مناجاته، أتعلم كم من الأعوام كتبت الشريعة قبل أن أخلق في الوجود؟ قال موسى: بأربعين. فقال آدم: أوَما قرأت فيها: "وعصى آدم ربه فغوى". فأجابه موسى: نعم. فقال له آدم: أتقدِمُ على ملامتي؛ لأني فعلت ما كتب الله أني فاعله قبل أن يخلقني بأربعين سنة، قبل أن يخلق الله السموات والأرض بخمسين ألف عام؟!"[2].

---

[1] هذا خطأ جسيم، فليس الإمام البخاري- رحمه الله- من الجبرية. ولا ندري من أين أتى الكاتب بهذا الإطلاق على البخاري. وفي ضمن ذلك افتراء بأن البخاري يضع الحديث على رسول الله ليؤيد به مذهبه. وما أبعد الإمام البخاري عن ذلك. ولم يقل به أحد من أهل العلم. بل إن المسلمين يعتقدون أن كتاب البخاري أصح كتاب بعد القرآن الكريم. ثم إن الحديث مخرج في دواوين السنة. منها: صحيح مسلم، وموطأ مالك، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجة، ومسند أحمد، وصحيح ابن حبان، وغيرها. ورواه عن النبي ﷺ: عمر بن الخطاب، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وجندب بن عبد الله.

[2] قال رسول الله ﷺ: "احتج آدم وموسى- عليهما السلام- عند ربهما، فحجَّ آدمُ موسى. قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟! فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقرَّبك نجيًا. فبكمْ وجَدتَ الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عامًا. قال آدم: فهل وجدتَ فيها: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} (طه: ١٢١)؟ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملا، كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟! قال رسول ﷺ: "فحَجَّ آدمُ موسى" (أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، ٦٢٤٠. ومسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٢٦٥٢). وهو أيضًا في السنن والمسانيد.

ولو أننا علمنا لمن النصر منهما أمام العرش، لحكمنا بوجود الاختيار في الإنسان من عدمه. قال البخاري:

"وقد سأل الناس النبي (ﷺ) كثيرًا عن المنتصر منهما، فانتهى بأن قال: إنه كان لآدم ﷺ"[١].

وهو حكم بتأييد قول بلا توضيح، تراه موضوعًا؛ اخترعه أحد الجبرية تأييدًا لمذهبه[٢]. ولذلك ذهب أحد أحزاب الاختيار، إلى أن الحق كان بيد موسى. وقال: إن النبي (ﷺ) أجاب بأن النصر كان لموسى[٣].

ولا يؤخذ من هذين الحديثين، سوى أن المسألة كانت موضوع نظر الطرفين بين الأنصار أنفسهم. وهو الواقع؛ لأن لدينا من الوقائع والأحوال، ما يدلنا على أنه (ﷺ) ما كان يحب الخوض فيها، فكان يشمئزُّ من سؤاله عن ذلك، ويميل في

ومعنى الحديث: أن موسى احتج بالقدر على المصيبة، وليس على الذنب، وهذا مقبول. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وموسى لما قال لآدم: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال آدم ﷺ فيما قال لموسى: "لمَ تلومني على أمر قدَّره الله عليَّ قبل أن أُخلق بأربعين عامًا". فحَجَّ آدمُ موسى. لم يكن آدم ﷺ محتجًا على فعل ما نُهي عنه بالقدر، ولا كان موسى ممن يحتج عليه بذلك فيقبله. بل آحاد المؤمنين لا يفعلون مثل هذا. فكيف آدمُ وموسى؟!.... وإنما كان لومُ موسى لآدم، مِن أجل المصيبة التي لحقتهم بآدم من أكل الشجرة. ولهذا قال: "لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟". واللوم لأجل المصيبة التي لحقت الإنسان نوع، واللوم لأجل الذنب الذي هو حق الله نوع آخر" (مجموع الفتاوى ٣٢٥/٢). وذكر البيهقي في الشعب مثل ذلك قال: "وفي هذا دليل على تقدم علم الله ﷻ بما يكون من أفعال العباد، وصدورها عن تقدير منه، وأنه ليس لأحد من الآدميين أن يلوم أحدًا على القدر المقدر، الذي لا مدفع له، إلا على جهة التحذير للوقوع في المعصية. ولم يكن قول موسى- بعد خروج آدم من دار الدنيا- في وقت يكون للتحذير فيه معنىً؛ فصار بما عارضه به آدم محجوجًا" (شعب الإيمان ٢٠٤/١).

[١] هذا غير صحيح، فروايات الحديث كلها، في البخاري وغيره، صريحة من لفظ النبي ﷺ، بأن آدم حجَّ موسى.

[٢] هذا حكم بغير علم في هذه المسألة. والصواب ما بيَّناه.

[٣] لم يأتِ ذلك عن النبي ﷺ ولا في رواية واحدة، مع استفاضة روايات هذا الحديث.

محادثاته الخصوصية عن تفسير ما انبهم مما نزل به الوحي عليه[١]:

"إذا ذكِرَ القدَر، فأمسكوا"[٢].

ومما تقدم، يتبين أنه يجب الإقلاع عن اتهام نبي الإسلام (ﷺ) بمذهب الجبرية، وإن من التطرف إلقاء هذا الجرْم على عاتق المتكلمين من المسلمين؛ لما قد بيَّناه من أن بعضهم على خلاف هذا المذهب[٣]. وقد قال "رولان":

"إن الفريقين لم يوضحا رأيهما تمامًا؛ ولذلك تناقضت أقوالهما، كما تناقضت أقوال غيرهم"[٤].

وفي الواقع نرى هذا التناقض بعينه عن المتكلمين من المسيحيين.

ومن تمام الفائدة: أن نأتي هنا إيجازًا على ما قاله المسيحيون في أعمال المرء، وتأثير الإرادة الإلهية فيها. فهم منقسمون منذ قرون عديدة فريقين عظيمين، لكل منهما شيعة ذات شأن خطير. وهما فريق "لوابولا"، وفريق "دومينيك"[٥]. ولا يزال الخصام محتدمًا بين الطائفتين. وكلٌّ يزيد في الخُلف، بما أودع فيه من حب

---

[١] ليس هذا الكلام صحيحًا على إطلاقه. بل إن النبي ﷺ بعث مبينا لما انبهم في الكتاب. كما قال الله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (النحل: ٤٤). وإنما نهى النبي ﷺ عن الخوض في القدر؛ لأنه أمر يحار فيه العقل البشري، ولا يسبر غوره، ولا فائدة من الخوض فيه، فكانت السلامة في التسليم.

[٢] أخرجه الطبراني في الكبير، من حديث ابن مسعود، ١٠٤٤٨. وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة، رقم: ٣٤).

[٣] الصحيح أن جمهور الأمة بعيدة عن اعتقاد الجبر.

[٤] لا شك أن إطلاق هذا الحكم، بعيد عن الدراسة العميقة لتراث علماء الإسلام، الذين تبَّحروا في هذا الجانب، وأشبعوه بحثا. ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية، وكتبهما شاهدة على ذلك. ولابن تيمية "رسالة في الاحتجاج بالقدر". ولابن القيم "شفاء العليل في القضاء والقدر والعلة والتعليل".

[٥] دومينيك: ولد مؤسس الرهبنة دومينيك الكاهن في أسبانيا عام ١١٧٠م. وبدأ العمل بوضع نظام حياة رهبانية مقتبس من نظام القديس أغسطينس، واهتم بنشر جماعته في البلدان الأخرى. وعندما توفي في بولونيا بايطاليا عام ١٢٢١م، كانت رهبنة "الأخوة الوعاظ" قد انتشرت في مناطق كثيرة من أوربا، واستعد البعض منهم للرحيل إلى بلاد الشرق.

التعصب لشيعته. فهؤلاء يذهبون إلى ما يقرب من مذهب الجبرية، وأولئك يقولون بالاختيار في الإنسان. وكل متمسك برأي قومه تمسكًا ما عليه من مزيد. والفريقان يعملان على تمجيد الخالق- جل شأنه، مع المحافظة على مذهب شيعته، وعدم الخروج عن جماعته.

فأما أصحاب "دومينيك"، فقد انتسبوا إلى "توماس"، فقيل لهم: توميون. وهو عنوان له وقع في النفوس، ومنزلة في الأفكار، وسلطة في المناقشات. إذ يتردد الناس كثيرًا في معارضة رأي سدده "ملك المذهب". (هو القديس توماس المذكور. سُمِّي بذلك لبعد صيته، وعلو كلمته بينهم)[1].

ومع كونه عنوانًا رفيع الشأن، فإن من انتحلوه عادة، ليسوا على استحقاق له. فادعى أحزاب "جامنسانيوس" الهولندي- صاحب مذهب القضاء والقدر، الذي حرمه البابا "ليون" العاشر[2]- أنهم من أتباع القديس توماس المذكور.

ولا يعترف اليسوعيون لفريق "دومينيك" بالتابعية إليه؛ لأن مذهبهم يميل إلى القضاء والقدر.

ولم يكن توماس من هذا الرأي في اعتقادهم، بل أصل المذهب رجل أندلسي، يقال له: "بانيس" كان يدرس علم الكلام في سلمنك في أواخر القرن السادس عشر. ولذلك ينسب اليسوعيون مذهب دومينيك إلى هذا الرجل.

ولكنا سنبقى للمذهب اسم توما، لا ادعاءً بأنه الحق، وإن لنا من الدرجة ما يخولنا أن نأتي بفصل الخطاب في مثل هذا الجدال، ولكن لأنه اسم قرَّره التاريخ؛

---

[1] القديس توما الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤م): فيلسوف ولاهوتي إيطالي كاثوليكي شهير، من أتباع الفلسفة المدرسية. اعتنق مذهب القديس دومينيك في عامه السابع عشر. وقد طوب قديساً. واعتبرته الكنيسة عالمها الأعظم، وظلت فلسفته التوماوية لوقت طويل المدخل الفلسفي الأساسي لمقاربة فكر الكنيسة الكاثوليكية. ويعد حامي الجامعات والكليات والمدارس الكاثوليكية، وأحد علماء الكنيسة الثلاثة والثلاثين.

[2] البابا ليون العاشر: هو الذي أسس نظام بيع الغفرانات، الذي جرت عليه كنيسة القرون الوسطى، ففي سنة ١٥١٧م، أصدر غفراناً عاماً شاملاً للعالم المسيحي، فرأى وكلاء البابوية استغلال هذا الغفران لجمع الأموال، إلا أنهم أساءوا استخدام سلطة الغفران؛ بابتزاز أموال الشعب للإثراء.

فصار معروفًا؛ حتى أن المتكلمين من الوعاظ، يؤيدون نسبتهم إليه بتغاليهم في الإعجاب به، وتعصبهم لذلك الرئيس الذي كان به مجد عشيرته. ولقد ذهب بهم التعصب حتى أدخلوا في تعاليمه: أن ما نقل عنه إنما هو أمر مقدس، وحرّموا على الخلف الخروج عنه، وجعلوه صادرًا عن معصوم لا يخطئ. وفرضوا على المريدين في مذهبهم يمينهم أن يقبلوا كل ما جاء عنه قضية مسلمة، بغير جدال، ولا مناقشة.

وما أشبه هذا التحريم بما جاء في القوانين الأساسية الفرنسية، حيث نصت:

"لا يجوز لأحد أن يطلب من الشورى المناقشة في شكل الحكومة الجمهورية".

بمعنى أن كون الحكومة جمهورية، أمر يجب الإذعان إليه مطلقًا.

ولو طلب من الكنيسة أن تفسر ما تناقض من مذهب هذا الرئيس، لخيفَ على الشيعة أن تنحل روابطها. ولذلك نراهم يهربون من التفسير، بما منعوا من نظر المجتهدين. فقد كان أحزاب "دومينيك"، ومعهم قديسهم توماس قبل تقرير مذهبه، يقولون بأن العذراء لم تكن معصومة. فلما تقرر مذهبه، قالوا معه: إنها من المعصومات. وهو تناقض يحرم النظر فيه- كما قرروا.

أما شيعة اليسوعيين، فغير مرتبطة في تعاليم القديس توماس بهذا اليمين، ولكنهم لا يريدون الجهر بمخالفته في دفاعهم عن الاختيار، بل يطعنون على "بانس"، ويحاجون مذهبه بمذهب "مولينا"، وهو يسوعي من البرتغال، ولذلك أطلق عليهم عنوان "مولينيين".

وكان الجدال عنيفًا بين الطائفتين، فبدأ نحو السنة التسعين بعد الأربعمئة وألف من الميلاد، ودام حتى نهاية القرن السابع عشر. ولم تؤثر في الحزبين أوامر الباباوات المتكررة بمنعهما من المطارحة.

وها قد عاد الجدال فظهر في هذه الأيام، وكان كل فريق يرمي خصمه في مبدأ النزاع بالبدع والمروق. فقام بانس أمام الهيكل، وحرم كتاب مولينا، مدعيًا أنه احتوى على مسائل كلها بدع، ترجع إلى مذهب "بيلاج". وهو قس ظهر في القرن الخامس، أنكر سبق القضاء بالجريمة التي ارتكبها آدم في الجنة، وأن كل خطيئة من بعده- فخطيئته السببُ فيها. وردَّ عليه مولينا فرماه بأنه من شيعة "كلفن"، وهو العالم الشهير في القرن السادس عشر، مؤسس مذهب البروتستانت

في الدين المسيحي. فلما رُفع الخلاف إلى البابا، تحيَّر في أمره، ولم يدرِ بمَ يحكم بين المتخاصمين!

وكانت قضية تتشوق الأفكار لمعرفتها، ويحب كل باحث في علم الكلام الوقوف على تفصيلاتها، وقد دامت مطروحة أمام البابا "كليمان" الثامن، إلى بولس الخامس. وتداخل سفير أسبانيا معينًا لشيعة توماس فلم يفلح، بل قوى الخصام، وعمد البابا بولس الخامس إلى نصح الفريقين باستعمال ما أمر به الإنجيل من المحاسنة ولين المعاملة، فكان يقول:

"مما لا ينبغي أبدًا، أن يتخاصم أولئك القسس خصام التحاقد والاقتتال كالمتوحشين".

وانتهى الأمر إلى قاضي روما، فلم يقرر بأن الخطأ أصله خطيئة آدم، ولكنه لم يقضِ على أحد الفريقين، بل أباح لكلٍ نشرَ مذهبه. وقال: إن التنازع في الدين غير معيب، فإن الله مع كل متدين، والمذاهب تستنير ببعضها، كما يُجلى الماس بالماس.

وسار أشياع توماس في مذهبهم شوطًا بعيدًا، حتى قالوا بمثل مذهب الجبرية في الإسلام. وكان "بانس" يقول:

"إن الله هو السبب في جميع الموجودات، فليس من سبب سواه، وكل مسبب هو سببه، وهو المسيطر على كل شيء، وليس لغيره سلطان عليه".

وكان خلفاؤه يجتهدون من بعده في التوفيق بين رأيه، وبين الاختيار في الإنسان؛ فاضطربت أقوالهم؛ وأعجمت عباراتهم. وقالوا: إن كل عمل واجب وجائز معًا. ثم فسَّروه بأن الله هو الذي يبعث الإرادة في الإنسان. ومعلوم أن الإرادة مختارة، فهي مسيرة حسب طبيعتها، أعني حرَّة في عملها. وهو غاية في الخلط، ونهاية في الإغماض.

وانتهى الجدال أخيرًا، بظهور مذهب جديد، يقول بتأثير الله، واختيار الإنسان معًا. وهو المذهب الذي مال إليه "بوسويه"، لكونه لم يرَ أحسن منه في التوفيق بين الأمرين. ومبناه أن الله سبب أولي، والإنسان سبب ثانوي.

ولست أريد أن أفسِّر مذهب مولينا، غير أني أقول: إنه أوجدَ لفظين، سهَّلا الكلام، إن لم يكونا قد سهَّلا تفهم هذا المعنى العظيم. فكان العلماء قبله يصفون

الفعل بكونه واجبًا، أي لابد من وقوعه. وجائزًا: أي يحتمل الوقوع، وعدمه. مع إهمال المستحيل. فأضاف هو لفظًا ثالثًا، جعل معناه وسطًا بين الحالتين. وقال: منتظَر[1]. وهو عنده الواجب المقيد بشرط، إذا تمَّ وقعَ، وإلا فلا. وكان يسمِّي العلم بالمنتظر علمًا وسطًا. وبهذا يقدر تأثير القدرة الإلهية في الأفعال.

وخلاصة هذا المذهب: تغليب الاختيار على القضاء والقدر؛ ردًا لمذهب توماس، وهو تغليب الثاني على الأول.

هذا، وإذا رجعنا إلى الإسلام، وجدنا شبهًا كبيرًا بين القدرية والمولينيين، وبين الجبرية والتوماسيين. وهؤلاء وهؤلاء عُوْرٌ- كما قال عبد الرازق[2].

فأما القدريَّة، وهم أحزاب الاختيار، فإنهم فاقدو العين اليمنى. وهي الأقوى التي بها يبصر السبب الأولي.

وأما الجبرية، وهم القائلون بالقضاء والقدر فقط، فإنهم فاقدو العين اليسرى، وهي أقل إبصارًا، لكنها تبصر السبب الخارجي، أي الثانوي.

وعنده: "أن الذي يرى الصواب، هو الذي يستعمل الباصرتين من قلبه. فيرى باليمنى مصادر العمل الأول، ويرجع إلى الله جميع الأفعال، خيرها وشرها. ثم

---

[1] هو في علم الكلام: الممكن المشروط.

[2] وردت في كل موضع "عبد الرزاق". والظاهر أنه الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٣٠٤هـ/١٨٨٥م-١٣٦٦هـ/١٩٤٧م): شيخ الجامع الأزهر الشريف، ومجدد للفلسفة الإسلامية في العصر الحديث، وصاحب أول تاريخ لها بالعربية، ومؤسس المدرسة الفلسفية العربية التي أقامها على الإسلام. التقى بالشيخ الإمام محمد عبده، وحصل على شهادة العالمية سنة (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م). ودرّس القضاء الشرعي في الأزهر، ثم استقال. سافر إلى فرنسا، ودرس في جامعة "السوربون"، ثم "جامعة ليون"، التي حاضر فيها في أصول الشريعة الإسلامية. حصل على شهادة الدكتوراه برسالة عن "الإمام الشافعي أكبر مشرعي الإسلام"، وترجم إلى الفرنسية "رسالة التوحيد" للإمام محمد عبده بالاشتراك مع "برنار ميشيل"، وألفا معا كتابا بالفرنسية. وفي عام (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م) عين أستاذا مساعدًا للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا)، ثم أصبح أستاذ كرسي في الفلسفة، وأصدر أهم كتبه الفلسفية "تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية"، وكتاب "فيلسوف العرب والمعلم الثاني".

يرى الناس باليسرى، ويبصر تأثيرهم في تلك الأفعال بذاتها".

وكان هذا الخلاف العظيم، سببًا في إيجاد ألفاظ مخصوصة، استعملها المتناظرون، إلا أنها لا تخلو من السفسطة. فقالوا: إن لكل عمل قضاء، ولكل عمل قدرًا. بالقضاء يقرر الله كل شيء يكون، والقدر هو تنفيذ الشيء المخصوص، على النحو الذي تقرر بالقضاء[١].

وبيانًا لذلك جاء عبد الرازق بالقصة التالية:

"بينما كان النبي ﷺ سائرًا في الطريق يومًا، إذ رأى جدارًا يريد أن ينقضَّ، فمالَ عنه، فقال له أحدهم: أتريد أن تهرب من قضاء الله! فأجابه: إني أهرب من قضائه، إلى قدره"[٢].

وظهر مذهب ثالث، أراد التوفيق بين الجبرية والقدرية. ومِن رأي أصحابه: أنه ليس من قضاء مطلق، ولا من اختيار مطلق. بل الحال وسط. والفعل الواحد نتيجة أثرين: أحدهما إلهي، والثاني إنساني. واشتقوا لهذا المعنى الوسط لفظًا مخصوصًا، سموه الكسب الاختياري. وهذا الاشتقاق يعد كنزًا عند أصحاب الجدال، وقالوا: إن الأفعال تنبعث عن إرادة الله. والمرء يكسبها باختياره. ووفقوا بين بعض الأحاديث المتناقضة[٣]. لا ليُضْعِفوا من مذهب السنيين. بل ليبينوا أن القضاء الأزلي، لا يزال سرًّا مجهولًا[٤].

ولما سُئل النبي (ﷺ) عن مصير صديقه أبي هريرة أجاب موجزًا:

---

[١] قال الإيجي: "واعلم أن قضاء الله عند الأشاعرة: هو إرادته الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال، وقدره إيجاده إياها على قدر مخصوص، وتقدير معين في ذواتها وأحوالها" (المواقف ٢٦١/٣).

[٢] لم أقف عليه.

[٣] الصحيح أن يقول: الأحاديث التي ظاهرها التعارض؛ لأن كلام النبي ﷺ منزه عن التعارض. يقول الله تعالى: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (النجم: ٣-٤).

[٤] هذا اعتقاد أهل السنة. ومن هنا أخطأ من قال: إنهم جبرية. فهم يقولون: إن كل فعل هو كسب اختياري للعبد، وهو مخلوق مقدر من الله. لذا يحاسَب العبد على هذا الكسب الاختياري.

"لقد جفَّ القلمُ بما قُدِرَ له"[1].

ومعناه: أن مصير كل مخلوق مكتوب من الأزل في اللوح المحفوظ. ولن تجد له تبديلا. إلا أن قومًا سألوه: لِمَ يعملُ الناس؟ فأجابهم:

"اعملوا، فإن الله خلق في كل واحد منكم ما يقدر به أن يفعل ما خُلق لأجله"[2].

وجوابه هذا، قريب من قول "هيرفليت"، و"هيجل" من بعده، من أن المرء خُلق بين أعمال كانت، وأعمال تكون.

ويقرب مذهب عبد الرازق كثيرًا من مذهب التوميين في هذه الأيام. فالمذهبان يتفقان في أن للاختيار دخلا في كينونة الأفعال، وعلى أن ما قدِّر محتوم من جهة، وجائز من جهة أخرى. وهي نتيجة لا تفهم.

وهو يقول: إن القضاء يتناول الفعل نفسه، وكيف يقع. والكيفية هي الاختيار الإنساني.

وجاء "بوسويه" بعده بأجيال عديدة، يفسر الموضوع نفسه- كما فسره هو من قبل، فقال: يعمل الإنسان العمل مختارًا بقضاء الله، فإن الله أراد أن يكون مختارًا، وهو معه في جميع أدوار الفعل حتى يكون.

---

[1] عن أبي هريرة ﷺ قال قلت: يا رسول الله! إني رجل شاب، وأنا أخاف على نفسي العنت، ولا أجد ما أتزوج به النساء. فسكتَ عني. ثم قلت مثل ذلك، فسكت عني. ثم قلت مثل ذلك، فقال النبي ﷺ: "يا أبا هريرة! جفَّ القلمُ بما أنت لاق. فاختص على ذلك، أو ذرْ" (أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء، ٤٧٨٨).

[2] كان النبي ﷺ في جنازة، فأخذ شيئا، فجعل ينكت به الأرض فقال: "ما منكم من أحدٍ، إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة". قالوا يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟ قال: "اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له. أمَّا من كان من أهل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة. وأما من كان من أهل الشقاء، فييسر لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ: { فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} (الليل: ٥-١٠)" (أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الليل، ٤٦٦٦. ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، ٢٦٤٧).

وليس هذا كل ما يتشابه فيه المسيحيون والمسلمون. بل الحال واحدة في أمور كثيرة غير ما تقدم. كالعدل، ومسئولية العبد، ومصدر الشر، وإيهاب السلامة من الله في الآخرة... وهكذا.

إلى هنا، أمسك القلم عن الخوض في هذا الموضوع. ولكن ليسمح لي القارئ أن أذكر تشبيهًا لعبد الرازق- المارُّ ذكرُه- تأييدًا لحجته؛ فإنه أراد ذات يوم أن يُبين لأحد طلابه سبب أن الرجل- ذا النفس الدنيئة- يُفضِّل الشر على الخير، مع علمه بأفضلية الثاني على الأول. فقال له: إن مثله مثل الزنجي الأسود، الذي يحب أولاده على قبح خلقتهم، ويفضلهم على ولد من أبناء الترك، مع علمه بأنه فوقهم في الجمال[1].

ثبت والحالة هذه: أن الاستسلام ليس من قواعد الإسلام. بل هذا مذهب بعضٍ من علماء المسلمين. بدءوا كأمثالهم من المسيحيين، بأن قرروا: أن السبب الثانويَّ في الأفعال خاضع لتأثير السبب الأصلي. ثم دفعتهم حدة الخصام، فتغالوا بما شذ عن المعقول، وخرج عن الصواب. ذلك لأن المذاهب من شأنها أن يحتدم الجدال بين أحزابها، فلا يتمكن الهدوء من أن يسود في المناظرات، ولا يتحكم المعقول وحده في المناقشات، كما قال "رينبون".

ثم قام أناس، فنشروا تلك الأقوال المتطرفة، سواء عند المسلمين، أو المسيحيين. ولكنهم لم يؤثروا تأثيرًا كبيرًا، كذلك يكون الحال في كل آن، ولن تجدَ لما فُطِرَ عليه المرءُ من الوجدان تبديلا. أما عقله، فسيفنى في البحث عن حل يرضيه لهذه المسألة الغامضة. فاجتماعِ إرادة الله، وإرادة المرء في كينونة كل فعل من الأفعال- بحثٌ عزيز المثال، كما عزَّ على العلماء- عند المسيحيين- أن يفقهوا معنى الرجل الإلهي، بشرط أن لا تنتفي إحداهما بالأخرى- أي الإرادتين. وهو مذهب غير مرضي عنه عند الموحدين بلا استثناء[2].

---

[1] هذا مثل عنصري غير مقبول، ولا يُنتج المطلوب. ومراد الكاتب: أن الإنسان يختار الشر ويفعله، مع علمه بأنه شر وضرر. وهذا مثل تدخين الطباق، وتعاطي المخدرات، وإدمان الخمر.

[2] المقصود بالرجل الإلهي هنا: المسيح كما يعتقد فيه النصارى، فهو عندهم بشر وإله. فله إرادة بشرية، وله إرادة إلهية. قال النسطورية: إن المسيح شخصان وطبيعتان، لهما مشيئة

قالوا: قضاء وحكم أزلي، وتأثير وميل، واستعداد واجتماع. وكلها ألفاظ إنما تدل على اجتهاد الفكر في استنباط المجهول.

ومهما اجتهدوا في بحثهم، فإن الخطأ لازم لتفسيرهم كيفية تأثير القدرة الإلهية في أفعال البشر؛ لأن نبراسهم الذي يهديهم بشري، ولن يصح أن يقاس الإله بالإنسان. فما أشبه عقل المرء- على ضعفه- في بحثه عن النسبة بين السببين الإلهي (والبشري)، بميزان فاسد إن أخذنا من إحدى كفتيه يسيرًا لنضيفه إلى الثانية، انخفضت إحدى الكفتين على عجل، تكاد أن تقلب الثانية. وهو دليل على فساد النظر بهذه الكيفية.

والحاصل: أن علم الله وقدرته، لن يزالا يظهران لأفكارنا، منافيين للاختيار فينا، ونحن نشعر به حقيقة، لا مندوحة عن التصديق بوجوده. وستتعاقب الفلاسفة، ويقتلون أزمانهم في البحث والتنقيب، عن أمر لا محيص عنه، وليس من فائدة في حله. إذ الحقيقة ومقابلها من المعاني المقبولة عند جميع الناس، عالمهم وجاهلهم، من دون تعب ولا اشمئزاز. فالاختيار في الإنسان مبدأ أدبي، بديهي التصديق، كما قال "كانت"[1]. فهو بعيد عن مناقشات الباحثين، ولا تأثير للتنقيب فيه. وقد قال "لوثر"[2]، أخذًا عن "كلفن"، باستعداد الإنسان للمؤثرات المادية. ومع ذلك، لا نرى المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت، يشعرون بأنهم ليسوا أحرارًا فيما يأتون من الأعمال.

واحدة. وأما الملكانية فقالوا: إن المسيح شخص واحد وطبيعتان، فلكل واحدة من الطبيعتين مشيئة. فله بلاهوته مشيئة مثل: الآب، والروح. وله بناسوته مشيئة، كمشيئة إبراهيم، وداود. وقال اليعقوبية بشخصين لهما مشيئة واحدة، وأن الطبيعتين اتحدتا فصارتا بجهة واحدة.

[1] إمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤م): فيلسوف وعالم ألماني برز في مجالات كثيرة، كالفيزياء، والفلك، والرياضيات، والجغرافية، وعلم الإنسان. يعد أحد أكثر المفكرين المؤثرين في المجتمع الغربي والأوروبي الحديث، والفيلسوف الرئيسي الأخير لعصر التنوير. وكان له تأثير حاسم على الرومانسية والمثالية في فلسفات القرن التاسع عشر. كما شكل عمله نقطة بداية لفلاسفة القرن العشرين.

[2] مارتن لوثر: رائد حركة الإصلاح الديني المسيحي في القرن السادس عشر، ومؤسس المذهب البروتستانتي. ولد في ألمانيا سنة ١٤٨٣م. وتوفي فيها سنة ١٥٤٦م.

هذا، وإذا بحثنا عن السبب الذي أوجب اتهام المسلمين بالاستسلام، لوجدناه ناشئًا من عدم إدراك الناس لحقيقة تلك الفضيلة، التي هي من خصائص ذلك الدين، ومنها اشتق اسمه: "إسلام". وتلك الفضيلة هي الاحتمال. فقليل من الديانات، يأمر الناس بالرضوخ للإرادة الإلهية، على النحو الذي جاء به الإسلام. والمسلمون يعملون بتلك الفضيلة، فلا يفوقهم في التمسك بها نساك المسيحيين[١]. ومن الخطأ الحكم على المسلمين بمذهب الاستسلام؛ لبعض ألفاظ يستعملونها، كقولهم: "هذا مكتوب"- عندما تصيبهم محنة. فإنما هم يعلنون بذلك خضوعهم لرب السموات والأرض، كما يفعل المسيحيون بقولهم: "فلتكنْ هذه إرادتك[٢]"[٣].

كذلك، نسبوا إلى الإسلام: ثبات قدم المسلمين، وعدم جزعهم من الموت، وإقدامهم بشجاعة تتصل بالتهور في ميادين الحروب، مقدِّمين رءوسهم إلى أسنة الجيوش الأوربية في هذه الأيام. وهو خطأ أيضًا؛ لأن تبسم المسلم عند ملاقاة الموت، واقتحامه أخطار الحروب، إنما جاءه من اعتقاده الجازم بنعيم الدار الآخرة، ومن شدة إيقانه وإيمانه، مما يجعل النفس هادئة، تلقى الحتوف وهي مطمئنة[٤].

---

[١] يريد الكاتب أن يقول: إن حظ عامة المسلمين من التدين كبير، لا نرى مثيله في عامة النصارى، ولكن يمكن أن نجده في نسَّاكهم!

[٢] لعل النصارى أخذوا ذلك من النص التالي (لوقا ٢٢:٤٢): "قائلا يا أبتاه! إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس! ولكن لتكن- لا إرادتي- بل إرادتك". وكذلك قوله (لوقا ١١:٢): "فقال لهم: متى صلّيتم فقولوا: أبانا الذي في السموات! ليتقدسْ اسمُك. ليأتِ ملكوتك. لتكنْ مشيئتك، كما في السماء، كذلك على الأرض".

[٣] يقول حنا عطوي تحت عنوان "جمال حياة التسليم": "حياة التسليم هي اختبار جميل، نتذوّقه فقط عندما نقوم فعلاً بتسليم دفّة أمورنا الحياتية للرب. فالتسليم للرب أمر يحتاجه المؤمن، كما يحتاجه الخاطئ أيضاً، عندما يسلّم حياته للرب. والغاية هي أن ندرك جميعاً عمق محبة الله لنا؛ فنعطي قيادة حياتنا له، ولمشيئته التي يرتئيها لنا، وهكذا تأخذ البركة طريقها إلى حياتنا. يجب علينا أن نسلّم له الحياة والمصير الزمني والأبدي؛ لأنه أعلم بما هو الأفضل لنا. وإذ نُدْخِل نفوسنا تحت أمر قيادته فإنه يسير بنا إلى جمال مراعيه النضرة. يقول المرنم: "سلّمْ للرب طريقك، واتكل عليه وهو يجري" (المزامير ٥:٣٧).

[٤] يقول الله تعالى: {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى

ولا شك في أن الدين الإسلامي، بتسهيله على الإنسان انتقاله من هذه الدار، قد حلَّ معضلة من أصعب المشكلات[1]. ومِن تَنَقصَ مثل هذا الدين، أن يُرْمَى بأنه قلل من شجاعة المسلمين الأدبية، أو أرخى عزائمهم.

بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (التوبة: ١١١). ويقول أيضًا: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (آل عمران: ١٦٩-١٧٠).

[1] عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: "مَن أحبَّ لقاءَ الله، أحبَّ الله لقاءه. ومَن كَره لقاءَ الله، كره الله لقاءه". فقلت: يا نبي الله! أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت! فقال: "ليس كذلك. ولكنَّ المؤمن إذا بُشر برحمة الله ورضوانه وجنته، أحبَّ لقاءَ الله؛ فأحب الله لقاءه. وإن الكافر إذا بُشر بعذاب الله وسخطه، كَره لقاء الله، وكَره الله لقاءه" (أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ٦١٤٢. ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، ٢٦٨٤).

الفصل السادس

انتشار الإسلام أيام الفتوحات العربية
تخطيط ممالك الإسلام
انتشاره في أفريقيا الوسطى
تجار المسلمين ومستكشفو الأوربيين
الإسلام في مبدئه وبعد ذلك
أسباب الانتشار - المرسلون المسلمون
"الفولبوسيون" و"الخواصة"
أسباب انتشار الإسلام الإلهية

قد كُشف الغطاء عن الأسباب، التي انتحلوها عللا في انتشار الإسلام انتشارًا عظيمًا، وبيَّنا فسادها[١]، ووعدْنا ببيان الأسباب الحقيقة، عند البحث عن تقدمه في هذه الأزمان؛ لأنا نعتقد أن استطلاع حال هذا الدين في العصر الحاضر، لا يبقي أثرًا لما زعموه، من أنه إنما انتشر بحد الحسام- كما فندناه من قبل.

ولو كان دين محمد (ﷺ) انتشر بالعنف والإجبار، للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين، مع إننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع أرجاء المسكونة. وهذه الحركة المستمرة في هذه الأيام، تحمل على الاعتقاد بأن الإسلام

[١] وهي بزعمهم: أنه دين الشهوات المادية. وأنه شرع الجزية لدفع غير المسلمين إلى الإسلام. كما استخدم السيف لإرغامهم على الخضوع.

هو الدين الثالث، الذي جاء موافقاً لطبيعة البشر، بعد ديانة بوذا الهندي، والديانة المسيحية.

وظن آخرون بأن الإسلام كان تابعًا لتمدن العرب، وحضارة الخلفاء التي كانت تأخذ بالنفوس، في دمشق وقرطبة وبغداد، وأنه انقضى بانقضاء ذلك. قال "بارتلمي سانت هيلير":

"ما عاد أحد من الناس يعتنق الإسلام"[1].

والواقع أنهم أخطئوا في معرفة حقيقة الأمرين: انتشار الإسلام، وتمدن العرب. فأما التمدن، فهو أمر يعتبر لغوًا في الإسلام، أو هو نقيض له. وعلى كل حال، فهو عارض فيه، وساعدت الظروف على نموه بجانب القرآن، ولو أنه استمر لأطفأ نور دين النبي العربي؛ بسقوط الأمراء في مهواة عدم التصديق، وقلة الإيمان، وانحياز الأمة إلى عالم التخيل والأوهام[2].

وبينما كان هذا حال مدن الخلفاء الآهلة بالعمران، فلا تُحصى شعراؤها، ولا تعدُّ الأدباء فيها. الفلاسفة يتناظرون، والعلماء في المعارف يتناقشون- كانت صحاري العرب وليبيا وأفريقيا، محافظة على الدين الإسلامي في حاله الأصلي. ولم تمسسه فيها يد أجنبي عن تعاليمه، أو خارج عن شرائعه. هنالك كان منبع دعاة ذلك الدين، الذين انتشروا في الأصقاع[3]، كما تدل عليه قبورهم البيضاء، التي نشاهدها الآن في أفريقيا الشمالية.

---

[1] في العالم الآن مليار وربع المليار مسلم. وتتزايد أعداد المسلمين في العالم ما بين ٢١إلى ٢٥مليونا في السنة.

[2] الإسلام هو دين المدنية. وحضارة العرب قامت على الإسلام، والقرآن هو مفجر العلوم الإسلامية، والدافع للبحث والتجريب، والملاحظة والاكتشاف. يقول الله تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (العنكبوت: ٢٠). ويقول- عزَّ اسمُه: {قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ} (يونس: ١٠١). ويقول ﷻ: {أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} (الأعراف: ١٨٥).

[3] الأصقاع: جمع صُقع. وهو ناحية الأرضِ والبيت (لسان العرب ٢٠١/٨).

وسنحصر كلامنا في انتشار القرآن على قارة أفريقيا. وإنما نذكر على سبيل العرض، أن له في الصين عشرين مليونًا من النفوس[1]. وأن للمسلمين- ويقال لهم عندهم: "هوي هوي"[2]- منزلة عليَّة في المملكة الوسطى. قال مسيو "وازيليف"، وهو من الذين اشتغلوا بالإسلام في تلك النواحي:

"إن مصيره القيام مقام مذهب "ساكياموني"[3]، وإن لمسلمي المملكة السماوية اعتقادًا جازمًا، بأن الإسلام لابد أن يسود، حتى تزول به تلك الديانة القديمة

---

[1] تشير الإحصائيات إلى أن عدد المسلمين في الصين يصل إلى ٥٠ مليونا، في دولة عدد سكانها مليار ومئتا مليون. في حين تقول مصادر مسلمة في الصين: إن العدد يصل إلى مئة مليون. وينتشر المسلمون في كافة أنحاء الصين وخاصة في إقليم سينكيانج، أو المستعمرة الجديدة باللغة الصينية. وسكانها المسلمون من عرق الإيغور. وفي الهند مئة وخمسون مليون مسلم، ذاك البلد الذي تجاوز عدد سكانه المليار. وعدد المسلمين في روسيا يقدر بنحو عشرين مليونا في بلد يصل عدد سكانه إلى مئة وخمسين مليون نسمة. ويتوزع المسلمون في ١٤ جمهورية ومنطقة في روسيا الاتحادية. ويعيش نحو مليون مسلم في العاصمة موسكو. وإذا كانت المسيحية دخلت روسيا في القرن العاشر الميلادي، وبالتحديد عام ٩٨٩م، فإن روسيا عرفت الإسلام في القرن السابع، حيث تحولت بعض المدن في آسيا الوسطى إلى مراكز إشعاع حضاري، مثل سمرقند. وهناك دول يوجد بها ملايين المسلمين الذين لا يعرف أحد عنهم شيئا، فعلى سبيل المثال، في دولة ميانمار (بورما سابقا) ثمانية ملايين مسلم.

[2] قومية هوي المسلمة الصينية: تعيش في منطقة نينغ، ذات الحكم الذاتي. وهي إحدى القوميات التي تتكون منها الصين. ويبلغ تعدادهم حوالي تسعة ملايين نسمة. و يرجع تاريخها في منطقة نينغ، إلى أواخر عهد أسرة تانغ الملكية الصينية (٦١٨م-٩٠٧م). تقع منطقة نينغ على طريق الحرير المشهور تاريخيًا، حيث ترك التجار العرب المسلمون آثارهم. وبقي كثير منهم في الصين، فنشروا الإسلام، وتزوجوا من الصين. ويمكن اعتبارهم الأجداد الأوائل لقومية هوي.

[3] ساكياموني: اسمه جواتاما بوذا (٥٦٣ق.م-٤٨٣ق.م). واسمه الأصلي الأمير سيدهارتا مؤسس الديانة البوذية، إحدى الديانات الكبرى في العالم. عاش في الهند. وبعد وفاته انتشرت تعاليمه في الهند. ومن ثم في شرق أسيا. كما أنها دخلت الصين، وصار لها أتباع كثيرون. ومن الصين انتقلت إلى كوريا واليابان .

البوذية. وهي مسألة من أهم المسائل؛ إذ الصين آهلة بثلث العالم، أو تزيد. فلو صاروا كلهم مسلمين؛ لأوجب ذلك تغييرًا عظيمًا في حالة تلك البلاد بأجمعها، فيمتد شرع محمد من جبل طارق، إلى المحيط الكبير الهادي. ويُخشى على الدين المسيحي مرة أخرى. ومعلوم أن أمة الصين أمة عاملة، وإن هدأت أخلاقها. وجميع الأمم تستفيد الآن من عملها. فلو جاءها التعصب الإسلامي، ذو البأس القوي؛ لخشيت بقية الأمم من السقوط تحت سلطانها"[1].

وقال مسيو "مونتيت":

"لقد صار من المحقق: أن الإسلام ظافر لا محالة على غيره من الأديان التي تتنازع البلاد الصينية. والإسلام قليل في أوروبا[2]، ومع ذلك نراه في شمال تركيا، إلى ليتوانيا. وهو أيضًا في أمريكا، حيث أدخله الزنوج وغيرهم[3]. إلا أن أفريقيا لا تزال المصطفاة. فهو فيها كالديانة المسيحية في أوربا".

قال مسيو "بولنياك":

"يسكن المسلمون جميع الشواطئ، من سيراليون إلى موزمبيق البرتغالية، مارًا بمراكش وولايات البربر (المغاربة) وقناة السويس. وأما في الوسط، فيمتد الإسلام من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطي، ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط، إلى الدرجة السادسة من العرض الشمالي. وتقدم أنه في الساحل يمتد إلى موزمبيق البرتغالية. أعني أنه يقرب من الدرجة العاشرة من العرض الجنوبي. وفي مدغشقر كثير من المسلمين، حتى أن بعض المستشرقين ذهبوا إلى أن اسم الجزيرة مدغشقر،

---

[1] بدأت النزعة الصليبية تظهر مهما أخفيت. في كلام المؤرخ النصراني وازيليف.

[2] صار الإسلام كثيرًا في أوربا- بحمد الله. إن المسلمين في دول أوروبا الآن يزيد على ثلاثة وثلاثين مليونا. ويوجد في مدينة بروكسل ١١٤ مسجداً، وهذا ما يجعل الرائي يتوهمها مدينة إسلامية. وفي بلجيكا ٣٥٠ مسجداً، وفي هولندا ٣٥٠ مسجداً. أما ألمانيا ففيها أكثر من ألفي مكان لعبادة المسلمين، ما عدا المراكز الإسلامية الكبيرة. وليس بعيدًا ذلك اليوم الذي تعترف فيه جميع البلدان الغربية بالإسلام دينًا رسميًا.

[3] تشير الإحصائيات إلى أن عدد المسلمين في أمريكا يصل إلى عشرة ملايين، في هذا البلد البالغ عدد سكانه نحو ثلاثمئة مليون نسمة.

أصله مأخوذ عن العرب"[١].

قال مسيو "مونتيت":

"وأكثر انتشار الإسلام في أفريقيا، فهو يتقدم فيها تقدمًا سريعًا، وينجح نجاحًا كليًا؛ لأن أزْرَ المسلمين فيها مشدود، بما لهم من المكنة في الجهة الشمالية. وهم آمنون على سلطتهم الدينية في تلك البقاع، التي تغيب في الصحراء حتى تبلغ بلاد السودان الواسعة، فلا ينازع الدين الإسلامي دين غيره؛ لذلك يكثر عددهم، وينمو الدين على الدوام"[٢].

---

[١] جزيرة مدغشقر: تقع في المحيط الهندي، في جنوب شرقي قارة أفريقيا، تعتبر أكبر جزيرة تابعة للقارة الأفريقية، وتمثل المرتبة الرابعة في العالم من حيث المساحة. وهي دولة إفريقية، أطلق عليها اسم ملاجاش غداة استقلالها. وملاجاش اسم لأكبر القبائل بالجزيرة. وقد حاولت البرتغال احتلالها سنة (٩١٣هـ). وقاوم المسلمون، وحالوا دون دخولهم الجزيرة، ولكنهم عاودوا الكرة مرة أخرى في السنة التالية (٩١٤هـ)، ودمَّروا معظم مدن الجزيرة، وسيطروا عليها. واحتلت فرنسا مدغشقر في سنة (١٨٦٨م). وظل الاحتلال الفرنسي بها حتى نالت استقلالها في (١٩٦٥م). وعدد المسلمين حوالي ربع سكان ملاجاش، أي حوالي ثلاثة ملايين نسمة. ونسبتهم ١٥٪. ونسبة المسيحين ٢٥٪. وأما الوثنيون فحوالي نصف سكان الجزيرة . وأطلق عليها العرب هي وجزر القمر: جزيرة القمر .

[٢] تعد حركة التنصير في قارة أفريقيا أنشط حركة في العالم الإسلامي، وذلك باعتبار أفريقيا أرضًا خصبة للتنصير. وهنا يقول "البابا جان بول الثاني": "إن أفريقيا أرض خصبة، يجب أن تستغل". وقد تنبأت مجلة التايمز اللندنية عام (١٩٨٠م)، بأنّ نهاية القرن العشرين، سوف تشهد كون شخصين من كلّ ثلاثة مسيحيْن، بعد أنّ كانت النسبة: شخصين مسلمين من كلّ ثلاثة في أفريقيا. وتقول المجلة: إن نمو المسيحية كان كبيرًا بعد استقلال هذه الدول. ففي حين كانت النسبة أقل من (٣٠٪)، قبل سنة (١٩٦٠م)، عادت في (١٩٨٠م) لتصل إلى (٥٠٪). وهكذا أعلن أنّ انتهاء القرن العشرين، يعني انتهاء الإسلام جنوب خط الاستواء في أفريقيا! وتم التأكيد على إيجاد دولة مسيحية جنوب السودان؛ لإيقاف حركة التبليغ الإسلاميّة جنوبًا. وهناك صورة أخرى مشرقة لانتشار الإسلام في أفريقيا، حيث يؤكد "بوازار" أنه: "من المحتمل، بل من المؤكد: أن الإسلام في أفريقيا، سيزيد توسعه على ثلاثة مستويات: على الصعيد العددي والجغرافي أولا ، وعلى مستوى وعي المسلمين

وقد تخطى سيره السودان، واشرأبَّ نحو أرجاء خط الاستواء، وكان له مقر يقرب من أملاك فرنسا في بلاد النيجر. لذلك عرفه ضباط الطلائع، وإن كانت معرفة سطحية. ولكنا لم نقف على سيره تمامًا، إلا عندما استولينا على الكنغو، وشاهدنا القوافل الإسلامية تهرب أمامنا، كمن يريد أن يخفي سرًا عن أجنبي.

والمسلمون اليوم محصورون بين أملاكنا في شمال أفريقيا، ومركزنا في الكونغو والسنغال، حتى كأنهم في قرَّاصة، نشدُّها أو نفسح فيها، حسب ما تقتضيه سياستنا.

ولانتشار الإسلام في وسط أفريقيا منبعان:

الأول في الغرب، وهو قديم. امتد أثره إلى الشاطئ الأطلنطي، حيث دخل القرآن، واعتقده سكان تلك الجهات. ولكنه انثنى أمام تقدم الفرنسيين، من ناحية سنغال إلى بلاد النيجر. ولم يزل ينثني آنًا فآنًا، حتى خرج من "تنبكتو". وهي منبعه الأصلي إلى "سقطو"، ومنها إلى "كانو"، ثم إلى "كوكا". والظاهر أنه استقر فيها.

وأما المنبع الثاني، ففي الشرق. وهو حديث العهد، يصل أثره بين "وادي" ودارفور بمحركين، هما المهدي، ورئيس الطائفة السنوسية. ويفصل بين هذين المنبعين أنهار تشاد، و"شاري" و"لوغوني" الجنوبية.

وأهل الشرق أهل حروب متعصبون. أما قوم الغرب، فيميلون إلى التجارة والمسالمة. وكان الفريقان يتقدمان بالإسلام بين الوثنيين المجاورين لهم، على امتداد اثني عشر ألف كيلو متر، حتى تلاقوا بالفرنسيين قبيل الكونغو، نواحي نهر تشاد. فلم تقر أعينهم لهذه اللقيا؛ لأنهم كانوا هجروا البلاد التي هاجمها الكفار، وظنوا أنهم يأمنون لقاءهم في الجنوب، فلا يجدون غير الوثنيين، ممن لم يعرفوا للأوربيين خبرًا.

ويقال: إن الأوربيين الذين التقوا بهم، أتوا من أقطار بعيدة في الجنوب، حيث تمت لهم فيها السيادة، ولهم فيها مراكب ومدرعات، تروح وتغدو في أنهار واسعة، تجري من الشرق إلى الغرب.

الديني الفردي ثانيًا، وعلى مستوى تنظيم المؤسسات الاجتماعية والسياسية أخيرًا".

ويعيش أكثر من ٧٠ مليونا (٢٤٪ من مجموع المسلمين الأفريقيين) في أقطار غير إسلامية.

ومن الأمور ذات الأهمية الكبرى، بالنظر إلى انتشار الإسلام، توسط الأوروبيين في أفريقيا، وحلولهم في بلاد نهر الكونغو؛ لأنهم بذلك قسموا القارة الأفريقية من طرف إلى طرف. وربما يخشى على حركة الإسلام، الذي كان يمتد رويدًا رويدًا، مطمئنًا من الشمال إلى الجنوب، كما يخشى على التجارة، التي كانت تروح وتغدو مع القوافل الإسلامية، فينعكس مجراها، فتميل إلى الغرب نحو نهر الكونغو، لذلك اشتغل رؤساء المسلمين بهذا الأمر اشتغالا لا مزيد عليه؛ حذرًا من انقلاب الحال في تلك البلاد.

ولقد يفيد المتأمل أن يعرف، كيف كانت نتائج مقابلة الأوروبيين القادمين من جهة الكونغو، مع المسلمين النازلين من السودان؟ لولا أن هذا البحث يبعدنا عن مقصدنا. فلنقتصر على البحث عن السبب في حياة الدين الإسلامي، تلك الحياة القوية، وما السبب في انتشاره هذا الانتشار العجيب.

وهنا يجب البحث فيما إذا كان الإسلام دينًا عموميًا بطبيعته، كدين بوذا، وكالدين المسيحي، أو هو دين خاص بأمة من الأمم. وهو بحثٌ طرَقَ بابه من قبل مسيو "كينان".

والجواب عليه صريح، لا شك فيه من الجهة العلمية، فالإسلام دين عام بغير شبهة؛ لأننا نشاهد من المسلمين في كل أمة على اختلاف الأجناس والبلدان. فمنهم الشرقي، والتتري، والغربي، والهندي، والزنجي.

بقي علينا أن نعرف مع مسيو كينان: إن كانت هذه الحالة العمومية، ناشئة من طبيعة الدين، أو متولدة من أسباب أخرى. وهو يرى أن الأمة العربية ليست مهده الطبيعي، وإنما هو ينتهي إليها، وليس في طبيعة هذا الدين أنه دين عمومي.

وهو قيد ناشئ عن نظر في الموضوع من إحدى جهاته فقط؛ لأن الدين الإسلامي الذي منشؤه القرآن والسنة، هو الذي تولد عنه ذلك الإسلام الذي يعترف المؤلف المشار إليه بأنه دين عام لا محالة، وانتقاله من حالته الأولى إلى الثانية، حصل تدريجيًا بطريقة يتعذر ضبطها، وذلك بتأثير الزمان والأمم المختلفة التي اعتنقته، بحيث يتعسر التفريق بين تقدير تأثيره من حيث هو في أصله، وتأثيره بعد أن صار كما نراه في هذه الأيام. فلا يغضبن مسيو "كينان" إذا حذفت تقسيمه الإسلام إلى أولي ولاحق، وقلت فيه كله- كما قال في كتابه: إنه دين

عمومي.

علـى أن الانتقـال مـن حالـة أوليـة إلى غيرهـا، لـيس عرضًـا خاصًـا بالـدين الإسلامي، بل تشترك فيه جميع الأديان[1].

فما يُعزى إلى حالة الإسلام الحاليـة، مثـل: انتشـار مـذهب الزهـد، والاعتقـاد بالأولياء وبعض الأموات، وكثير من التعبدات الأخرى- سببه أن المرء طمـاع في الدين بأصل الخلقة، ولكل أمل خاص. ومن هنا، تولدت تلك المذاهب والأفكار؛ إرضاء لشهوات تشتد ظهورًا، كما تقادم العهد عليها، ولم ينجُ الإسلام مـن لـوازم هذه الضرورة بل خضع لها، وأداها حقها. وهذا مـن أكـبر أسـبابا تقدمـه، ولكنـه أيضًا سبب من أسباب تناقضه؛ لأن تلك المذاهب تخالفه مبدأه[2].

ولقد تجد النفوس الـتي رفعـت أعنتهـا إلى السـماء، ومالـت إلى التجـرد عـن الحواس، ورغبت في مشاهدة الحضرة الربانية- طريقًا مسلوكًا في مذهب التصوف، يسهل عليها النسك والتعبد. وقلما يلومهم بعـض المتشـددين مـن العلمـاء. وإن كان التزهد بهذه الصفة، أي الاعتقاد بالوصلة بين العبد والله، مما يخـالف مـذهب التوحيد. ومن الناس من يرى نفسه بعيدًا عن ربه، فلا يسـتطيع أن يرفـع دعـاءه إليه، وهو في بعض الأحيان غريب. (كقوله: إلهي ارزقـني مـن الأبنـاء ذكـورًا، ولا تجعل ماشيتي تلد إلا إناثا).

ولمثل تلك الأفهام، وُجدَ في الإسلام مـذهب الواصـلين، والـذين صـار بيـدهم

---

[1] من البداية آمن بالنبي ﷺ صهيب الرومي، وبـلال الحبشـي، وسـلمان الفارسـي. وهنـاك آيات كثيرة في القرآن تفيد عموم رسالة الإسلام للناس كافة. منها قـول الله تعـالى: {وَمَـا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء: ١٠٧). {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُـونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً} (الفرقان: ١). {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّـةً لِّلنَّـاسِ بَشِـيراً وَنَـذِيراً وَلَكِـنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (سبأ: ٢٨).

[2] من الخطأ نسبة الخضوع للوثنية للإسلام. لأن الكتاب والسنة قائمان غضـان طريـان، لا يشوبهما شائبة، ويمُنُّ الله على هذه الأمة بأئمة أعلام، يجددون لها دينها، ويردون الناس إلى صفاء العقيدة والسلوك، وينفون عنه كل مظـاهر الشـرك. فلـم تـدخل عناصـر وثنيـة إلى الإسلام، كما حدث في النصرانية التي ألفتْ بـين تعاليمهـا وبـين عقائـد الـوثنيين؛ حتـى تجتذبهم إلى الدخول فيها. فنقلوهم من ركن في جهنم، إلى ركن آخر فيها.

توزيع كثير من المبرات في اعتقاد العامة. وإليهم صار يرحل الجمع الكبير من القوم، الذين ضلوا سواء السبيل، فيجتمع إليهم قطاع الطريق، والشحاذون، والنسوة العاقرات، وشبان يريدون الثروة أو الجاه، وشيوخ نضب عود قواهم. مع أننا إذا رجعنا إلى القرآن، لرأينا التصديق بالأولياء غير شرعي، ولوجدنا أن النبي (ﷺ) حرَّم الاعتقاد بهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الزمر: ٣).

والواقع أن الإسلام في مبدأ ظهوره، ما كان يقبل غير الاعتقاد بالله الواحد الأحد، وقد بقي هذا المذهب كما بدأ، فهو اليوم جامعة تلك المذاهب، وإليه ينتهي كل اعتقاد[١].

ومن مزايا الإسلام: أنه دين رحيم، فهو يعد الجنة والنعيم لكل مؤمن، من دون تمييز على التقريب[٢]. فالمحارب يموت شهيدًا، والعالم يكتفي بتلاوة القرآن، والاثنان مقبولان عند الله. وللفقير مكان عليٌّ، وللغني درجة رفيعة.

ولقد كان فكر النبي (ﷺ) في الألوهية من أرفع الأفكار وأسماها، ولكنه تساهل كثيرًا في تقدير الإنسانية[٣]؛ لذلك تسامح الناس كثيرًا في رغباتهم، وما كانوا إليه يميلون. نعم، يجب على الرجل أن يعتقد، ويعبد الله. ولكن لا يجب عليه أن يحارب نفسه، ويعذبها العذاب الأليم ليقهرها. إذ لا ينبغي له أن يطلب لنفسه الكمال، ولن يصل إليه؛ لأن من أراد الكمال، فكأنه أراد أن يساوي الإله في جلاله. وهو أسوأ الأعمال وأخبث الرغبات[٤].

---

[١] الإسلام لا يتغير، ومظاهر الشرك هذه تأتي من العامة والجهلاء، وقد قضت حركة الإحياء الإسلامي والإصلاح الديني على كثير منها. ولا يزال العلماء يقاومونها، من أجل القضاء عليها تمامًا.

[٢] على الإطلاق.

[٣] في هذه العبارة سوء أدب مع النبي ﷺ.

[٤] هذه العبارات ليست من دين رسول الله ﷺ. بل كان رسول الله أتقى الناس، وأبعدهم عن محارم الله. وكان يجتهد في العبادة، فيقوم من الليل حتى تتفطر قدماه. ويصوم كثيرًا، ويلهج بذكر الله ليل نهار، ويجاهد في سبيل الله. وهو قدوة المسلمين في كل ذلك. يقول

وكان رسول الله يميل إلى بعض ما يميل الناس إليه من المشتهيات، فكان يقول على أسلوب سلس:

"حبب إلي من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب. وقرة عيني في الصلاة"[١].

ولقد يتعسر الجمع بين هذا التفضيل، وبين الميل إلى النساء، حتى يكاد العقل أن يرى في الأمر تهكمًا. ولكن هذه الجملة لا تحتوي في الحقيقة على معنى خفي، بل ما يفهم من لفظها، هو الذي قصد منها. ومَن وعاها، فقد عرف الإسلام كما ينبغي[٢].

وقد ورث المسلمون عن نبيهم (ﷺ) الميل إلى ما كان يميل إليه. فللصلاة في قلوبهم منزلة سامية، وليس التعبد بها عندهم خاصًا بالنساء والأطفال، كما هو عند المسيحيين. بل هي مزيَّة من مزايا الرجال، وإحدى جهات فضلهم على النساء، ولا يواظب عليها الصبي أو المرأة إلا نادرًا[٣]؛ لاعتبارها عند المسلمين من أعظم الأمور، التي تلزم فيها صفات الرجل التام.

ومع ذلك، فمن الشهوات ما نهى النبي (ﷺ) عنه، وأمر بمجاهدة النفس فيه. فقد حرَّم على المسلمين شرب الخمر، وكل شراب يؤثر مثله، وقد بالغ المسلمون في العمل بهذا النهي، فكان من وراء ذلك، أن نجت الأمم الإسلامية

الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} (الأحزاب: ٢١).

[١] لم يرد الحديث بهذا اللفظ. ومن الأخطاء الشائعة روايته هكذا. فلفظ "ثلاث" زائد. وما ورد رواه أنس قال قال رسول الله ﷺ: "حُببَ إلي من الدنيا النساء، والطيب. وجُعل قرة عيني في الصلاة" (أخرجه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، ٣٩٣٩. وأحمد في المسند، من حديث أنس، ١٢٣١٥. والحاكم في المستدرك، كتاب النكاح ٢٦٧٦). وصححه الذهبي، والألباني.

[٢] حب النساء فطرة جعلها الله سبحانه في الرجال، كما جعل ميل المرأة إلى الرجل فطرة. هذا في جميع بني البشر. ولم ينكر النبي ﷺ عن نفسه هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لأنه لم يكن متكلفا، ولا متصنعًا. بل كان أتقى الناس، بشرًا رسولا.

[٣] ليس هذا صحيحًا بإطلاق. وربما يتكلم الكاتب عن مشاهداته لبيئة خاصة، في زمان خاص.

من مرض المسكرات. وهي الداهية التي تفجع اليوم أممًا كثيرة من المسيحيين. وكانت إحدى الأسباب في اضطراب المجتمع الإنساني، وظهور مذهب الفوضويين، مما تجهله الأمم الإسلامية.

هكذا جذب الإسلام قسمًا عظيمًا من العالم، بما أودعَ فيه من إعلاء شأن النفس، بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر، تذكرها خمس صلوات في كل يوم، وبما اشتمل عليه من الترفق بطبيعة البشر، حيث أتاح للناس شيئًا مما يشتهون.

وأعظم عامل في انتشار الإسلام، وخصوصًا عند الأمم الزنجية (السود): بساطة مذهبه، وصدق تعاليمه. وهو سبب موجود في القرآن نفسه، فهو بذلك يلائم طباع الهمج كثيرًا، الذين لم يعرفوا دينًا من قبل ذلك. دينًا لا أسرار فيه، وكلمته- أي كلمة الشهادة، يُعتاض عنها عند الاحتضار بإشارة تدل عليها، كرفع السبابة إلى السماء؛ إشارة إلى وحدانية الله تعالى[١].

فكلما وجد الرجل الجاهلي أمامه دينين متحدين في حقيقتين: وحدانية الله، وخلود الروح. وهما الإسلام، ودين عيسى. تراه يختار الدين الذي لا يزيد شيئًا عن تينك الحقيقتين. ويعتنق الإسلام بلا محالة. وهي قوة يفضل بها القرآن الديانة المسيحية في الانتشار، وكانت معروفة عند القرن السابع عشر، لذلك نقرأ في كتاب القس "ماراشي"، الذي سمَّاه "الرد على القرآن":

"ولا يغيبن عن ذهن القارئ، أن تلك الطائفة الشريرة، أو المحرفة، أو ما تشاء من الأسماء، لا تزال حافظة لكل ما في الدين المسيحي من الأمور الظاهرة الوضوح، القريبة التصديق، مضافًا إليه ما يوافق نظام الكون، وقانون النشأة الدنيوية، فقد أبعدَ عنه أحاجي الإنجيل، التي نخالها في أول الأمر غير صحيحة، لا

---

[١] هذا شيء لا نعرف له دليلا. وما أتى أن النبي ﷺ في مرض الوفاة، رفع يده، أو إصبعه، ثم قال: "في الرفيق الأعلى"، ثلاثا ثم قضى" (أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ٤١٧٤). فإن النبي ﷺ فعل ذلك توكيدًا؛ لأنه خير بين الدنيا وما عند الله، فاختار ما عند الله. وهذا لا يُغني المسلم عن النطق بالشهادتين عند الاحتضار لمن قدر عليه.

تدركها العقول. كما أنه جرَّد تعاليمه من كل قاعدة يشدّ بها الخناق على البشر[١]، مما جاء في ذلك الكتاب. وبهذه الواسطة، تمكن من رفع العقبتين اللتين يُحس كل واحد منا بأنهما الحاجز بينه وبين الدين الحق الصحيح، وهما عقبة الروح، وعقبة الجسم. وهذا هو السبب في أن الوثنيين الذين يريدون ترك دينهم في أيامنا هذه، يعتاضون عنه بالإسلام، دون الديانة المسيحية".

بقي علينا أن نستقصي الأسباب والوسائل المستعملة الآن لانتشار الإسلام. وهنا أيضًا نجد سببًا عظيمًا من أسباب انتشار القرآن، فرافعو راية الإسلام هم في العادة تجار بلد واحد، تضافروا على جلب الرزق من بلاد قاصية. فالمبشر الإسلامي- (وليلاحظ أن هذا الاسم غير صحيح عند المسلمين؛ إذ ليس لدينهم مبشرون منقطعون لهذا الأمر، كالمسيحيين)- لا يوجب عند الأمم الجاهلية خوفًا منه، ولا فرَقًا لمقدمه، كما يحصل لهم ذلك من المبشرين المسيحيين. وهم كما قال مسيو "مونتيل":

"يعتنقون دينه؛ لأنه لم يعرضْه عليهم".

فما أشبه الأمم بالأطفال! ترغب عمَّا يقدم إليها، وترغب فيما تحسبه ممنوعًا عنها!

أما الطرق المستعملة في انتشاره، فكثيرة متنوعة. وأحسن موقع نبحث فيه عنها جهات أفريقيا، بجانب الأملاك الفرنسية، قرب خط الاستواء؛ فليس من جهة يشاهد المرء فيها تقدم الإسلام أحسن منها.

والقائمون بهذا العمل هم "الفولبوسيون"[٢]، وهم الجنس الأبيض في السودان،

---

[١] من هذه القواعد الضيقة في الديانة النصرانية: منع الطلاق. ولكن ماذا يقول هؤلاء في أن الإسلام حرم الخمر، وحرم أكل الميتة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وما ذبح للأصنام، ولم تحرمه النصرانية؟! وحرم أكل الخنزير والحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع، ولم تحرمه النصرانية؟! وغير ذلك كثير، يُظهر أن الإسلام ينتشر لأنه الهدى ودين الحق.

[٢] في كل المواضع وردت لفظة "الفولبوسيون". والصواب أنهم "الفونج". وقد قامت عدة ممالك عربية صغيرة في شمال السودان وشرقه، إلى أن استطاع التحالف بين قبائل العبدلاب العربية، والفونج الزنجية سنة (١٥٠٤م) من إسقاط مملكة "علوة" النوبية المسيحية. وأثمر

وله الأولوية على غيره. وهو أعرق في الإسلام، وإليهم أشرنا عندما قلنا بأن أحد منبعي الإسلام أقاليم نهر شادو، وقد شاهدهم المكتشفون الفرنسيون في "شاري" و"لوغونه".

والفولبوسيون يقصدون نشر الإسلام، وتوسيع متاجرهم، ثم هم يرمون إلى غرض آخر، هو اتساع نطاق سلطتهم، فلهم خطط سياسية في الاستعمال مثل أوربا، يعملون لأجلها في أفريقيا، قال مسيو "مستران":

"إن الذي لفتَ ذهننا كثيرًا لمَّا قدمنا إلى جهات شاري، هو النظام السياسي الذي تمكنت ملوك الإسلام في أواسط أفريقيا من إيجاد بين الأمم التي دانت لكلمتهم".

وللفولبوسيون مساعد كبير من عشائر يقال لها الخواصة[1]، وهم من الجنس الأبيض، وأقرب عهدًا بالإسلام ، وأقل منهم منزلة. فنسبتهم إليهم، كنسبة اليهودي للعربي. ولقد شبهنا باليهودي؛ لأنه تشبيه قال به جميع الرواد والمكتشفين من الأوربيين. فالخواصة أمة لازمة، لكنها محتقرة، كما هو شأن اليهودي، يحب المال، ويتكهن طرق اكتسابه، ولا يخاطر بمتجره، فيسير خلف "الفولبوس"، وهو رجل الحرب والفتوح، ولا يستقر به القرار، إلا إذا آمن وتمكن.

والخواصة هم أهل المعارف والعلوم في السودان، حتى كأنهم احتكروها. إلا أن علمهم قاصر على شيء يسير، كالقراءة والكتابة في اللغة العربية. وهو كاف لنفوذهم في الوثنيين؛ لأن هؤلاء يعظمون الكاتب والقارئ، إلى درجة العبادة

هذا التحالف تأسيس دولة "الفونج"، أو سلطنة سنار الإسلامية، التي حكمت معظم السودان. وأبرم الاتفاق على أن يكون السلاطين من الفونج، والوزراء من العرب. ادخل العرب الدين الإسلامي إلى السودان في الشمال والشرق والغرب والوسط والقليل من المناطق الجنوبية، وأدخلوا أيضاً لغتهم التي بدأت تسود البلاد، حتى تكونت اللهجة السودانية الحديثة.

[1] في كل المواضع وردت لفظة "الخواصة". والصواب أنهم "القواسمة". وذلك لأن دولة سنار تأسست بقيام تحالف بين قبائل القواسمة العربية الجهنية، بقيادة شيخ العبدلاب: عبد الله جماع. وبين زعيم قبائل الفونج: عمارة دنقس. وهو أفريقي مسلم من مناطق جنوب النيل الأزرق.

تقريبًا. ومع ذلك، فلا يزال الخواص وضيع الدرجة في عين متبوعه الفولبوس، فالفولبوسيون هم أنصار الإسلام في الحقيقة، والخواصة منهم بمنزلة الوعاظ والفقهاء.

ويُعزى امتداد سطوة الفولبوس دينيًا وسياسيًا، إلى تداخلهم في الخصومات التي تتكرر بين القبائل الوثنية المجاورة لهم، فما تخاصمهم الأهالي، إلا وتداخل الفولبوسيون. أمَّا الجهات التي اجتمعت فيها قلوب الوثنيين، وخفتْ وطأة الشقاق لديهم، فلا يدخلون بينهم بدينهم وسياستهم إلا بالعناء، ويتوصلون إلى غرضهم في الغالب عندما ترتكب جريمة قتل أو سلب، حيث يوجد قوم من المسلمين؛ لأنهم يرسلون إليهم الكتائب لتقتص منهم. وبذلك ينتشر دينهم، وتعلو كلمتهم.

ومهما تنوعت أسباب تداخلهم، فإن طريقة سياستهم تدل على حذق واقتدار. ومرجعها إلى مبدأ الحماية، الذي توصلوا إلى وضعه بين الأمم الهمج، كما رواه مسيو "مستر". فمن احتمى بهم، فقد أمِنَ. ومن خرج عن طاعتهم، أصبح مهددًا. ومتى احتمت بهم قبيلة، ذهب رؤساؤها إلى ملوك الإسلام في السودان، فيولونهم المناصب، ويلبسونهم الخِلَع، ويردونهم إلى أوطانهم، يحكمون فيها باسم سلاطين المسلمين، وتحت رعايتهم.

فإن كانت القبيلة أو القرية عظيمة، أرسل السلطان إليها رسولا من قِبله؛ ليلاحظ حكومتها بالنيابة عنه. والسفراء كلهم من الخواصة، يكونون بجانب الحكام، مستشارين ذوي كلمة ونفوذ. ومعارفهم وما تعلموه من الأحكام بالقرآن، تؤهلهم لمنفعة اللاجئين إليهم. وهم كالعَلم، يجتمع حوله التجار الوافدون من السودان.

وقد يتفق أن بعض القبائل الوثنية لا تخضع من أول ظهور الفولبوسيين بينهم. هنالك تسطو عليهم قبائلهم، فتسلب منهم، وتأخذ أبناء الرؤساء، فتبعث بهم إلى السودان، حيث يتربون على مبادئهم ومبادئ الخواصة. وبعد زمن، يرجعونهم إلى بلادهم، فيقومون فيها كنواب عنهم، مثل الحكام الذين ترسلهم الممالك الأوروبية في مستعمراتها.

وفي تلك الأثناء ينتشر الإسلام بمجرد الاختلاط والمعاشرة وحب التقليد، بدون أدنى إكراه، ولا تعيين رسل، أو مبشرين؛ إذ بمجرد أن يشتري الوثني خرقة القطن من أحد الخواصة، ويستر بها عورته، يأخذ في تقليد البائع في الصلاة

كالقردة، ويتعسر بيان اللحظة التي يسير فيها مسلمًا حقيقيًا؛ لأن إسلامه يأتيه تدريجيًا.

ومتى كثر عدد المسلمين في بلد، أقام فيها الفولبوسيون مدارس، يتولى الخواصة التعليم فيها. ولكنهم لا يتداخلون في نشر الإسلام مباشرة بين البقية، بل يتركون ذلك للخواصة، أو للأهالي أنفسهم.

ونذكر من الوسائل الناجحة في يد الفولبوسيين لانتشار الإسلام- الزواج؛ فإن سلاطين السودان يتزوجون من العائلات الوثنية لهذه الغاية[1]، ولا تمكث النساء وأولادهن، حتى يصير الكل من أقوى الأسباب على انتشار الدين الإسلامي. وقد أشار مسيو رينان إلى ذلك في بعض كتبه حيث يقول:

"من الصعب أن يصم المرء أذنيه، إذا تقدمت إليه النساء والأطفال، ومدَّ كل يديه إليه، وطلب منه: أن اعتقد بمن نعتقد".

على أن الزواج هو السبب في وجود أنصار الإسلام الأولين، وكثيرًا ما تزوَّج النبي (ﷺ) لخدمة دينه، لا لشهوة في نفسه، فقد صرَّح بأن الله أباح له الجمع بين عشرة نساء[2]، خلافًا لما فرضه لجميع المسلمين. وهو اختصاص تُدرك غايته لمَن تأملَ؛ لأنه كان معصومًا عن النساء حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره[3]، وتزوج بالسيدة خديجة بعد وفاة زوجها الأول[4]. وقضى خمسة وعشرين سنة بعد

---

[1] لا يجوز لمسلم الزواج من وثنية حتى تسلم. يقول الله تعالى: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (البقرة: ٢٢١).

[2] لم يرد عن النبي ﷺ مثل هذا التصريح- فيما نعلم. وإنما اجتمعت الأمة على أن من خصائصه الجمع بين أكثر من أربع نسوة. وهو قد مات عن تسع وجاريتين. كما في صحيح البخاري (كتاب الغسل، باب إذا جامع ثم عاد، ٢٦٥).

[3] نشأ محمد ﷺ في بيئة جاهلية، ينتشر فيها الخمر والميسر والزنا واللهو. ولكن الله ﷻ عصمه من كل ذلك.

[4] مات عن السيدة خديجة زوجان، قبل أن يتزوجها النبي ﷺ. عن الزهري قال: "تزوجت خديجة- رضي الله عنها- قبل رسول الله ﷺ رجلين. الأول منهما: عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم... ثم... أبو هالة التميمي. وهو من بني أسد بن عمرو بن تميم"

ذلك مع هذه الزوجة، وكان من الممكن أن تلد تربًا له من زواجها الأول. ولم يمل إلى ما أباحته العرب قبل الإسلام، وأباحه القرآن بعد ذلك من تعدد الزوجات. ولم يتسرَ.

ثم توفيت خديجة سنة (٦١٩م). وعاش بعدها اثنتي عشرة سنة، تزوج في خلالها بعشر نساء[1]، ليس بينهن إلا اثنتين كانتا بكرًا[2]، والباقيات مطلقات، أو مترملات[3]. قال "رولان":

"إن كثرة زواج النبي كانت ليزيد في نشر أوهامه"[4].

وهو قول يقصد به قائله القدح، ولكنه حُجَّة على أن النبي (ﷺ) لم يكن في تعدد الزوجات شهويًا.

هذه هي الأسباب في انتشار الإسلام. ولست أدري إن كانت تكفي لإدراك سرِّ

(سنن البيهقي الكبرى، كتاب النكاح، باب تسمية أزواج النبي ﷺ وبناته وتزويجه بناته، ١٣٢٠١).

[1] بعد وفاة خديجة ظل النبي ﷺ بلا زواج لسنتين. ثم تزوج سودة، ومن بعدها عائشة. عن هشام، عن أبيه قال: "توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين. فلبث سنتين، أو قريبًا من ذلك. ونكح عائشة، وهي بنت ست سنين، ثم بنى بها وهي بنت تسع سنين" (أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها، ٣٦٨٣).

[2] عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قلت يا رسول الله! أرأيت لو نزلت واديًا، وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجرًا لم يؤكل منها! في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: "في التي لم يُرتع منها". تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها" (أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب نكاح الأبكار، ٤٧٨٩)

[3] زوجات رسول الله ﷺ: خديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر، وأم سلمة بنت أبي أمية، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وجويرية بنت الحارث، وميمونة بنت الحارث، وزينب بنت جحش، وزينب بنت خزيمة، وسودة بنت زمعة، وصفية بنت حيي.

[4] محمد هو عبد الله ورسوله، الذي أرسله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين الباطل كله، ولو كره المشركون.

هذا الدين في انتشاره، أو أنه يجب البحث معها عن أسباب سماوية[1]!

غير أن الإسلام خرج من ذرية إسماعيل، وسرى في الأرض، كما خرجت المسيحية من ذرية إسحاق[2]. وقد بارك الله في أبناء الخادمة، كما بارك في أبناء السيدة[3].

ونحن نعلم أن الله[4] قال لإبراهيم عن إسماعيل: إنه سيبارك فيه، ويكثر من نسله كثيرًا[5].

وكرر له ذلك بقوله: إنه سيبارك له في ابن الخادمة، فتخرج من صُلبه أمة كبرى؛ لكونه من أولادك[6].

وأعاد الله[7] هذه البشرى مرة ثالثة لوالدة ذلك الطفل، الذي نجا في الصحراء، حيث رُميَ ليموت عطشًا[8].

---

[1] يريد الكاتب هنا أن يلفت الغربيين إلى أن ما ذكره من أسباب لانتشار الإسلام العجيب غير كافية للتفسير. وإنما هناك سبب إلهي، يتأيد به هذا الدين؛ لأنه دين الله الحق، الذي تكفل الله بنصرته، ووعد به إبراهيم ﷺ.

[2] دين المسيحية الذي نعرفه اليوم، ليس هو ما كان عليه عيسى ﷺ. بل إنه تبدل وتغير، حتى صار دينا تأليفيًا من عناصر وثنية، وأخرى إلهية.

[3] يقصد الكاتب بالخادمة هاجر، وبالسيدة سارة. والحقيقة أن هاجر كانت أميرة مصرية، ولم تكن جارية. وقد حرف اليهود كتابهم المقدس بسبب من عنصريتهم الحاقدة، فهم يقولون: إنهم أبناء إبراهيم من زوجته الشرعية سارة. أما إخوتهم العرب، فهم من سلالة الجارية هاجر، فيكون العرب نسلا أدنى منزلة، وأقل شأنا- في نظرهم.

[4] هنا لفظ "يهوذا". وهو خطأ.

[5] التكوين ١٧:٢٠ "وأما إسماعيل، فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره، وأكثره كثيرًا جدًا. اثني عشرَ رئيسًا يلد، وأجعله أمة كبيرة".

[6] التكوين ١٣ :٢١ "وابن الجارية أيضًا سأجعله أمة؛ لأنه نسلك".

[7] هنا لفظ "يهوذا". وهو خطأ.

[8] التكوين ١٠ :١٦ "وقال لها ملاك الرب: تكثيرًا أكثر نسلك، فلا يعدُّ من الكثرة". (١٧ :٢١) "فسمع الله صوت الغلام. ونادى ملاك الله هاجر من السماء، وقال لها: ما لك يا هاجر! لا تخافي؛ لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو.
١٨ قومي احملي الغلام، وشدِّي يدك به؛ لأني سأجعله أمة عظيمة".

وقصة ظهور الملك لهاجر من أجمل الروايات. ووصف بادية الظمأ، ولَهَف الأم على ولدها، مِن ألطف ما يقال:

"نضب الماء في الزق، ورمتْ هاجر الطفل تحت شجرة، وابتعدت قليلا، ثم جلست أمامه على مسافة مرمى النبل، وقالت: لست أصبر أن أرى ابني يموت. ثم رفعتْ صوتها بالبكاء. وقد كان بكاء الطفل قد سبقها إلى السماء، فناجاها الملك من قبل الله: مالكِ يا هاجر! لا تخافي! فقد سمع الرب صوت الطفل، من المكان الذي وضعتيه فيه. فقومي وساعديه على القيام. وليشتد ساعدك على حمله، فسيكون من ذريته أمة كبرى"[1].

ولقد ارتعشت يدي عندما مددتها؛ لأزيل الغطاء عن الكتاب المقدس؛ كي أنقل الآيات التي سطرتُها. ولولا ما قاله الأب "بروغلي" من أن تقدم الإسلام أمر مندرج تحت ما بشر به أبو المؤمنين[2]؛ لما تجرأتُ أن أطبق تلك الآيات على الإسلام؛ ولا ذهبتُ إلى أن في انتشار هذا الدين سرًا من الأسرار الربانية.

[1] التكوين (١٦:٧).

[2] المقصود به إبراهيم ﷺ، أبو الأنبياء.

الفصل السابع

الإسلام في الجزائر

استعصاء المسلمين على التنصُّر
المبشرون بغير رسالة
الجمعيات الدينية الإسلامية
هدف تلك الجمعيات
تحول الهيئة في المسلمين
التقليد ـ التوراة

شاهدنا الإسلام يبرهن على قوته وحياته باكتساب الوثنيين في أواسط أفريقيا، وتجنيدهم تحت راية القرآن. وله كذلك في الشمال الشرقي من بلاد الزنج، وفي مصر العليا "السودان"، وفي "سريناق"، ما يدل على قوته الغريبة، وسيره المدهش، إذ قامت مملكتان قويتان: مملكة المهدي[1]، ومملكة إمام جغبوب[2] منذ خمسين سنة،

---

[1] مملكة المهدي: أسسها محمد أحمد المهدي (١٨٤٣-١٨٨٥)، قائد الدعوة والثورة المهدية بالسودان، التي انتصرت على جيوش الحكم التركي المصري، والجيوش البريطانية التي ساندته. وقد حققت أول حكم وطني سوداني يقوم على الشريعة الإسلامية.

[2] جغبوب: واحة في ليبيا. وإمام جغبوب هو محمد بن علي السنوسي بن العربي، يعرف بالسنوسي الكبير (١٧٩٨-١٨٥٩) مؤسس السنوسية، وهو من سلالة الأدراسة، الذين يتصل

على هيئة حكومات، تشخص الحكومة الدينية التي أرادها نبي الإسلام[1].

كذلك توجد في الزاوية المقابلة لهاتين المملكتين مملكة ثالثة في شمال أفريقيا، وهي على نسقهما، ولا تزال تقاوم هجمات الديانة المسيحية ظافرة عليهم، ونعني بها مملكة مراكش[2].

ولا شك في أن سلطانها- مع ما عليه بعض العشائر التي تسكن البلاد الخاضعة لحكمه من عدم الإذعان تمامًا لسلطته- سيكون إذا ألمتْ بتلك الأقطار المحن، حامي حوزة الدين الإسلامي في الغرب بأجمعه.

ونحن نترك البحث في حال هاتيك الممالك الإسلامية، التي اجتمعتْ فيها السلطة الدينية والسلطة السياسية في يد حاكم واحد، طبقًا لقواعد القرآن. وهي البلاد الممتازة التي حفظ الموحدون في مكة لها اسم دار الإسلام. وهو الاسم الذي تميل إليه نفس مصر وتركيا على غير جدوى، حيث التمدن الغربي قد كدر صفاء المذهب الأصلي. ونقتصر على البحث في الإسلام في الجزائر، وفي ممالكنا الأفريقية، حيث يزاحمه الدين المسيحي والحكومة المسيحية. وهي البلاد التي سمَّاها المسلمون دار الحرب، أي دار الجهاد في الإسلام.

والبحث عن الإسلام فيها يدور على ثلاث مسائل: هل أحدث الإنجيل تغييرًا

نسبهم بعلي بن أبي طالب. وسيلة السنوسي كانت إنشاء الزوايا. والزاوية مركز ديني وثقافي، واجتماعي وعسكري. وكان مركز دعوته في الجبل الأخضر، ثم انتقل إلى واحة الجغبوب. وانتشرت الزوايا في نواحي برقة وطرابلس.

[1] الحكومة في الإسلام مدنية تحكم بالشريعة الإسلامية. يظهر هذا من قول النبي ﷺ لأمرائه: "وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك. فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم، أم لا؟" (أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ١٧٣١).

[2] مملكة مراكش: يقصد بها الكاتب المملكة المغربية. فإن العرب يستعملون اسم المغرب، أما غير العرب فيستعملون اسم "المروك" (Morocco)، مع اختلاف قليل في نطقها. واسم المروك اسم محلي مغربي أمازيغي، وهو اختصار لاسم مراكش، التي تعني أرض الله بالأمازيغية. أما مملكة مراكش، فقد اختفت على يدي كروم الحاج، شيخ عرب الشبانات في سنة (١٦٥٩م).

في القرآن؟ وإذا فرضنا أن الإسلام لم يزل محفوظًا: هل حصل تقارب بين المسلمين والمسيحيين، يُرجى معه حصول الامتزاج التام في المستقبل؟ وهل الجهاد- أعني خروج المسلمين عن طاعة حكامهم المسيحيين- لا يزال أمرًا منتظرًا، يهدد فتح هاتيك الأقطار؟

فأما الإسلام، فليس من أهله مَن يَمرُق عنه إلى غيره، وبعيدٌ عن فكر المسلمين تصور هذا الأمر، حتى إنهم لا يجدون لفظًا يعبرون به عن صفات مَن يأتيه. كما أنهم تحيَّروا في وصف المسلمين الذين تجنسوا بالجنسية الفرنسية؛ لأن فيها معنىً من معاني الردَّة[1]. ولذلك اضطروا إلى استعمال لفظ من ألفاظ اللغة الفرنسية، ليطلقوه اسمًا عليهم، فقالوا: "متورني". بإسكان الميم، وضم التاء. ومعناه المنقلبون[2].

ومن الصعب أن يُكيِّف الإنسان حالة مسلم، يريد أحدُ المسيحيين أن ينصِّره، حتى لو شبهَّناه بمسيحي متنور، يريد وثني أن يميل به إلى عبادة الأصنام، لكان التشبيه ناقصًا.

والسبب في استعصاء المسلم على التدين بالنصرانية استعصاء قويًا، احتقاره النصارى، وإعجابه- كل الإعجاب- بكونه من الموحدين. وقد يعتقد بعضهم أن فضل دينهم يفوق على النصرانية بدرجات، يستحيل معها على المسيحيين أن لا يوقنوا بصحة الإسلام، حتى إنهم يتخذون مسالمتنا اعترافًا ضمنيًا منا بتلك الأفضلية. وأن المسيحيين إنما يعبدون الله تعبدًا ذهنيًا.

وليس لدين المسلمين من علامات، ومعدات خارجية[3]. وهم يرون في احتفالات النصارى ضربًا من ضروب العبادة الوثنية، ويُسمون أرباب الإنجيل: أهل الكتاب، ولكنهم لا يجعلونهم في الرتبة التي تلي رتبة المسلمين. بل كثير منهم يمقتونهم أكثر من مقت الوثنيين، لكونهم غيَّروا ما أنزل الله عليهم من

---

[1] ينبغي أن يفهم كلام الكاتب هذا في الظروف التاريخية التي كتب فيها.

[2] لعلهم أخذوا ذلك من قول الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} (الحج: ١١).

[3] لا يوجد ما يماثل الصليب، ولا ملابس الكهنوت.

الدين بعد ما علموه[١].

تلك هي أفكار المسلمين في الديانة المسيحية. وبديهي أنها مانع حصين، يحول بين النصرانية وبين التقدم. فلقد نجح المرسلون في تنصير الأمم المختلفة التي انتشروا فيها، سواء كانت متبربرة، أو متمدنة. ولكنهم لم يروا في طريقهم بلدًا قام في وجههم، وسُدَّتْ عليهم فيه جميع أبواب الفتح، كما لاقوا من المسلمين. لأننا شاهدنا الوثنيين المتمدنين، تركوا دينهم الهمجي؛ لعدم موافقته لما وصلت إليه عقولهم من التهذيب، وكان لهم من تهذيبهم مُعِيْنٌ على تلقي المعقولات المحضة؛ فسهَّل ذلك على المسلمين عرض مذهبهم بطريق التقرير المنطقي، وتمكنوا من إقناعهم.

حتى أن القديس بولس نفسه، كان يلاقي كثيرًا من الوثنيين الذين يتركون آلهتهم؛ لتبينهم كذبها. ويرى من بعض اليونان ميلا إلى أخذ الأمور بالدليل والبرهان.

وقد سهل أيضًا تنصير الوثنيين المتبربرين، بما للمنصِّرين عليهم من المزية في العلم، والأفضلية في سمو الإدراك. ولكن أي منصِّرا وأي حبْر يمكنه أبدًا أن يزحزح المسلم عن تمسكه بدينه! ويجعله يعبد ما احتقرا ويحتقر ذلك الدين المتين، الذي يرى فيه مجده الأعلى! وكيف يمكن لأولئك المنصِّرين أن يُزيلوا من فكره ما تمكن منه ضد الديانة المسيحية إلى الأبد، وهو لا يقبل المناظرة فيها، ولا يُطيق الجدال عنها؟!

ولقد تساءلوا عن إمكان محاربة الإسلام بالعنف والقوة، حيث هو لا يقبل التبدل بالإقناع والحجة، ولكنه ما كان يتيسر للفرنسيين أيام الفتح، أن يُخضعوا المسلمين للدين المسيحي، كما فعل الملك شارلمان[٢]. بل اضطرت الكنيسة إلى

---

[١] لا شك أن القرآن جعل أهل الكتاب أفضل من الوثنيين. يقول الله تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (آل عمران: ١٩٩). فهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. لكن يُذم اليهود؛ لأنهم كفروا بعيسى ومحمد، وكفروا بالإنجيل والقرآن. ويُذم النصارى لكفرهم بمحمد وبالقرآن.

[٢] أصدر الملك شارلمان قانونًا يفرض اعتناق المسيحية على شعوب البلاد التي فتحها.

السكون، كما التزمت جانب المسالمة في هذه الأيام بين الأمم. والمسالمة حكمة منها، ولكنها لا تقبلها بصفة مبدأ من مبادئ الدين المسيحي، بل تردّها ردًّا!

وهكذا كان محظورًا علينا كلُّ قهر في الدين، طبقًا لمعاهدة الجزائر، حيث التزمتْ فيها الحكومة الفرنسية بواسطة الجنرال "بورمون"، أن تحافظ على ديانة رعاياها من العرب وتحترمها[1].

وقد كاد أن يحصل استثناء سنة (١٨٦٨م)، ذلك أن أسقف الجزائر، أخذته الحميَّة، وأرادَ أن يُنصِّر عددًا كبيرًا من المسلمين، فجمع كثيرًا من اليتامى- بعد القحط المهلك الذي ابتليتْ به الجزائر- وعمَّدهم. ولكن الجنرال "مكماهون" حاكم البلاد عند ذاك تدخل، وأبطل هذا المسعى؛ لمخالفته لما تعهدتْ به فرنسا.

ومن عجائب المتناقضات: أن في الجزائر الآن من الكُتّاب، مَن يأسف على ترك تلك الطريقة! ولو أنهم كانوا في عاصمة بلادهم، لاصطفوا بين أشد الناس دفاعًا عن حرية الأديان. فكأنهم يرجون حكومة تسعى في تفريق الأديان بالهدايا، وبذل الأموال من جهة، وتضطهد المسلمين الموحدين في دينهم من جهة أخرى.

ولو أنه قام في مبدأ الفتح قسٌّ ماهر، وساعده أمير يميل إلى انتشار الدين المسيحي من نفسه، أو بتأثير النساء عليه، فجمع ذلك القس إليه كلَّ ساخط على الحكومة والحال الجديد، ووعدهم بالمال وعزة الجاه، لكان لنا سنة (١٨٧٠م) آلاف مؤلفة من العرب، قد تركوا دينهم، وتربوا تربية فرنسية حقا[2].

---

[1] لم تحترم فرنسا تعهداتها، بل وجهت السياسة الاستعمارية الهمجية معاول هدمها إلى المؤسسات الدينية، وعلى رأسها المساجد والمدارس والزوايا. وكانت مدينة الجزائر تضم وحدها (١٧٦) مسجدًا قبل الاحتلال الفرنسي، فانخفض هذا العدد سنة (١٨٩٩م)، ليصلَ إلى خمسة فقط. وأهم المساجد التي عبث بها الاحتلال نذكر: جامع القصبة الذي تحوَّل إلى كنيسة الصليب المقدس، وجامع علي بتشين تحول إلى كنسية سيدة النصر، وجامع كتشاوة حوِّل إلى كنسية، بعد أن أباد الجيش الفرنسي حوالي (٤٠٠٠) مصلٍ اعتصموا به. والحال نفسه في باقي المدن الجزائرية. وتعرضت الزوايا إلى نفس أعمال الهدم والبيع والتحويل، ولقيت نفس مصير المساجد.

[2] ظني أن الكاتب يقول ذلك تهكمًا من السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، ومن غشم المنصرين الذين أرادوا تنصير المسلمين بالقوة، فكانوا كمن يضرب رأسه بالصخر.

فاستعصاء المسلمين على التنصُّر بواسطة المنصِّرين، واستحالة إخضاعهم بالقوة، هما السببان اللذان يعترضان تنصُّرهم.

والمنصِّرون من الكاثوليك، هم أول المعترفين بوجوب العدول عن الوعظ مباشرة. ولكنهم مع ذلك متمسكون برسالتهم، فلم يملوا من الجهاد في سبيلها، ولم تنحط عزائمهم أمام صلابة الإسلام. فأينما نزلوا مهَّدوا الطريق، وآووا الفقراء والمساكين، وأقاموا في خدمة المرضى، ونشروا التعليم بين الأطفال. قال مسيو "سريفاريا":

"ولكنهم لم يحوموا حول مسألة الدين مطلقًا. وهم إنما يزرعون البعد عن الدين، مع كونهم من الأحبار! على أنهم لم ينجحوا في إدخال الدين بين العرب، فقد كانوا من أحسن الوسائل لنشر نفوذ الدولة الفرنسية. والحكومة مخطئة في عدم حمايتهم، والجفاء في معاملتهم، مع أنهم قصروا حياتهم على خدمة الدين. ومع ذلك، فقد خالفوا ضمائرهم، وعملوا على ما فيه منفعة فرنسا، تركًا لما لا يستطاع، ولات حين زمان إصلاح ما فات. فقد انتشر المنصِّرون من الإنكليز البروتستانت بين القبائل، وجعلوا يُقلصون ظل سيادتنا. هنالك ترسل الدولة البريطانية التوراة، تحملها الرعاة إلى تلك البلاد التي فتحها جنودنا مرات متتابعة، كما ترسلهم في جميع أرجاء المسكونة، وعلى الخصوص حيث تخشى تقدم النفوذ الفرنسي"[١].

ولقد بقي الإسلام سليمًا على التمام في الجزائر، إلا أن الإسلام لاحظ كونه محكومًا بمن لا يعتقد بدينه، فأخفى في نفسه ما يضمره له من البغض والاحتقار. ولولا أن قومًا من أصحاب الدين يحركون على الدوام في قلبه عاطفة الإيمان، لأصيب دائمًا بضعف إسلامه مع مرور الأيام.

ولأولئك القوم جمعيات سرية، تعمل دائمًا على تجديد الدين الإسلامي بين جميع الموحدين، وعلى الخصوص بين الأمم التي أخضعها المسيحيون.

ومن المعلوم: أن فتوح العرب، وحكومة المغاربة في أسبانيا بعده، جمعت بين أفريقيا وأوروبا زمنًا طويلا، ولكن انتهى الأمر بأن انزوى الإسلام إلى ما بعد

---

[١] حقا المنصِّرون هم طلائع الاستعمار.

بوغاز جبل طارق، وانقطعت الصلة بين القارتين بطرد المغاربة سنة (١٦٠٩م)[1].

وشَخَصَ الناس إلى بلاد المغرب، كأنها ملجأ للقرآن منيع، لا تصل إليه الأطماع، وأرض بعيدة عن الاختلاط بالمسيحيين. واعتقدوا بأن الدين الإسلامي يصير كأنه في بلاد عرب جديدة، يزاوله الناس على صفائه القديم.

فلما فتحت فرنسا بلاد الجزائر، انتهكت حرمة الإسلام، ورجعت الصلات ثانية بين أفريقيا الإسلامية وأوروبا المسيحية، وانفتح الباب في ممالك الغرب لعدو أشد وقعًا على القرآن من الجنود المجندة، وهو التمدن الحالي. ففطن المسلمون إلى ما أحدق بهم من الأخطار، وأرادوا تمكين الجامعة، وتوحيد الروابط بينهم، وهي عند المسلمين أشد قوة منها لدى غيرهم من الأمم التي تدين بدين واحد؛ لأن القرآن شريعة دينية، وقانون مدني وسياسي.

ومن ذلك نشأت حركة في النفوس، غايتها مقاومة النصرانية بجميع الوسائل الممكنة، وعلى الخصوص مغالبة التمدن الجديد باسم الإيمان.

قال القائد "رين":

"وتأتي قوة هذه الحركة الإسلامية، من تعدد الطوائف الدينية التي نشأتْ أولَ هذا القرن، وعظم شأنها في جميع الأنحاء، وصارَ لها تأثير شديد في قلوب الناس، ولهم دعاة ومريدون، يطوفون البلاد الإسلامية التي لا حدَّ لها، وغير الإسلامية- كدعاة، أو مستطلعين، أو قاصدين للحج. ويصلون بهذه الكيفية بين الأقطار: من مكة، إلى جغبوب، إلى القسطنطينية وبغداد، إلى فاس وتنبكتو، إلى القاهرة، إلى الخرطوم، إلى زنجبار، ثم كلكتا وجاوه. ومنهم التاجر والمنجم، وطالب العلم والطبيب، والصانع والشحاذ، والسائل والمجذوب تصنعًا، أو المأخوذ على غير شعور

---

[1] وقعت مملكة غرناطة، التي كان يحكمها المغاربة، في يد فردناند وإيزابيلا في عام ١٤٩٢م، ولكن لم يتم طرد المسلمين نهائيًا إلا في القرن التالي، ما بين عامي ١٦٠٩ و ١٦١٠م. وهذا يعني أنه كان هناك عدد كبير من المغاربة المسلمين يقطنون في إسبانيا بعد بلوغ الثقافة الأندلسية أوجها، والتي استمرت خمسمائة عام، وذلك في القرن الحادي عشر. وعندما أعاد هؤلاء النصارى سيطرتهم على الأندلس، أخرجوا منها ثلاثين مليون مسلم إلى مصر وشمال أفريقيا. ولم يكون هؤلاء عربًا كلهم، بل كان أكثرهم أسبان مسلمين. أي أنهم أخرجوا أصحاب البلاد الأصليين.

منه برسالته. وكلهم يلاقون صدورًا رحبة، ومنزلة كريمة، بين المؤمنين الذين يحمونهم من النوازل، ويدرءون عنهم تهجم الحكومات".

ونحن لا نريد أن نأتي على تاريخ تلك الطوائف الدينية المنتشرة في الإسلام، كما فعل القائد "رين". بل نكتفي بالإشارة إلى سبب نراه العلة في انتشار هذه الجمعيات في أيامنا. وبعد ذلك نبين المقصد الذي يرمون إليه في الجزائر.

فأما المشايخ المعروفون عند المسلمين، فلا تأثير لهم عليهم؛ لأن العبادة ذهنية، أو هي قلبية، فلا تحتاج لقوّام. كما أنها لا تحتاج إلى مساجد، أو جوامع. ومن أعجب العجب: أنه لا درجات في تلك الجمعيات، مع أنها دينية صرفة. فلا يعرف الناس إلا رئيسًا واحدًا، هو الإمام- أي خليفة النبي (ﷺ). فإليه مرجع السلطتين الدينية، والسياسية[١].

ومن هنا، يسهل على المتأمل معرفة الاضطراب العظيم الذي حصل في المسلمين من فتوحات المسيحيين، ودخول التمدن الأوروبي في بلادهم؛ لأن نتيجة ذلك ضياع السلطة الوحيدة التي يخضع لها الإسلام؛ إذ لم يعد يوجد الآن إمام عام للموحدين.

نعم إن سلطان القسطنطينية[٢] يعتبر نفسه خليفة الرسول (ﷺ)، ويتسمى باسم شيخ الإسلام. إلا أن هذا اللقب في إسناده إليه لقب تشريف ليس إلا، غير معترَف به في الولايات الخارجة عن حكمه. والدول الأوروبية أفرغت جهدها في تحقيره، بعوامل التأثير والتذلل التي ألجأت الباب العالي إليها. فلو لم تقم تلك الجمعيات بحفظ الروابط بين جميع المسلمين، وجمعهم في صعيد واحد، لأصبح المسلمون كقطيع عظيم من الماشية بدون راع.

ومن هنا نعلم: أن كثرة الطوائف الدينية في الإسلام، وكثرة المريدين فيها في هذه الأيام، ضرورة اقتضاها التكاتف على حفظ الدين، والتآزر على صيانة الجامعة بين المسلمين.

وقد كانت هذه الضرورة أشد في الجزائر منها في غيرها من البلدان؛ فإن

---

[١] لا يعرف الإسلام الثنائية التي تحكم فكر الغرب وحياته، بين الدين والدنيا. ولا يجعل للدين رجالا، لهم درجات وكهنوت، ثم لا علاقة لهم بالحكم والسياسة.

[٢] هو السلطان العثماني في تركيا.

الفرنسيين أوجدوا فيها جمعية روحانية إسلامية رسمية؛ لمقصدٍ لم يدم إلا كما يدوم الخيال، هو التأثير على الأهالي بواسطة الدين. ورتبوا لأعضائها مرتبات يتقاضونها من الحكومة، فكانوا شنعة في أعين المسلمين. ولو أنهم بقوا، لتوصلوا في الغالب إلى استمالة بعض الأهالي، ولكن الطوائف الدينية الحرة قاومتهم، وأسقطت مقامهم بين الناس، ونجحت في مقصدها تمامًا

وليس اليوم من كلمة تطاع، إلا إذا كانت صادرة عن أحد رؤساء هاتيك الطوائف. وأولئك الرؤساء يميلون على الدوام إلى الزهد والتقشف، ولهم تعبير في القول، لا يفهم عمال الحكومة منه شيئًا إذا عثروا على بعض ألفاظه. فهم يدعون الناس- تحت طي هذا الطلسم- إلى مقاومة التقدم، ومغالبة التمدن بأقصى المجهود؛ ذلك أنهم أمنوا من جهة تنصر المسلمين، فهو أمر معدوم كما قدمنا. ولذلك أجمعوا أمرهم على مقاومة سير التمدن؛ لكونه ربما أدّى إلى فتور في الاعتقاد عندهم، وهم الذين يحيون روح احتقار النصرانية في النفوس، ويجعلون اجتهادنا في تأليف أهل الجزائر، واستمالتهم إلينا يذهب هباء منثورًا.

ومع انتشار الطوائف الإسلامية في الجزائر، وقوة تأثيرها، فإنها لم تتمكن من منع تغيير الأهالي من حيث هيئتهم الاجتماعية تغيرًا محسوسًا. والعامل في هذا هو الاحتلال الفرنسي كما أشار إليه مسيو "شاتليه" حيث قال:

"تنقسم أهالي الجزائر ثلاثة أقسام: فمنهم الرعاة الرحَّل، وأصلهم من العرب. ومنهم الريفيون أصحاب الزراعة، وأغلبهم ينتمون إلى القبائل. ومنهم أخلاط المغاربة، ومنهم المدنيون وهم التجار والصُّناع، وقد حصلوا على شيء من المعرفة الصناعية، وأصلهم مختلط من المغاربة الذين اختلطوا بالأتراك، وامتزج فيهم أيضًا دم العرب والقبائل" أهـ.

ويختلف تأثير التمدن في الجزائر، باختلاف هذه الطبقات الثلاث. ولكنه أحدث في كل قسم منها ميلا إلى حالة مدنية جديدة. فقد خفف الرحل روحاتهم وجيآتهم. وصاروا نصف رُحَّل. وبعضهم مال إلى زراعة الأراضي الخصبة، في مرتفع الوديان، ومنخفضات الصحراء. وتدرج سكان الأرياف إلى التخلق بأخلاق المدنيين.

وأما هؤلاء المدنيون، فقد تأثروا كثيرًا لاختلاطهم بأصحاب المعاملات التجارية،

ومعاشرتهم لأصحاب الصناعة الأوربية، وتعودهم على الأخذ والعطاء مع أهالي البلاد الغربية، وكثيرًا ما أخذ العربي الذي يسكن المدائن عن التمدن الأوروبي رذائله ومعايبه، وخالف أوامر القرآن، وشرب المسكرات. وهو في الغالب مفرط في تعاطيها، وأكل الأطعمة المحرمة، إلا لحم الخنزير، فهو ينفر منه بأصل فطرته. ومع ذلك فهو لا يزال يحافظ تمام المحافظة على بعض أوامر الكتاب، كصوم رمضان، حتى أن الباغيات يصمن في أماكن فحشهن.

ومع ذلك كله، فإن عوامل التمدن لم تتمكن من إضعاف الاعتقاد في قلب مسلم، وإن زحزحته قليلا عن المحافظة على جميع أوامر القرآن. بل لا يزال الإيمان عندهم تامًا كاملا، خلافًا لما يراه موسيو "شاتليه"؛ فإنه يحسب أن عدد المسلمين الذين لا يؤمنون، ولا يقيمون الفروض- يزداد كل يوم في مدائن الجزائر.

وعندنا: أن هذا القول صحيح بالنظر لترك الواجبات، ولكنا نراه مخالفًا للواقع من جهة ضعف الاعتقادات. فما من مسلم صار غير مقيد في الاعتقاد، بل يجوز أنه أهمل جميع الواجبات، ولكن اعتقاده لم يتحول. ويصح في الإسلام: أن يبقى الرجل مسلمًا، وهو لا يعمل بما يمليه عليه القرآن[1].

ولعمري! لست أدري إن كان هذا التغيير- على نحو ما شرحناه: عنوان تقدم في أهل الجزائر، وأنه رفع من أخلاقهم، وزاد في رغد عيشهم. وعلى الخصوص قلل من بغضهم للمسيحيين!

أنا لا أظن ذلك، فإني وإن سلمتُ بأن بعض قبائل البدو الرحَّل مالوا إلى الزراعة، ولكني لا أرى في انتقالهم من البداوة إلى الزراعة، ومن الزراعة إلى سُكنى المدن والأمصار- موجبًا لتهذيب الأخلاق، ورفع درجة الآداب؛ لأن معيشة القبائل على حالتها الفطرية مهما كان فيها من النقص، هي أشد حفاظًا على الأخلاق، وأعظم باعثٍ علي التمسك بأصول الأدب. فليس من سلام على النفوس، إلا معيشة الرجل بين أهله، بعيدًا عن المدن وما حوته. فالمعيشة في

[1] يدخل الراغب في الإسلام بعقيدة التوحيد، ولا يخرج المسلم من الإسلام إلا بترك ما أدخله فيه، وهو أن يعود إلى الشرك. وأما ترك العمل بالفرائض فهو كبائر الذنوب، ولكنها لا تخرج صاحبها من الملة.

الصحراء ناشفة يابسة، إلا أن ما ضمته الخيام ليس عرضه للتبدد والضياع.

أما إذا سكن العربي في المدينة، وخصوصًا المدن الأوربية، فإنه يكون على مقربة من دواعي اللهو، وتزداد حاجاته، ويطلب القهوة والحلوى، وتميل امرأته إلى الملابس القطنية. ويده لا تقوى على سد هذه المطالب كلها، فيعيش في ضجر مادي، ينشأ عنه ألم أدبي.

ولقد شوهد كثيرًا أن الضنك يشتد على القبائل، بقدر تقربها من المدن الأوربية. فأول القبائل التي خضعت لحكم الفاتحين، واختلطت بأقوامهم، كانت أول القبائل التي لحقها الدمار، وأبادها الاندثار.

وانحطاط الشخص المدني أدبيًا، هو السبب في احتقار ساكن البادية له، أكثر من حالته السيئة التي يعيش فيها.

وليس لفرنسا ثمرة تجنيها من انحطاط رعاياها المسلمين في الجزائر أدبيًا وماديًا. ولهذا نرى الحكومة بحثت عن مداواة هذا الداء، وأرادت تهذيبهم، فأوجدت التعليم الفرنسي عندهم، وأنشأت مدارس للتعليم الابتدائي، وأخرى للتعليم الثانوي، ومدارس للصنائع.

ولكنها ما كانت لتنجح في هذا المسعى؛ لأنه مهما حسنت نوايا المسيحيين، لا يأمنون من حبوط مساعيهم في تمدين الأهالي. وإن شئت قل: إن كل أمر يأتي على أيديهم ممقوت ومرذول. لذلك كان التعليم الفرنسي معيبًا من الأصل، ولم ينجح في شيء، ولم يقلل من نفور الأهالي نحونا. وإليك ما قاله أحد أعضاء جمعية التعليم مسيو "شارفريا" في هذا المعنى:

"إذا أردتَ أن تعرف مقدار بُغض الأهالي لنا، فانظر إلى درجة تعليمهم الفرنسي. فكلما زاد تعليمهم، وجب الحذر منهم".

وقد مكثت زمنًا طويلا أقاوم هذه الحقيقة، التي توجب اليأس وتقطع الرجاء، ولم أرجع عن رأيي، إلا لما رأيت جميع من شاورتهم فيها متفقين على تقريرها.

وقد قال حاكم الجزائر نفسه مسيو "ترمان" في مجلس الإدارة العلي سنة (١٨٨٦م):

"لقد دلتنا التجارب، على أن أكثر الناس عداءً لنا، هم أولئك الذين علمناهم كثيرًا".

على أن الحكومة نفسها، قد اعترفت بعجزها عن تحويل الجزائريين إلى فرنسيين بواسطة التعليم الفرنسي. ولم تتمكن من إحياء التعليم العربي، وإن أكثرت من فتح المدارس. كما أن جميع الصنائع والحرف الأهلية، قد اندثرت على مقربة من مدارسها الصناعية والفنية التي أنشأها.

والذي نستنتجه من هذه التجارب التي لم تُجْدِ نفعًا، هو أن مسألة التقريب بين العنصرين الأوربي والأهلي، لا يمكن حلها بمعرفة الحكومة؛ لأن يد الإدارة يد ثقيلة، لا تصلح لعمل لطيف مثل هذا، وحِدَّةُ الموظفين مانعة من التبصُّر، فلا صبر لهم على انتظار الثمرة الصغيرة زمنًا مديدًا. وبالجملة، فإن كل وسيلة تتخذ في سبيل التقريب الذي نبحث فيه رديئة.

نعم، قد يمحو الدهر بعض المتناقضات، ويولد بعض المتشابهات، لكن لن يحصل اتحاد تام بين العنصرين مدى الأبد. وكمْ من أوهام توهمها بعض الناس في مسألة الجزائر، يُضحكنا اليوم تذكار بعضها! كالذي تخيله مسيو "دولانجل"، أيام كتب تقريره على مشروع استشارة الأمة سنة (١٨٦٥م)، حيث ذكر فيه هذه الجملة:

"ولم يبقَ إلا زمن يسير، حتى تفتخر الأمة التي بلغت عواطف الشرف فيها الدرجة القصوى، بالاشتراك في أعمال الأمة الفرنسية، التي لها في العالمين مقام رفيع".

ومن الخيال أيضًا، ما ذهب إليه مسيو "لوروا بوليو"، من إمكان التوصل لجعل العرب رعيَّة صادقة، من المخلصين في الولاء.

فمستغرب أن يفكر أولئك القوم في رجاء هذه الفوائد من الجزائر، وفي أن يصل أهلوها إلى قرْب، يحملهم يومًا من الأيام على حَب الوطن الفرنسي. ولو صح هذا لكان أمرًا خارقًا للعادة، لم يسبق له مثيل في التاريخ. فإنا نعلم أن اختلاط العنصرين ببعضهما دام تسعة قرون في بلاد الأندلس، من سنة (٧١٠م)، إلى سنة (١٦٠٠م). ولم نشاهد مع ذلك أن وطن الغالب صار وطنًا للمغلوب. ومع ذلك، فالوهم عندنا متسلط، في أن نطالب الجزائريين بما نطالب به الفرنسيين من الولاء والإخلاص!!

اتفق سنة (١٨٨١م)، أنه في مبدأ ثورة أبي عمامة[1]، قام أحد القواد، وكان من أشدهم موالاة لنا، وتوجَّه برجاله إلى جنوب ولاية حوران لقتال المنشقين. فلما رجَع علِم بأن قبيلة خرجت عن الطاعة، ورفعت خيامها، ورحلت بنسائها وأولادها وماشيتها، فذهب إلى مراكش في طلبها. وعاد بها بعد سنة من الزمان، وأقنعها بوجوب الطاعة والخضوع، فأحيل إلى المحاكمة أمام مجلس عسكري، بحجة أنه خان الدولة الفرنسية.

وفي الواقع: اتهم بأنه لم يخلص لنا الود؛ إذ كان يلزمه- على رأيهم- أن يترك لنا عائلته وأملاكه. ولكنا نعلم أن كثيرًا من الفرنسيين، لا يودون أن يكون مثل هذا الطلب محكًا لوطنيتهم، ومعيارًا لمعرفة صدقهم لبلادهم.

ولسنا نودُّ ذكر جميع الخيالات التي تصورها الباحثون في طريقة التقريب؛ لأن ذلك شرح يطول. فمنهم من ذهبت به الأحلامُ إلى تصور الجزائر آهلة بعرب يلبسون القبعة، ويلتحفون السترة الصغيرة (جاكيت)، وقد نسوا لغة الوحي المقدس، وجعلوا يرتلون القرآن بلغة الفرنسيين. نقلا عن ترجمة "كزيميرسكي"!

ورأينا أن البَوْن يبقى شاسعًا بين المسلم والمسيحي، وأن من السعود أن تقرب الشقة بين الأوروبي والعربي، وأن هذا التقريب يحصل من نفسه. وهو ينشأ من التجاء المستعمرين الفرنسيين إلى العرب في حرث الأرض وغرسها.

ولو أن المستعمرين يعاملون العرب برفق ولين، ويُقسطون. لأفادوا في هذا السبيل، أكثر مما أفادت اللوائح والقوانين. إذ لست أدري، لِمَ يكون الرجل منهم في باريس من الأحرار المتطرفين، فإذا جاء الجزائر، نزعت نفسه إلى إحياء أشد الأزمان في حكم الشرفاء تعسفًا وإجحافًا؟!

وعندي أن أليق الناس بالعمل المطلوب هم المرسلون، لا الكاثوليك. فلا تترقى الأهالي في معارج المدنية، مع بقائهم على دينهم، إلا بهم. نعم، إن الترقي

[1] قامت القبائل الجزائرية بثورات كثيرة، استعمل الاستعمار الفرنسي الوحشية في قمعها؛ فبعد انتفاضة أولاد سيدي الشيخ بزعامة بو عمامة سنة (١٢٩٨هـ/١٨٨١م)، أخضعت فرنسا المناطق الصحراوية، وأعلنت ضم واحات المزاب، وساد الهدوء البلاد الجزائرية حتى الحرب العالمية الأولى.

يكون بطيئًا، ولكنه يصح أن يسمى تقدمًا. ودليلنا على ما نقول، حالة القبائل التي توطنها المرسلون، فإنهم توصلوا مع أهلها إلى درجة عظمى.

مضى على الاحتلال الفرنسي للجزائر نصف قرن، لم يؤثر فيه على الإسلام[١]. كذلك تفانت أمواج التمدن الأوربي، تحت أقدام مقاومة الطوائف الدينية في تلك البلاد. ولو أن تلك الطوائف، تعرف من نفسها اقتدارًا على قذفنا في البحر؛ لتقيم بعدنا مملكة إسلامية جامعة (أي بين السلطة الدينية والسلطة السياسية)، لاقتحمت الأخطار، وقلبت الحكومة المسيحية. ولكنهم يرون الغرض بعيدًا؛ لذلك هم يقصرون مساعيهم على إحياء روح البغضاء في نفوس تابعيهم، مما يكفي لتزكيته غالبًا، تلاوة بعض الجمل التي ملئت سُخْطًا على النصارى.

على أن جميع رؤساء الطوائف المذكورة، ليسوا واحدًا في مقاومة التمدن الغربي. بل يحذو بعضهم حذو مَن يضع الشرع ليتقيد به غيره، ويستفيد من مكتشفات ذلك التمدن التي حرّموها على المرابطين. وأكبر الطوائف، وأشدها تمسكًا بمبدئها، هي طائفة السنوسية. وهي التي يُخشى منها أكثر من غيرها. ولها شيخٌ ذو دهاء. ينظر إليه البعض كجامع وحدة الإسلام[٢].

---

[١] احتلت فرنسا الجزائر سنة (١٨٣٠م). ومن هنا نعلم أن الكاتب وضع هذه السطور بعد سنة (١٨٨٠م).

[٢] هو الشيخ المهدي محمد بن علي السنوسي (١٢٦١-١٣١٩هـ/١٨٤٤-١٩٠٢م). خلف والده في قيادة الدعوة السنوسية وعمره ستة عشر عاماً. وقد تميزت شخصيته بعدة ميزات، فقد كان على جانب كبير من التقوى والورع والفقه، وله شخصية مؤثرةً وكان أبرز ما فيه صفاته القيادية، التي رعاها ونماها فيه شيوخه ومؤدبوه، حتى أصبح وهو في هذه السن قادراً على قيادة حركة كبيرة، ينتظر التاريخ دورها. وقد توسع في إنشاء الزوايا كثيراً، حتى وصلت عام ١٨٨٨م إلى مئة زاوية. وظلت الزوايا تحافظ على خطها الفكري الذي وضعه والده، فكانت بمثابة الجامعة، يؤمها الشباب ليتلقوا فيها أنواع العلوم الشرعية، إلى جانب فهم الطريقة السنوسية، وبالتالي نشرها في شتى البقاع التي وردوا منها. واستطاعت الحركة السنوسية أن تقف حجر عثرة أمام المدّ التبشيري في إفريقيا كلها، وخصوصاً في القبائل الوثنية التي استوعبتها الحركة السنوسية. أما الجانب العسكري الجهادي، فقد اهتم به محمد السنوسي اهتماماً كبيراً، وتطوّر على يديه تطوراً كبيراً، وأصبحت جغبوب ثكنة عسكرية مستحكمة، كما أن الزوايا الأخرى المنتشرة في المغرب

وهو رجلٌ، رأي أنه يضعف عن مقاومة الحكومة الفرنسية في الجزائر مقاومة صريحة، فعدل عن فتح الجزائر، إلى فتح أرض غيرها للإسلام. وعلِم سيّدي السنوسي ما أحزن المسلمين من حكم المسيحيين، كما علم موسى الذي نجاه الله مما أصاب قومه من فرعون، وأراد خلاصهم من يد الكفار، وأن يقودهم من دار الحرب، إلى دار الإسلام. فناداهم: أن اخرجوا من دياركم. إن أرض الله واسعة الفضاء.

وانتقل إلى أرض فسيحة الجوانب، خالية من السكان، فلحق به كل مسلم، لا يرى له بقاء مع المسيحيين، ويود الهرب من معاشرة الكافرين. ولكن ليس في تلك الأرض عسل يجري، ولا ضرع يدرُّ كما كان في بلاد الكنعانيين. بل هي صحراء ليبيا الشاسعة، التي اختارها السنوسي؛ ليهجر العربُ إليها بلادَ الجزائر وتونس، وطرابلس ومصر، والبوسفور ذي الرياض والمناظر.

ومع ذلك، فالنداء يُلبى كل يوم من جميع بلاد الإسلام. ويقيم الواردون في تلك الرمال من غير سُخْط، ولا ضَجَر. كما ترك بنو إسرائيل مصر في غابر الأزمان. وما منهم من يأسف على الكسكو[1]، الذي كان يأكله بنهمة تحت حكم الذي كفر.

وقد أخذت الصحراء تتحول بأعمال المهاجرين، ففيها اليوم آبار ونخيل. ومثلهم في ذلك مثل قبائل العباديين، الذين هاجروا إلى "مزاب" في الصحراء، وعمروها[2].

وفي اجتماع المسلمين- الذين لم يرضهم حكمنا- حول جغبوب خطرٌ، أشار

العربي خصوصاً استمرت على الاهتمام بتعليم الرماية والاستعداد لأي خطر قد يهدد الدعوة.

[1] الكسكو: كان الغذاء الرئيس المتوفر لدي الفينيقيين، يعرف باسم كسكسو (Couscous). وهو عبارة عن سميد، مصنوع من الحنطة والشعير المجروش.

[2] وادي مزاب في قلب الصحراء الجزائرية. وقد ساهم في إقامة هذا الوادي ومدنه كل من العقيدة والبيئة والتاريخ، ففي هذا المكان البعيد عن العمران، والذي يقع بين جبال جرداء صخرية، تكونت على مر الأيام هذه المدن، تمسك أفراد هذا المجتمع بما فروا من أجله إلى هذه المنطقة النائية. وهم من قبائل العباديين العربية.

إليه وكلاؤنا في طرابلس. ومن الواجب على الدول الأوربية أن تأخذ حذرها منه.

أما الجزائر، فهي ترى فيهم عدوًا لها. وما دام الأمر بالنظر إليها دائرًا بين عدوين، فهي تفضل بُعْد أولئك القوم؛ لأنها تكون ببعدهم عنها آمنة مطمئنة من أعمال قوم متعصبين. ومع هذا، لو قدِّر لفرنسا أنها احتاجت في إحدى حروبها الأوربية إلى الاستعانة بجيوشها الأفريقية. وانتهزت إحدى الدول ضعفها في أفريقيا، فحركت ضد حكومة المسيحيين طائفة السنوسي والطوائف الأخرى، فإنه يُخشى من حدوث ثورة تسوء عقباها في الجزائر.

ولكنا نرى في هذه الحالة، وهي أسوأ حال يمكن تصورها بالنسبة إلى الحكومة الفرنسية: أن انشقاق الرؤساء، وأحقاد الطوائف، تمنع الثورة من أن تمتد إلى جميع أرجاء البلاد. فالفوضى علة الإسلام الباطنية. وهي أيضًا في الغالب، علة الضعف عند جميع ولد سام، فإن إسماعيل يضرب خيامه على الدوام تجاه مضارب إخوته[1].

ولولا الانقسام الداخلي، والاضطرابات التي حدثت بين المسلمين في غابر الأزمان، لما نجت النصرانية. وهذه الأسباب نفسها تضعف العزيمة عن القيام بتوحيد كلمة الإسلام، ولولاها لما حفظت فرنسا أملاكها مع ما ارتكبته من الخطأ، وما تأتيه من الأغلاط في أفريقيا الشمالية. وهي أملاك ستبلغ بمقتضى النمو الطبيعي عمًّا قليل عشرين مليونًا من المسلمين.

والخلاصة: أنه لا يُخشى من ثورة عامة في الجزائر، ولكن لا تزال تلك البلاد معرَّضة للقلاقل الثانوية. وتنشأ هذه الاضطرابات بغير المؤثرات الدينية، فكثيرًا ما تثور القبائل من نفسها، ورغمًا عن نصائح الرؤساء، ومشايخ الطرق؛ لأنهم واقفون تمام الوقوف على ما نحن عليه من الاقتدار في كبح جماحهم. ولذلك فهم لا يرمون إلى حركة عاقبتها وبال عليهم، وعلى التابعين لطوائفهم.

بل إن أكبر أسباب الثورة في الجنوب، رغبة رؤساء القبائل في استرجاع امتيازاتهم؛ لأنهم من بقايا أولئك القوم الذين سادوا قديمًا في البلاد. ومن جهة أخرى: ضنك الأهالي، وخطأ الموظفين في إجراء مقتضى بعض اللوائح والقوانين.

---

[1] التكوين ١٦:١٢ "وأنه يكون إنسانا وحشيًا. يده على كل واحد. ويد كل واحد عليه. وأمام جميع إخوته يسكن".

ومع ذلك كله، فإنا نرى أن كل ثورة بدأت، لا تلبث أن يعزوها أصحابها إلى مصدر ديني، فينادون بالحرب المقدسة، كما ينادون بأحد الرؤساء الدينيين ذوي النفوذ قائدًا عامًا لحركتهم، وإن عارضَ وأبى.

ومن عادة تلك الحركات أنها تبدأ قليلة الأهمية، ولكنها تعظم، ويكبر شرها بخطأ الموكلين بإخمادها. ولو أن الحكومة لاحظت جانب العدل والحكمة في إدارة الأهالي، وألغت الامتيازاتِ القديمة التي لرؤساء القبائل تمامًا، واختطت السكك الحديدية في جنوب البلاد، وأصلحت من نظام الجيش؛ لقلت حركات الثورة في بلاد الجزائر. وهدأ المسلمون من شواطئ البحر البيض المتوسط، إلى شواطئ نهر النيجر.

خاتمة

نستخلص مما تقدم: أنه يجب على الدول الأوربية- التي تميل إلى التوسع في الاستعمار- أن تتعرف ديانة رعاياها، أو أصدقائها المسلمين كما ينبغي؛ إذ الدول لا تزال حتى الساعة- على اعتقادها الذي كانت عليه أيام القرون الوسطى، وهو أن الإسلام صورة من صور الديانة الوثنية. اللهم إلا نفرًا قليلا من المستشرقين، الذين لا تأثير لآرائهم في السياسة. مع أنه لو جاز عقلا أن ترتب الديانات التي دانت بها المخلوقات، لوجب جعل الإسلام أولها بعد ديانة التثليث؛ لأنها- أي الديانة المسيحية- بلا شك أرفع منه من جهة المعقولات[1]. فلا يجوز للمسيحيين أن يرموا الإسلام بالوثنية، على ما بينه وبين النصرانية من جهات الاتفاق، حتى

---

[1] هذا رأي للكاتب لا نوافق عليه. ونراه بعيدًا عن الصواب. فأي معقولات في النصرانية هي أرفع منها في الإسلام؟ هل هي العقيدة النصرانية التي تطلب من الناس صراحة أن يلغوا عقولهم، وأن يؤمنوا قبل أن يفهموا، ولا يعملون عقولهم ليؤمنوا؟! إن الكنيسة بأسرارها غير المعقولة، وطقوسها، وعقائدها- ضد العقل. فلا يمكن لعقل بشر أن يفهم التثليث، ولا سرَّ القربان المقدس، وحضور المسيح بلحمه ودمه في التقدمة، واعتقادهم بأنهم يأكلون جسده، ويشربون دمه بالحقيقة، وليس بالمجاز! ولا يمكن أن نفهم كيفية حضور الله عقد الزواج كما يعتقدون! ولا يمكن أن نفهم تقديسهم لخشبة الصليب، ولا نفهم حكمة لكون الديانة مراتب وكهنوت! ولا نفهم كيف بطلت الخطيئة بموت المسيح، مع أن الخطايا والآثام تحيط بنا ليل نهارا ولا نفهم كيف افتدى المسيح البشر، مع أن كل إنسان مسئول عن عمله! ولا نفهم كيف اتحد البشر بالإله، مع أنهما طبيعتان متغايرتان! ولا نفهم كيف ينزل الإله عن كرسي عظمته، ويحل في بطن امرأة، ثم يولد، ثم يأكل ويشرب وينام، ثم يبول ويتغوط، ثم يُطارد فيتخفى، ثم يضربه أعداؤه، ويصلبونه على خشبه وهو ينوح!...إلخ.

صحَّ لـ"حنا ماسين" أن يقول: إنه بدعة مسيحية[١].

نعم، لا يقول المسلمون بإلوهية ابن مريم. ولكنهم يُجلونه كأكبر الأنبياء: ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (آل عمران: ٥٥).

ويعترفون بأن مولده من المعجزات: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً {١٦} فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً {١٧} قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً {١٨} قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً {١٩} قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً {٢٠} قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً {٢١} فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً {٢٢} فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً {٢٣} فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً {٢٤} وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً {٢٥} فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً {٢٦} فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً {٢٧} يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً {٢٨} فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً {٢٩} قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً {٣٠} وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً {٣١} وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً {٣٢} وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً {٣٣} ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ

---

[١] كلام عجيب بعيد عن التحقيق. فإن القول بأن الإسلام بدعة نصرانية، كالقول بأن الولايات المتحدة الأمريكية دولة خاضعة لنفوذ دولة جيبوتي، أو القول بأن الشمس تستمد ضوءها من القمر. فإن الإسلام تام كامل بنفسه، مستغن عن غيره، بل إن الأديان الأخرى وأصحابها يأخذون من الإسلام. والإسلام نفسه هو ناقد لكل ما عداه، مبين عواره، كاشف نقصه. كما قال الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} (المائدة: ٣). وقال أيضًا: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ} (المائدة: ٤٨).

{٣٤} مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ {٣٥}﴾ (مريم).

كذلك يعتقدون أن جبريل هو الملك الذي نزل بهذه البشرى، كما أنه هو صاحب الوحي بالقرآن. ويكرهون اليهود لأنهم اضطهدوا المسيح، وأرادوا أن يقتلوه. ولا يعتقدون بموته، كما تدل عليه آية: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً {١٥٧} بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً {١٥٨}﴾ (النساء).

وقد التفت الأمير عبد القادر الجزائري[١] إلى ما يوجد بين الدينين من التقارب، فخال له إمكان التوفيق بينهما[٢]. وكان من ذوي المدارك السامية. قال: لو أصغى إليَّ المسلمون والمسيحيون، لأزلت من بينهم موجبات التنافر، ولأصبحوا إخوانًا في الظاهر والباطن.

وكان يُشبِّه الأنبياء الثلاثة- الذين قالوا بوحدة واجب الوجود: بثلاثة أخوة من أمهات متفرقات[٣]. (راجع كتابه نداء الغافلين)[١].

---

[١] الأمير عبد القادر الجزائري: هو الشيخ عبد القادر بن محيي الدين الحسني، ولد سنة (١٢٢٢هـ/١٨٠٧م)، قاد الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، حقق انتصارات متلاحقة على الفرنسيين، ونظم دولته على أحكام الشريعة الإسلامية. خدعه الفرنسيون فأسروه وسجنوه، ثم أفرج عنه، فاستقر بدمشق. وهناك اشتغل بالتدريس في المسجد الأموي. وفي عام (١٢٧٦هـ/١٨٦٠م) تتحرك شرارة الفتنة بين المسلمين والمسيحيين في منطقة الشام، ويكون للأمير دور فعال في حماية أكثر من ١٥ ألف مسيحي، إذ استضافهم في منازله. كان داعية سلام وتآخي بين مختلف الأجناس والأديان. توفي بدمشق سنة (١٣٠٠هـ/١٨٨٣).

[٢] لا يقبل الإسلام توفيقا بينه وبين دين آخر؛ لأنه كامل تام بنفسه، مستغن عن غيره. وإنما يدعو إلى التقارب بين المسلمين ومن لم يعادهم من أهل الكتاب في التعامل والتواصل. كما يقول الله سبحانه: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة: ٨).

[٣] قال رسول الله ﷺ: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة. والأنبياء أخوة لعلات. أمهاتهم شتى، ودينهم واحد" (أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب {وَاذْكُرْ فِي

ولكن لا تُمنِّ النفسَ بتحقيق ما خطر ببال ذاك الأمير؛ فإن الأحقاد التي تتولد بين أعضاء العائلة، هي التي لا مردَّ لها؛ والتشابه بين بعض القواعد، لا يسدُّ ذلك الخرق العظيم، الذي انفرج بين المسيحيين والمسلمين. فقد يجوز أن يُقلع المسيحيون عن تجاهلهم للإسلام، ويعترفون بأنه دين قريب من دينهم. ولكن المسلمين لن يقبلوا أن يكون معنى التثليث غير تعدد الآلهة، ولا يعتقدون بأن خطأ آدم هو رأس خطايا بنيه، وأنه السبب في ذنوبهم، ولا يقولون بأن المسيح تجسم في صورة الإنسان[٢]، ولا بأنه افتدى النوع البشري بنفسه. ويقول جميع علماء التوحيد عندهم: إن جعل المسيح ابن الله، لا فائدة فيه إن كان الوالد والولد إلهًا واحدًا، ومتناقضٌ إن كان كلٌ إلهًا قائمًا بذاته.

على أن علماء اللاهوت المسيحيين مختلفون فيما إذا كان التجسيم يحصل لولا خطيئة آدم كذلك.

لا ينبغي لنا أن نعلق الآمال، بالوصول إلى تحوُّل رعايانا المسلمين في الجزائر إلى فرنسيين. بل يجب علينا أن نجتهد في أن نعيش معهم على ما يلزم من المسالمة والموادعة. وهو حل سهل بسيط، لست أدري لِمَ أهمله الباحثون، وقلَّ الإقبال عليه. كما أنني لم أقف على السبب الذي دعاهم إلى الحكم بأنه ليس لمسلم الجزائر، إلا أن يتحول، أو أن يفنى.

وفي الواقع: إن الفرنسيين يفرحون بالتحول؛ لكونه يلائم ميلهم إلى إيجاد الوحدة في كل شيء؛ فكل موظف من الفرنسيين، يحلم أن تصير مدينة الجزائر مثل باريس، مع ما هي عليه من اختلاف أرضها ومناخها وسكانها؛ ولذا اعتادوا على أن يعدوا من التقدم، صيرورة بعض القرى مختلطة، وتحولها بعد ذلك إلى بلاد، لا فرق بينها وبين البلاد في فرنسا.

وهي ملاحظات تافهة، تمنع الناس من الوقوف على حاجات الجزائر الحقيقية.

الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً} (مريم: ١٦)، ٣٢٥٩. ومسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى ﷺ، ٢٣٦٥).

[١] ذكرى العاقل وتنبيه الغافل: رسالة كتبها للأكاديمية الفرنسية عندما انتخبته عضوًا فيها.

[٢] لا يقول الإسلام بأن المسيح هو الله متجسدًا في بشر، كما هي عقيدة النصارى. وإنما ذلك التجسد بين الإله والبشر هو من العقائد الوثنية.

أما منح الجنسية الفرنسية للأهالي، فإنه لا يفيد إلا في بعض الشؤون الإدارية المحضة. ذلك لأنه يوجب بعض تغيير في الصورة، ويسمح للتقارير الرسمية بتجسيم الأعداد، ولكنه لا يجعل الجزائريين وطنيين فرنسيين. ومع أن معاهدة الجزائر لا تسمح لنا بفرض جنسيتنا عليهم، فنحن لا نفتأ نعرضها كأنها امتياز يختص به قوم دون آخرين، وكأننا نظن أن المسلمين يعتبرون من الامتيازات، ما يحول بينهم وبين العمل بمِقتضى ديانتهم!

ومع هذا، يرى مسيو "روسل": أن في تجنيس الجزائريين بالجنسية الفرنسية حلا للمسألة، وأن الاختلاط يحصل مع الزمن؛ فيتحول السواد الأعظم حتى يصير فرنسيًا، وتضيق البلاد على من يخرج عن الجمهور؛ لتغيرها وتحول نزعات الأهالي، فيضطرون إلى التحول إلى منزل أرفع شأنًا، وأعلا مكانًا، أو الهجرة.

وعندي: أن هجرة القبائل إلى الصحراء جنوبًا وهْمٌ باطل، كالقول بإمكان مضايقة الجزائريين؛ فينزحون عن البلاد رويدًا. أما انقراض الأهالي شيئًا فشيئًا، كلما دخل التمدن الأوروبي بلادهم، فنحن لا نصدقه إلا قليلا؛ لأن احتكاكهم بالمتمدنين ربما قلل من وسائل العيش لديهم، ولكنه لا يؤثر في وجودهم، بل لا يزالون يتناسلون أكثر من الأوروبيين.

ونضيف على ذلك: أن المسكرات التي استعملها الأوربيون للتعجيل بالإجهاز على وجود بعض الأمم المغايرة لهم، لا تؤثر عند أهالي الجزائر؛ لأنهم يمقتونها مقتًا شديدًا.

إذن، وجبَ علينا أن نعيش في الجزائر بجانب سكانها وفاتحيها الأقدمين، وأن نقلع عن التطلع إلى التحويل، أو التجنيس. فكلاهما وهمٌ وخيال. ولا خوف من هذا، بل الخوف يأتينا إذا أوجبنا عليهم التجنس بجنسيتنا، فنالوا ما لنا من الحقوق السياسية.

ولو تنزل حكامنا إلى تعرف أمة الجزائر التي يجهلونها، أو يعرفونها على غير الواقع، وعملوا على مرضاتها ببعض ما تميل إليه، وتخفيف شيء من أثقالها- لانتفى الخوف منها، وزال خطرها، وتصير أعظم مساعد على الاستعمار.

ولَرُبَّ معترض يقول: إن تلك سياسة مبهمة. فنجيب بأنها كذلك. وهو مقصود؛ لأن السياسة المرتبة على قواعد ثابتة، وأصول معروفة من قبل، أضرت

بالجزائر أكثر من سياسة التجارب بحسب الظروف والأحوال. غير أنه يجب مع ذلك، أن تبنى السياسة المطلوبة على مبدأ واحد، يُتخذ أساسًا لها، وهو أن تكون مضادة لليهود على خط مستقيم، ففي ذلك ضمان السلام والأمن في تلك البلاد؛ لأن ما أتاه مسيو "كرميو"، من جعل اليهود كلهم في الجزائر رعايا فرنسيين، كان شؤمًا على الدوام.

وما شؤمه آتٍ من أن العرب اشمأزت لحصول اليهود على ما لم يحصلوا عليه، كما ذهب إليه بعضهم. بل هو آتٍ من أن ذلك العمل، أوجب إطلاق السراح لقوم، يرى العرب أنه كان من الواجب بقاؤهم تحت سيطرتهم، وخالف ما في نفوسهم من عظيم الاحتقار لليهود. ومكّن هؤلاء من الانتقام لما أصابهم من المسكنة في سالف الأزمان.

أما العرب، فهم يأنفون من التجنس بالجنسية الفرنسية؛ لكون ذلك يُلجئهم إلى ترك دينهم- كما قلنا. ولكنهم يبغضوننا لأنا منحنا هذا الامتياز لأناس، اعتادوا أن يروهم دون أقدامهم.

وقد وصل تغطرس اليهود في الجزائر اليوم، إن لم نقل وقاحتهم، إلى حدٍ بعيد، بحيث صار الخصام قريبًا بين الفريقين. فالمسلمون لا يطيقون احتمال ما احتمله المسيحيون. وقد أزفتْ الساعة التي يقومون فيها جمعاء؛ ليعيدوا بني إسرائيل إلى ما كانوا فيه من الخضوع والامتهان، ويكون الوقت قد فات لإرجاع اليهود إلى ملتهم. وقد لا يسلم المسيحيون من محن الجزائر.

ولقد نستخلص من أبحاثنا هذه أمرًا آخر، بالنظر إلى سياستنا في أفريقيا الوسطى. وهو أمر سهل النوال، ذلك أننا لا نشير على فرنسا بالتحالف مع المسلمين، وإن كانت هذه هي السياسة التي رآها فرنسوا الأول[1]. ولكننا نرى أنه

---

[1] فرنسوا الأول (١٤٩٤-١٥٤٧م): هو ملك فرنسا (١٥١٥-١٥٤٧م). ساهم في الدفع بحركة النهضة في فرنسا. وعقد مع السلطان سليمان القانوني معاهدة ودية سنة (٩٣٤هـ/١٥٢٨م)، حددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التي سبق أن منحها سلاطين دولة المماليك الشراكسة للفرنسيين، وكفلت المعاهدة الجديدة لتجار فرنسا ورعاياها الأمن والسلامة على أرواحهم وأموالهم ومتاجرهم، في المدة التي يمكثون فيها في أراضي الدولة العثمانية، وتعطي لهم الحق في التنقل بحرية برًا وبحرًا، وممارسة التجارة، دون أن يمسهم أحد بسوء،

يجب عليها معاملة الإسلام في أفريقيا بما يسعها من المحاسنة والتجمل. فقد رأينا قبائل الفولبوسيين والخواصة، أوصلوا نفوذهم إلى تلك الأقطار الشاسعة التي تكتنف أملاكنا في الكونغو، فساروا سيرًا متتابعًا من شادو إلى خط الاستواء، وأدخلوا الإسلام أينما حلوا.

ومن الصعب علينا، إن لم نقل من المستحيل، أن نوقف تيار هذه الحركة العظيمة. فلنجتهد في الانتفاع منها بقدر الإمكان. ولنمتنع من التداخل فيما يحصل بين الأمم الإسلامية والوثنية من الانحلال والتكوين. بل علينا أن نراقب هذه المعامع[1] بين تلك الشعوب، ولنترك الفولبوسيين يختطون من البربر ممالك على النسق الفطري القديم، ولنَحْذُ حذو سلاطين المسلمين، فنضيف حمايتنا إلى حمايتهم على أولئك القوم المنحطين، ولنحذر على الخصوص من الوقوع في خطأ سياسة الاستعمار. وهو اعتبار دائرة النفوذ مجالا للكسب والأعمال.

ولو عارض قوم بأنه لا ينبغي أن يكون هذا شأن فرنسا المسيحية، وأنه يجب عليها أن تمانع جهدها انتشار الإسلام حول أملاكها في أفريقيا، لتحصنتُ في الردِّ عليه برأي الكادينال "هرجوتر". وهو أن تاريخ الكنيسة، يعتبر أن فناء الأمم الوثنية في الأمم الإسلامية، من المقاصد الإلهية المحتمة.

قال الكاردينال:

"على الإسلام أن يُهيئ الأمم العريقة في الهمجية، وأخصها الأمم الإفريقية، إلى التمدن. فإنها بما فطرت عليه من الانحطاط في الإدراك، وما تعودته من الشهوات، محتاجة إلى التحول عن الوثنية إلى الإسلام؛ ليتسنى تحويلها من الإسلام إلى النصرانية".

لكن: أنَّى لنا في الوصول إلى نقل تلك الأمم من القرآن إلى الإنجيل؟ وكيف يمكن أن يصير الوثنيون عبادًا للمسيح، بعد اعتناق الإسلام، وهو الدين الذي

أو يتعرضوا لمضايقات من قبل السلطات العثمانية. ونظمت المعاهدة إقامتهم وطريقة معيشتهم في أحياء خاصة بهم، ونصت على عدم المساس بكنائسهم أو فرض ضرائب عليها.

[1] المعامع: جمع مَعْمَعَة بوزن المزرعة. وهو صوت الحريق في القصب ونحوه، وصوت الأبطال في الحرب (مختار الصحاح، ص٦٤٢).

يتمكن من القلوب، فلا يفارقها؟!

هنا يختلط علينا المقصد الإلهي، فلا ندرك مرماه.

على أنه لو لم يكن للإسلام من فائدة، إلا تحويل عبدة الأصنام من وثنيين إلى موحدين، وترقية أخلاقهم وملكاتهم، لكفى بذلك داعيًا إلى معاملته بسياسة التلطف والاعتدال، جريًا على قاعدة العمل بأخف الضررين.

ملحقات

(الملحق الأول): أفكار المسيحيين في القرون الوسطى، عن النبي (ﷺ) والدين الإسلامي- كتاب البابا بي الثاني، إلى السلطان محمد الثاني.

(الملحق الثاني): كتاب سان أوغسطين إلى الكونت بونيفاس.

(الملحق الثالث): مقابلة بين الصيغة التي يقولها مسيحي يعتنق الإسلام، والتي يقولها مسلم يتنصر.

(الملحق الرابع): قتلى مراكش- مقابلة القديس فرنسوا داسيز مع سلطان مصر في معسكر دمياط ١٢١٦م.

(الملحق الخامس):تعدد الزوجات في الإسلام.

(الملحق السادس): مقدمة الشيخ الشعراني.

(الملحق السابع): البشارة بمحمد (ﷺ) في الكتاب المقدس.

(الملحق الأول)

أفكار المسيحيين في القرون الوسطى عن النبي (ﷺ) والدين الإسلامي

لو أردنا أن نكتب كل شيء في هذا الموضوع، لوجبَ أن نُنشئ بابًا مطولا؛ حتى نوفّيَه حقه؛ لأنه مع أهميته، لم يلتفت إليه أحدٌ من الكتّاب.

وإذا قارنا ما كتبه كل فريق منشورًا في الكتب، وما قاله الفريق الآخر، يمكننا أن نفهم السبب في ذلك التخيل الغريب، الذي تخيله القصاصون، بل والمؤرخون عن الدين الإسلامي. فجميع ما تصوروه في تلك الأعصر، يشتمل على بعض الأفكار، وإن ظهر لنا أنه خال عن المعنى.

وذهب مسيو "بيجونوا" إلى أن السبب في كثرة الأقاصيص، والحكايات الخرافية التي ابتدعت عن آلهة المسلمين، هو تشعب طوائف ذلك الدين.

وهو تعليل غير مقبول؛ لأن تلك الطوائف لم تغيِّر مطلقًا في مبدأ القرآن، وهو وحدانية الخالق. وما كانت إلا مذاهب، لكل منها نظر مخصوص في بعض مسائل التوحيد والمعقولات، كالبحث عن ذات الله، وكون القرآن قديمًا أو حادثًا، والاختيار في الإنسان، وغيرها. وهي مسائل لا يشتغل بها القصاصون والشعراء.

ولست أريد أن أبيِّن في هذا الموضع، ما كان الناس يعتقدون فيما نسبوه إلى المسلمين من التماثيل والأوثان، مثل: "ماهومد"، و"أبوللون"، و"ترافاجان"، و"نوران"، و"مارجو"، وغيرها. وإنما أردتُ أن أجمع بعض ما كتب في تلك الأزمان من المقتطفات، التي يقف القارئ بواسطتها على أفكار أجدادنا في الإسلام ونبيه (ﷺ). وهي أفكار من الغرابة بمكان، حتى أن من لا يهمه مثل هذا الموضوع، يرتاح لتلاوة هاتيك القصص والأشعار، مما يُنسى معه الموضوع الذي كتب فيه[1].

---

[1] يقصد الكاتب أنها قصص خيالية مسلية، كقصص ألف ليلة وليلة مثلا.

فمن تلك المقتطفات، ما شاع في جميع الأزمان عند الفرنسيين، حتى قبل الحروب الصليبية، من أن النزاع بين النصرانية والوثنية (يشير إلى الإسلام!)، يفضي إلى حرب عجيب في بابه. وقد جعلوا لذلك الحرب أشكالا متنوعة، نتيجتها كلها: ظهور المسيحي على الوثني. ووصفوا تلك الحروب بأوصاف مختلفة، تتناوب فيها الضربات، وتني الأجسام تحت السياط، وتتبادل النبال، ويحتدم القتال إلى أن ينتهي بضربة عاتية، وهجمة قاسية، فينفذ السيف في الأجسام.

وفي أثناء هذه الحرب العوان، يتناقش الخصمان في علم اللاهوت الأعلى، وكلٌّ يقدم دليله الأقوى. ويقابلان بين دين المسيح، ودين محمد. ويميل الواحد منهما إلى إقناع الآخر بصحة دينه، وصدق إيمانه.

ومن هذا القبيل، ما جرى بين "غليوم دورانج"، المسمى غليوم ذو الأنف القصير، و"قرصوط" المسلم، صاحب الطول الهاشمي. وهو بيت القصيد، في رواية تتويج الملك لويس. وهو أيضًا قسم من قصة مطولة، يقال لها قصة "غليوم دورانج"، وتحتوي على ثمانية عشر فرعًا، وعدد أبياتها مائة وسبعة عشر ألفا وثلاثمئة. وفيها وصف المسلمين وأخلاقهم ودينهم.

ذكر صاحبها أن الملك شارلمان، أرسل غليوم في أمر إلى البابا، فذهب إلى روما في أربعين فارسًا. وبينما هو يزور قبر القديس بطرس، القريب من قبر "تيرون". وهو أحد آلهة المسلمين في بعض القصص- انتشر خبر قدوم المسلمين بعد انتصارهم (في ١ يوليه). فحزن الناس أجمعون، وجمع البابا على عجل جيشًا، أسلم قيادته إلى غليوم.

وبعد قليل، أقبل جيش المسلمين، حتى صار على أبواب المدينة، فتقدم جيش غليوم نحوه. واصطف الجيشان للطعان، والضرب والنزال، ثم تشاور الرؤساء في أمرهم، وقرَّ قرارُهم على أن يقتتل الرئيسان، والفريقان يشهدان. فمن غَلب، فجيشه الظافر، وخصمه هو المكابر الكافر.

هنالك برز الفارسان وسط الجموع، وشخصتْ نحوهم الأبصار، وجعلَ الشاعر يقصُّ ما كان من أمرهم، بكلام يشغل الأفكار، ووصْف يستوقف الأبصار. فإذا ارتعدت فرائص غليوم، ضجَّ المسيحيون وهاجوا، وانهار البابا، ونزل بقلبه الهلع

الأكبر، وصاح المسلمون بأصوات الفرح والتهليل. وإذا أصاب "قرصوط" جرح من خصمه، انقلبَ الفرح بكاءً، وتبدل الحزن ابتهاجًا.

قال: وكان قرصوط لابسًا درقة من الزرد[١]، متقلدًا بالفولاذ، مستعليًا ظهر جوادٍ. الله أكبر. ما أعظمه!

وأما غليوم، فلم يشأ الشاعر أن يصف لنا لباسه وعدته، بل ذهب إلى البابا، فأحضر إليه أثرًا من آثار الرسول بطرس، وهو ذراع له محفوظ في غمد ثمين. ثم أخرجه من غمده، وسلمه إليه، فجعل يمس به جميع أعضاء جسمه، إلا نصف أنفه.

ثم تقدم "قرصوط" نحو خصمه، فلما رآه غليوم مقبلا، ترجَّل عن جواده. وجعل ينشد الأشعار، ويقص التاريخ والأخبار، إلى أن وصل إلى خلق الليل والنهار، وكيف تكونت الأرض والأنهار، وارتفعت السموات عن البحار.

واستمر الشاعر يروي هذا الخبر حتى كتب ثمانين بيتًا من الأشعار. ثم انتهى بالتضرع إلى المسيح. فقال له: إن صحَّ أنك مت ثم حييت، فاحفظ غليوم!

ولكن الهاشمي رأى الدعاء طويلا، فسأل خصمه عن السبب، وهنالك رأى الناس العجب، وصار كلٌّ ينادي بالويل والثبور، ويستنزل فوق رأس عدوه عظائم الأمور.

ثم طلب إلى غليوم أن يعرف نفسه، فأطال الجواب في ذكر أسمائه وألقابه، وأسماء عائلته ونعوتها، وفي بيان حربهم وما فعلوا، وأنهم فتكوا بالمسلمين والسلافيين. وختم جوابه بقوله: فما بلغوا شأوَنا، وما كانوا قطّ مثلنا.

فغضب قرصوط، وحملق بعينيه، وحرَّك حاجبيه، وحمَل على خصمه بكلام طويل، وقول ثقيل. ثم جعل يُمجد الله، ويثني عليه، ويستنزل معونته، ويكِلُ الأمر إليه.

وبعد ذلك، اشتبك القتال، وابتدأ الطعن والنزال، وكلما كلت السواعد، قامت قيامة الجدال، وتوالت الحجج والشواهد.

---

[١] درقة: يقال للترس إذا كان من جلود، ليس فيه خشب ولا عقب: حجَفَةٌ، ودرقة. والـزَّرَدُ: الدرع المزرودة (مختار الصحاح، ص١٦٧، ٢٨٠).

وفي إحدى هذه الفواصل، جعل غليوم يُبيِّن لخصمه حقوق الملك شارلمان على "روما"، و"توسكان"، و"كالابره". ويشرح له سيادة البابا السياسية.

ثم حمل عليه قرصوط، فكاد يُنزل به الموت الأحمر، وانخلعت قلوب النصارى، وضاعفوا الدعاء والابتهال، ورفع البابا يديه إلى السماء، طالبًا أن يعود غليوم إلى روما سالمًا غانمًا. فاشتد ساعد رجلهم، وفوَّق إلى قرصوط طعنة في صدره، فخرج السيف يلمع من ظهره.

قال الشاعر: ولكنه ما برح مالكًا لقواه، ولو كانت الضربة في غيره لأعدمته الحياة. ولما أحسَّ بالألم، انحاز إلى جهة، وجعل يفكر في الذي خط القلم.

وأما غليوم، فرجع إلى الدعاء والاستنجاد، وعاد إلى خلق البلاد والعباد، وذكْر العهدين الجديد والقديم، ودخول عيسى أورشليم، ونجاة يوحنا، وتنصُّر بولس الرسول، وتوبة "مادلين".

وبعد ذلك، رجع البطلان يقتتلان، فناول قرصوط خصمه ضربة بسيفه البتار، أطاحت نصف أنفه، فغاب عن الأبصار. هنالك يئس النصارى، وأصبحوا في أمرهم حيارى، وسأل البابا ربه أن يعين شجاعهم، وأن يجفف دموعهم.

وبينما الناس يصيحون، وبالدعاء إلى الله يتضرعون، إذ سكت الجميع لهول موقف المتحاربين، وقد حان الحَيْن، وزعق غراب البيْن، وحمل الهاشمي على خصمه، وناوله الضربة، فمال عنها، وارتد إليه بمثلها أطاحت رأسه، وسال الدم، فسكن العدو رمسه، وصاح غليوم منتصرًا: لقد أخذت بثأر أنفي. واحتاط به أهل روما وهنئوه، وجاءه الأشراف من قومه، ليسألوه عن صحته وسلامه.

****

ومن المقتطفات قصة "فارس البجعة". ويقال: إنها أول قصائد الحروب الصليبية، وهي لـ"حنا رونو"، ألفها في القرن الثاني عشر. ومدارها أن والدة "قوبران" ملك أورشليم، ذهبت إلى القرشي محمد لتستطلع الأخبار، فنبأها بحضور الصليبيين، وأن أورشليم تقع في يد "جودفروا دبويون". وقد نشرت هذه القصة أول مرة في بروكسل سنة ١٨٤٦م.

****

ومنها قصة الأسرى. وتعزى إلى غليوم التاسع، أمير "بواتييه"، ألفها في القرن الثاني عشر. ومبناها أن "ريكاردوكومون"، تقاتل مع رئيسين من رؤساء المسلمين. هما "غلياس"، و"مورغالي". أي الأمير خالد. فقتل غلياس، وجرح مورغالي جرحًا بليغًا، فأقر بأنه غلب، وطلب من ريكارد أن يعمده، ثم يُجْهز عليه بقطع رأسه.

(قصة فتوح أورشليم)

رأى جودفروا في السهل كوكبة من الفرسان، فانقضَّ عليها، فلما قرب منهم، سألهم إن كانوا مسلمين، أو نصارى قائلا: يا هؤلاء! أي القوم أنتم؟ تؤمنون بالله العظيم ابن مريم، قدس اسمها، صاحب الشرف الأعلى، شديد القوى؟ أم تؤمنون بأبوللون، وماهون، وترافاجان. أولئك الأصنام، قبحت سيرتهم، الذين يعبدهم الأعاجم.

وجاء فيها: أن اثنين من قواد المسلمين أُسرًا في أثناء حصار المدينة، فحاول جودفروا أن يُنصِّرهما، وأن "صوقومان" سلطان المسلمين جرح جرحًا بليغًا، فصار يستغيث بمحمد، وأبوللون.

****

ومن القصص التي ملأت الأسماع في كل زمان: أن محمدًا لما مات، وُضع في صندوق. وكانوا يعتقدون أن ذلك الصندوق من المغناطيس الأصلي، وأنه معلق بين الأرض والسماء، تحت قبة مغطاة بالحديد، والأمير يحرسه بمائة وخمسين ألف فارس، وأن "صودان"، يراد به السلطان، أي ملك المسلمين، طلب من الحبر بطرس أن يعتنق الإسلام. وأظهر الحبر أنه يميل إلى ترك النصرانية. فأمر القائد بإحضار الصنم محمد ليسلم أمامه. وأن جودفروا أسر أحد القواد، وطلب منه أن يتنصَّر، فأبى وقال: إنه لا يعبد إلهًا شنقته اليهود.

(قصة بودوان دوسبور)

وهي من منشآت القرن الرابع عشر. وفيها خروج الكونتس دي يونتيو. وهي أول ما جاء في قصة صلاح الدين، وأنها صارت زوجة له، وولدت له ولدًا، هو

ذاك صلاح الدين الشهير، الذي كان الطامة الكبرى على النصرانية. وأنها استولت عليه وصارت صاحبة الكلمة النافذة عنده، بما اتخذته معه من الحيلة والملاطفة. وهي التي طلبت منه أن يسمح بحضور أخيها الكونت دي يونتيو، وتعهدت له أنها تحمله على ترك النصرانية، فأجاب سؤلها. وقد حكى الشاعر سفر الكونت طويلا.

****

وأما صلاح الدين، فذكره موجود في جميع أناشيد ذلك العصر الفرنسية واللاتينية، وتراه في إحدى الروايات يتناقش في الديانات. وأعظم عيب عاب به النصرانية عبادة البابا، ومسألة الاعتراف.

وفي رواية "جيل دوكوربيل"، لولا ما شاهده صلاح الدين من اختلال حال القسس؛ لاعتنق النصرانية. وكتب طبيب الملك "فيليب أوغست" هجوًا مؤلمًا في هذا الموضوع ضد القسس، سمَّاه الطب المقدس للقسس.

****

ومنها قصة شاعر ريمس- يؤكد هذا الشاعر أن صلاح الدين اعتنق النصرانية في مرض موته. وقد قص قصته طويلا، وعزاها إلى عم ذلك الملك.

****

ومنها قصة المرور في الأرض المقدسة- وهي لعمانويل الكندي. يقول فيها: إنه أقام أيامًا بمصر، وببعض مدن الوثنيين الأخرى- يعني المسلمين، وخالطهم كثيرًا. وكان قومه يعتبرون رأيه في المسلمين ودينهم قال: لما كانت الصدف تجمعني برجل منهم، لم يكن ذا شر وضر، كنت أتجاسر على سؤاله عن الإسلام، وهل نزل فيه شيء من التعاليم النفسية؟ فكان يقول لي: لم يأتنا بشيء من ذلك، بل كله متعلق باللذة الجسمانية. ولذلك يُسمى بدين الجاموس والجمال، وجميع الحيوانات الأخرى!

وقد حكى هذا المؤلف سببًا غريبًا لتحريم المسكرات، فذكر أن محمدًا خرج من مكة في نفر من نصحائه إلى المدينة، وكان معه راهب يستشيره على الدوام،

فالراهب يميل به إلى الديانة المسيحية، وأخصاؤه يميلون إلى الدين الإسلامي. وكان النبي أكثر تعلقًا بالراهب، فغضبوا غضبًا شديدًا، وفكروا في الذي يفعلون. وكانوا ينامون خارج مضرب اختص هو به مع الراهب. فاتفق ذات يوم أن محمدًا ذهب إلى حانوت خمر، وشرب كثيرًا حتى أتى نشوان ونام، فأجمعوا أمرهم على قتل صاحبه، ودخل أحدهم واستل سيف النبي من غمده، وقطع به رأس الراهب، ثم أرجعه مكانه وانصرف.

ولما أفاق محمد في الصباح، ورأى صاحبه مقتولا، أخذه الغضب جدًا، وشدد في معرفة الفاعل. فقالوا له: إنك ذهبتَ بالأمس فغبتَ عنا طويلا، ورجعتَ سكران، فأخذتَ سيفك بيمينك، وقمتَ بيننا متهيجًا، فظننا إنك تريد قتل واحد منا، وخشينا أن نقرب منك، ثم عمدتَ إلى الراهب فقتلته، وأرجعت سيفك إلى غمده في الحال، وهو لا يزال مخضبًا بالدماء. فاعتقدَ صحة ما قالوا، وحلفوا جميعًا: أنهم لا يشربون الخمر أبدًا. ومن هنا حرِّم الخمر؛ خوفًا لا تعبدًا. وهم أي الوثنيون (يعني المسلمون)، أينما وجدوا الخمر يغرقون فيه!

وهكذا انصرف محمد عن المسيحية، ومال إلى تلك الديانة البهيمية!

****

ومنها قصة الغزوة الكبرى- وهي لمجهول وعنوانها: "محمد والحيل التي استعملها ليغش العرب والبلاد الأخرى". وقد جاء فيها وصف النبي (ﷺ)، وبيان حاله على ما كان معتقدًا تلك الأيام. قال المؤلف:

"ظهر محمد في زمن الإمبراطور هيرقليوس. وهو مبتدع كذوب خوان، تظاهر بالزهد والتقشف في المعيشة، وادعى أنه نبي مرسل من الله. فافتتنتْ به العرب، ثم الأقاليم الشرقية الأخرى. ولكي يجعل له ذكرًا دائمًا، ويخلد اسمه، ويوسع نطاق مملكته، ويديم عمله الشيطاني، وينشر دينه الطاغوتي- قرر أنه ليس من حاجة بعده لواعظ أو مرشد في الدين، وجعل قاعدته استعمال السيف، كمن يهمز جوادًا استعد من قبل إلى العدو. وبذلك أدخل أممًا كثيرة في مذهبه. وقد كانت عدواه أشد مصيبة من عدوي المسيخ الدجال، ولم ينمحي أثرها إلا إذا عظمت قوة الإمبراطور، وأمكنه أن يأمر قومه بالتمسك بأهداب النصرانية، وإلا عاقبهم بالإعدام. ثم انتهى بهم الحال- أي المسلمين. فترفعوا عن الرجوع إلى الحق، ولم

يمتثلوا أوامر الخالق المعبود".

****

ومنها قصة جيبير دي نوجان- وهو مؤرخ الحرب الصليبية الأولى. وقد نقل في تاريخه عن قومه، أفكارهم وآراءهم في محمد والإسلام. قال:

تعتقد الأمة أنه ظهر في غابر الأزمان رجل اسمه محمد، أضل الناس عن الاعتقاد بالابن وروح القدس، وعلمهم أن كل شيء آتٍ بقدرة الآب، الله الواحد الذي خلق الخلق، وأن عيسى لم يكن إلا بشر. ومن فروض دينه الختان، فأرخى بذلك للناس عنان الشهوات.

فجاء تنكريد صاحب الأمر في بيت الله. فقال: كيف يكون لعبد "براطون" وجود في معبد الرب، كما لو كان هو الرب؟ ثم التفت إلى جماعته، وقال لهم: هيا اصعدوا من فوركم، فألقوه في الحضيض. فلقد أراد الله أن يكون كما أمرت، لأنه قائم أمام الناظرين بوقاحة، كأنه يريد أن يقوم مقام الله، فانقضوا عليه وجذبوه، وقلبوه وهشموه، وجعلوه إربًا، وقطعوا ذلك المعدن الثمين في ذاته، الحقير في صورته، فصار ثمينًا بعد أن كان حقيرًا.

وكان على جوانب المعبد عصابة من الفضة الخالصة، وضعت تمجيدًا لمحمد، عرضها ذراع، وسمكها كالإصبع، وزنتها سبعة آلاف مارك. ورأى تنكريد بحكمته أنه لا فائدة في بقاء هذه الفضة بغير استعمال، فكسى منها الفقراء، وأطعم الجياع، وسلح جندًا جديدًا، فزادَ في قوته.

ويوجد في المعبد أيضًا خمسمئة حوض من الفضة، كانت مخصصة كلها لخدمة ذلك الصنم، فيها كثير من آنية الفضة المختلفة الأشكال، فأخذها تنكريد. وكانت حيطان المعبد مغطاة بالأحجار، وبعضها بالذهب والفضة، فنزع تنكريد كل ذلك، وجلبه إلى بلده، ثم استخرجت الأشياء الثمينة التي كانت مدخرة منذ زمن طويل، وعرضت على الناس. وبعدها سلمت إلى تنكريد.

****

ومنها قصة سَفَر "لودوف دي سودهم" إلى الأرض المقدسة- أُلفت سنة ١٣٤٢م. ولودوف سائح ألماني، جاء في رحلته عن محمد (ﷺ) والمسلمين ما يلي:

اعلموا أنه في سنة ٦٢٠ من تاريخ الرب، جاء الشيطان بإذن الله، ونشر بدعة المحمديين بالطريقة التالية: فأولا فتن الحبر سرجيوس، الذي كان من طائفة القديس "بنوا"، وطُرد منها لاعتناقه بدعة "نسطريوس". وبعد أن فتنه أنفذه إلى مقام الملك في روما؛ لينال بعض الوظائف الدينية. ولما لم ينل مراده، ويئس من النجاح، قفل إلى بلاد العرب، ونزل في بني هاجر، وهم بنو إسماعيل، الذين سمّوا أنفسهم "سرازيين"، تفاخرًا بسارة التي كانت بنت إسماعيل[1]. ولكن هذا الاسم لا يليق بهم، ويجب أن يطلق عليهم عنوان "الماغومديين". أي المحمديين، تبعًا لاسم ماغومد الذي اغترّت به تلك الطوائف الخشنة، التي تسكن الصحراء.

ولما صار سرجيوس المذكور في تلك البلاد، وجد رجلا جاهلا أحمق، اسمه ماغومد، وأثر عليه حتى اعتقد في نفسه أنه بني، ووضع له بعض البقول في أذنه اليمنى، وعلم حمامة فصارت تأتي كل يوم فتقف على كتفه، وتلتقط الحب منها. ثم جعل سرجيوس يدعو في الناس، بأن الله اختار بني هاجر- وكانوا في ذلك الحين أحقر الأمم وأرذلهم- وأراد أن يُخرج من بينهم نبي من الأنبياء، وأن روح القدس سيناجيه أمام الناس في صورة حمامة. فصدقوا.

ولما صار ماغومد وسطهم، أطلق سرجيوس الحمامة، وكانت على شغب فطارت إلى كتفه، وجعلت تلتقط الحب من أذنه، فأشار إليه سرجيوس أنه هو النبي المرسل من قبل الله لأمته. ولم يكن أحدٌ يعرف ماغومد، وهو نفسه ما كان يعرف عائلته، بل وجدوه لقيطًا في الصحراء، فآواه بعض الأعراب، وربوه حتى صار من رعاة الإبل. ولكونه كان مجهولا عند الناس، ظنوا أنه نزل من السماء.

ثم انتشر أمره جدًا، حتى صار الناس يفدون عليه في كل يوم من أقاصي البلاد. وعند ذلك اجتهد سرجيوس في إقناع امرأة من العرب اسمها "كندوكاجيا" (خديجة)، فتزوجت ماغومد.

واستعمل ماغومد الغلظة والغش، حتى أخضع الأمة بتمامها لسلطته، ثم أصابه داء الضرع انتقامًا من عند الله. وكان كلما انتابه الدور يقول: إن السبب في تألمه ناشئ من محادثته مع ملك من الملائكة.

---

[1] نعرف أن سارة هي زوجة إبراهيم، التي أتى في الكتاب المقدس أنها غارت، وطلبت من إبراهيم طرد هاجر وولدها إسماعيل. فكيف يكون لإسماعيل بنت اسمها سارة؟!

ومن ذلك الحين أخذ في سن القوانين المنجسة، وتأليف الكتاب المسمى التريان (القرآن). فكتبه هو بإملاء سرجيوس؛ لأنه كان مجردًا عن كل تربية وتعليم.

وهذا ما كتبه في أول ذلك الكتاب التريان:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله خالق الأمة. الذي أوجدنا، وهدانا إلى الصراط المستقيم، إلا الفحش وقلة الحياء[1].

ولا أظن أن ظهوره كان في زمن بعيد عنا؛ لأني لم أجد رجلا واحدًا من رجال الكنائس تعرض لردِّ مذهبه الدنئ؛ ولم أقرأ في كتاب شيئًا عن حياة ذلك الرجل، وكيف كان يعيش. ولذلك أراني مضطرًا إلى الأخذ عن الذين سمعت ذلك منهم. ومن التافه أن نبحث عن معرفة صحيح هذا التاريخ من فاسده؛ إذ غرضنا أن نبين كيف أنه كان عظيمًا! وكم من حادث عظيم، خلد له ذكرًا! والكاتب في أمان من الخطأ، إن أساء القول في رجل فاق شره وصف الواصفين.

****

ومنها قصة الحرب الصليبية الأولى- لمؤلفها "تويبوف". وقد أتمها رجل مجهول. وفيها يذكر ذلك المجهول دخول الصليبيين إلى القدس. وأول من دخلها هو "تنكريد دي سيسيل". وكان أول همه أن أسرَعَ إلى المعبد فدخله. ثم جعل المؤلف يصف اندهش القائد؛ لما رأى أن صورة محمد موضوعة مكان صورة المسيح.

قال المؤلف: ثم فتحت أبواب المعبد، وكان أول من دخله تنكريد، فرأى صنم محمد من الفضة، وهو مصبوب، وموضوع على قاعدة مرتفعة، ثقيلة الوزن بحيث لا يحركه ستة من الأقوياء، إلا بالمشقة، وقلما يكفي عشرة رجال لحمله. فأمعن تنكريد النظر فيه وصاح: يا للعار! ما معنى هذه الصورة التي أراها موضوعة في هذا المكان الرفيع؟! وما المراد منها؟! وما تلك الأحجار الكريمة؟! وما هذا الذهب

---

[1] فرق كبير بين ما أورده هذا، وما ورد في أول القرآن الكريم. يقول الله تعالى: {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} (الفاتحة :١-٧).

الوهاج، وهذا الأرجوان (لأن محمدًا كان متقلدًا جميع حلاه)؟! أهذه صورة المسيح؟ كلا؛ لأن المسيح لما صُلب على الخشبة، كانت رجلاه ممسوكتين بالمسامير، وضُرب بالرمح في جنبه. إذن هذا ليس هو المسيح، إن هذا إلا المرذول محمد، أول أعداء المسيح، وهو المسيخ. ولقد كنت أتمنى أن المسيح الثاني، الذي قيل بأنه سيظهر في مستقبل الأيام، يكون بجانب هذا؛ لأدوسهما تحت أقدامي. واكرباه! هذا محمد المعذب في الجحيم! كيف يظهر عليه في هذه الصورة؟! إنه من الذين غضب عليهم، فجعلهم من الملعونين.

قال الراوي: ونقل محمد في هذا الكتاب كثيرًا عن كتاب موسى والإنجيل، وترجم كثيرًا من نصوصها باللفظ، مع أن معانيها خفية مجازية. وفيه كثير من التشبيهات الفارغة، التي لا يمكن تصورها. فمنها ما كتبه عن المسيح:

"نحن نعلم جيدًا مَن هو عيسى ابن مريم، الرجل القديس الذي خلق من روح القدس في أحشاء أمه، وجاء بالكتاب للنصارى. وكما أنه نسخ شريعة موسى في اليهود، فقد بعثنا الله لنصلح شريعة عيسى"[١].

وجاء فيه أيضًا:

"إن اليهود صلبوا عيسى، ولكنه لم يتألم في الحقيقة، وأن حياته بعد ذلك مخترعة"[٢].

والماغومديون يعتقدون ذلك.

وفيه أيضًا:

"أن عيسى ليس ابن الله، ولكنه رجل صالح رفع إلى السماء، ودرجته فوق

---

[١] يقول الله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} (النساء: ١٧١).

[٢] في القرآن غير ذلك. يقول الله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً} (النساء: ١٥٧-١٥٨).

جميع الناس إلا ماغومد"[١].

كل هذا في الترّيان.

وعلى هذا يعتقد الماغومديون في الله القاهر، وفي كتابه، وفي ماغومد، وفي القديس ميخائيل (ميكائيل رئيس الملائكة)[٢]، الذين يعترفون إليه ليلا بذنوبهم في الجبال[٣]. ولهم خمسة أعياد، يصومون فيها إلى المساء، ولكنهم يسترجعون جميع قواهم في الليل. وهكذا يفعلون في كل صوم. ولهم عيد سادس، جعلوه للشعرى اليمانية، التي يعبدونها أيضًا. ويختتنون ولا يأكلون لحم الخنزير كاليهود. ويكتسون ويحلقون، ويركعون كالرهبان. ويجوز لهم سبع من النساء، بل أكثر من ذلك، ويطلقون من لا يريدون من بينهن كالوثنيين، ولذلك فكثير منهن يقتلن بعضهن بالسم؛ لحقدهن وغيرتهن. وفي الرجال حدة وشهوة، يأتون الذكر. وليس في قدرتهم أن يقوموا بواجب امرأة واحدة، ومع ذلك يتزوجون بعدد كثير، ولذلك فهم في الغالب يموتون بالسم من نسائهم. ولهذه الأسباب كلها ينقطع نسلهم، وإن كانوا منهمكين في اللذائذ الجسمانية[٤].

هذا كل ما علمهم إياه ماغومد الختال، النذل المرذول، وأمَر باتباعه.

ولبني سارة في بلادهم قضاة وأساقفة، يأمرون قسسهم المحقرين. وقد زعم أحد القضاة أنهم من أولاد القسيسين. وفي الواقع أصلهم كذلك. ويشتد أولئك القضاة جدًا على النصارى، إذا تقدمت إليهم شكوى ضدهم، بأنهم دخلوا الكنائس الإسلامية، أو حضروا إقامة شعائر ذلك الدين، أو سبوا ماغومد. فيحكمون عليهم أن يقطع الواحد منهم أربعًا[٥].

---

[١] يقول الله سبحانه: {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (المائدة: ١٧).

[٢] رئيس الملائكة عند النصارى هو ميكائيل، وعند المسلمين هو جبيرل- عليهما السلام.

[٣] هذا غير صحيح. ولا وجود له عند المسلمين. ولا يعترف المسلم بذنوبه إلا لله وحده.

[٤] كل هذا من الأكاذيب والافتراء.

[٥] أكاذيب أخرى

ثم ختم المؤلف رحلته بقصة موت محمد فقال:

أما ما تجب معرفته عن وفاة ماغومد، فهو أنه بعد أن حكم سبع سنين في بلاد العرب، دستْ له امرأته السم؛ لأنه كان قذرًا مصروعًا. وبينما هو ذات يوم في الصحراء منفردًا كعادته، إذ تحرك عليه السم، فوقع ميتًا بعيدًا عن الناس، ونهشت جثته الذئاب والضواري. وقيل في بعض الروايات: إن الخنازير الوحشية أكلته، ولم يجدوا شيئًا من أثره، إذ ما ترك الذئاب إلا ملابسه. ولا صحة لما يقوله المسلمون من أن عظامه جُمعت، ودفنت في مدينة مكة، وأنها معلقة في الهواء- كما حققه بعضهم ممن تنصروا- وكانوا قد زاروا ذلك المعبد، ولم يروا فيه صندوقًا. وليلاحظ أن المسلمين الذين يذهبون إلى الحج، ويصلون في مكة يعتقدون أن فيها قبر ماغومد، ومع ذلك يقولون: إن هناك أول معبد لآدم، وإن ماغومد أمر بالصلاة فيه. ومتى ذهبوا إلى ذلك المكان لا يفعلون شيئًا، سوى رمي المعبد بالحجارة، ليرجموا الشيطان[1].

****

ومنها رسائل "ريكولدو"، وهو قس من الطليان، توفي سنة (١٣٢٠م). وفي تلك الرسائل بيان في الديانة الإسلامية. وقد اشتد حزن المؤلف وغضبه من وجود تلك الطائفة اللعينة، وكان يكثر من مناجاة ربه، وإظهار الضجر والتوجع من ذلك إليه.

جاء في إحدى رسائله:

ويعتقد بنو سارة[2] أنهم ناجون بواسطة غشومهم اللعين محمد[3]، الذي توسل بالعسف والخبث إلى إقناعهم بنبوته. وأولئك الذين يؤمنون بمثل هذا الرجل، لا يقال لهم بنو سارة، بل مسلمون- أي ناجون.

وإني لا أذكر لكم كل ما جاء في ذلك الدين، بل أقتصر على أمرين: الأول أن محمدًا يجتهد في إبادة التثليث المقدس تمامًا، الذي هو دينكم؛ لأنه ينفي الابن عن

---

[1] أكاذيب أخرى.

[2] من المعلوم أن العرب أبناء إسماعيل، وهو ابن هاجر، لا سارة.

[3] تنزه محمد رسول الله ﷺ عن كل هذه الصفات، فهو خير بني آدم خلقا، وأكملهم إيمانا.

الآب، وينفي الآب عن الابن، وينفي روح القدس عنهما. ودليله ما قرأته عليكم باللغة العربية في القرآن، وما يريد إثباته في عدة آيات وجملة مواضع، ويجعله الدليل القاطع من أنه يستحيل على الله أن يكون له ولد؛ لأنه لم يكن له امرأة.

ومعلوم أن من أنكر الابن، فقد أنكر الآب. وإذا انتفى الابن والآب، فلا وجود لروح القدس. كذلك قرأت في موضع آخر من القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ (النساء: ٤٨).

وقرأت أيضًا فيه: أن الله يصلي على محمد.

ويؤخذ من رسالة أخرى، أن المؤلف كان يستغيث بالقديسين والقديسات، ثم يستنجد أخيرًا بالقديس "دومنيك"، والقديس "فرنسوا". ويأخذه العجب من أنهما لم يتمكنا من التغلب على عدوه. قال: ومن هو عدوي، هو محمد ذلك المجرم، ذلك الختال، ذلك الكافر بالله وبالتوراة المقدسة[١].

نعم، إني لأعجب من أنكما وحدكما لم تمحياه بعدُ من الوجود! أناجيك أيتها القديسة مريم مدلين! يا صاحبة المسيح المصطفاة! واستنجد بحولك ضد محمد، وبني سارة المحمديين؛ لأنك تعلمين أيتها السيدة المقدسة، أني وجدت كنيستك الجميلة، التي أقامها المسيحيون لخدمتك في "مجدلة"، قد جعلها بنو سارة مربطًا للبهائم، وصارت مسكنًا لأقذر الحيوانات. كذلك كنيستك اللطيفة، التي بناها لك المسيحيون في بطنية. وهي التي ازدرف فيها المسيح دموع الحب الإلهي، وأحيا أخاك العازار من قبره. وجدتها ملطخة بالأقذار، وصارت مربطًا للحيوانات الوحشية[٢].

يا أسيادنا! ألا يمكنكم أن تساعدوا المسيحيين على المحمديين؟ أو أنكم لا تريدون ذلك؟! أني أعتقد بأنه يمكنكم، ولكن لا تريدون، إلا إذا صحَّ أنكم صرتم من بني سارة (مسلمين)؛ لأن من المحقق في جميع أنحاء الشرق، أن القرآن كلام الله. فمن المحقق والمؤكد، والذي لا شك فيه أبدًا، أنكم صرتم دعاة مسلمين، ومقلدين لمحمد. ذلك لأني قرأت في الفصل الثالث من القرآن: أن عيسى ابن

[١] محمد ﷺ رسول الله، يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. وهو علم ملايين الناس هذا الإيمان.

[٢] هذا كذب ظاهر. فالمسلمون حفظوا للنصارى كنائسهم.

مريم لما رأى البدع فشت في بنيه، سأل عمَّن ينصر الله، فأجابه الرسل، وكانت هذه الدعوة قد أصلحت ما بهم: نحن نصراء ابن الله: نحن مخلصون لله، ونشهد بأننا مسلمون، وأننا مقلدون لمحمد[١].

****

ومنها سياحة أمير "أمير انجلور"- التي كانت سنة (١٢٩٥م) مسيحية. ذكر فيها ما يلي:

سرنا يوم الأحد (٣١ أكتوبر) طول النهار. ومشينا يوم الاثنين، وهو يوم عيد القديسين، حتى اقتربنا من حنفية السلطان. فمررنا أمامها، وأقمنا على بعد فرسخين منها. والعادة أن جميع الحجاج يحطون خيامهم قريبًا من تلك الحنفية؛ ليقتلوا الهجير بالماء البارد؛ لأنه منذ الخروج من غزة، لا يوجد ماء صالح للشرب إلا من حنفية السلطان. والسبب في عدم اقترابنا منها، هو أنه كان يوجد حولها عشرة آلاف من المسلمين، قادمين من مكة، وجالسين هناك ليترطبوا بمائها، وكان كل واحد منهم يلبس لباس بلده، وكلهم يعبدون سيدهم النبي محمد.

والمسافة بين مكة والقاهرة مسيرة خمسين يومًا في الصحراء. وعلى ما يقال: إن مكة مدينة كبيرة جدًا، وهي أيضًا مدخل الهند. وحقق لنا بعضهم أن في القاهرة المذكورة اثنتي عشرة ألف كنيسة لأولاد سارة، يقال لها مساجد. وفيها يقرءون صلواتهم، ويتعبدون.

واعلموا أيضًا: أنهم أكدوا لنا أنه كما يوجد في القاهرة اثنا عشر ألف مسجد، فإن فيها اثنا عشر ألف حمام. لكل مسجد حمام. ويقولون: إن كل مسلم لا يجوز له أن يسمع التلاوة إلا إذا كان طاهرًا، وكلما اختلى بحِلِه، وجب عليه الغسل. ولهذا، فإن الناس يغتسلون كثيرًا في تلك الحمامات، وخصوصًا الأغنياء. والفقراء يغتسلون في اليم. واعلموا أننا رأيناهم يغتسلون عراة، بغير أدب ولا احتشام- أمام الناس.

****

---

[١] يقصد قول الله سبحانه: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (آل عمران: ٥٢).

ومنها أخبار القديس "دينيس". وفيها يقص المتحدث: أن مدينة دمياط، استخلصت من رجال ملك فرنسا سنة (١٢٤٩م). ويخبر بإبادة الأصنام الإسلامية، حيث يقول: وقد تقدم الرسول إلى المحمدية (يريد بها الجامع)، وأمر أن تنكس جميع الصور الباطلة، وأصلح المكان، وجعله مستعدًا لعبادة سيدتنا المقدسة مريم، ثم أقام فيه صلاة على سيدتنا.

****

ومنها قصة "مركبروس"- وهو أول من عرف من شعراء الحرب الصليبية الأندلسية (سنة ١١١٤-١١٢٤م). وهي التي انتخب فيها "الفونس" السابع رئيسًا، ولقب بالإمبراطور. وقد بدأ الشاعر شعره بما يأتي:

إن الله الذي يعلم كل ما هو كائن، وكل ما كان، وما يكون، قد وعدنا نعمة، بواسطة إمبراطور أسبانيا. عجبًا! هل تعلمون ما ينال من الفضل، أولئك الذين يتطهرون في الحوض المقدس، وينصرون الله من تعدي الوثنيين في بلاد العرب وطغيانهم؟! إن مجدهم ليكون أبهى من الشهاب، الذي تهتدي به فلك البحار! إن أمة الكلاب، التي ظهر فيها ذلك النبي الكاذب[1]، وألئك الرجال الخائنون، الذين هم أتباع ذلك الرئيس المبتدع، قد كثروا فيما يلي الشواطئ والثغور، حتى لم يبقَ أحدٌ يعبد الله! فعلينا أن نطردهم بفضل الحوض المقدس، مسترشدين بالمسيح؛ لنقصي أولئك المحقرين، الذين يعتقدون بالسحر والطوالع[2].

****

ومنها حكاية "جوانفل". وفيها صيغة اليمين الذي حلفه الأمراء المصريون، بين يدي سان لويس ملك فرنسا، لما دخل تلك البلاد. وهي: "نعاهدك على الطاعة، وإذا خنا فعلينا لعنة من يرتكب ذنبًا، ويذهب إلى الحج بمكة ليزور محمدًا ورأسه مكشوفة، ولعنة من يطلق امرأته ثم يراجعها"؛ لأن من طلق امرأته، فشريعة محمد تقضي عليه أن لا يراجعها، إلا بعد أن ينكحها غيره[3]. وأنهم إن خانوا عهودهم

---

[1] محمد هو رسول الله الصادق المصدوق، الذي من اتبعه نجا، ومن عصاه هلك.

[2] سخافة، وكذب، وسوء أدب من الكاتب.

[3] هذا إن كان الطلاق ثلاثا.

مع الملك، فعليهم لعنة المسلمين الذين يأكلون لحم الخنزير. وقد قبل الملك منهم هذه الأيمان؛ لأن نقولا العكاوي- الذي كان يعرف المسلمين- قال: إنهم لا يستطيعون أن يغلظوا أيمانهم أكثر من ذلك.

ومما جاء فيها أيضًا قوله: إن الأمراء أرادوا أن ينكثوا عهده؛ إطاعة لأوامر القرآن، فقال أحدهم: إننا إذا قتلنا الملك بعد أن قتلنا السلطان، يقول الناس: إن المصريين أقبح الناس، وأشدهم خيانة وكفرانًا! وقال آخر: حقًا نحن كنا من الأشرار؛ بتخلصنا من سلطاننا الذي قتلناه؛ لأننا خالفنا أوامر محمد، الذي يأمرنا بالحفاظ على سلطاننا، كما نحافظ على العيون. ولكن اسمعوا أمره الثاني المكتوب في الكتاب. ثم تصفح ورقة الكتاب، وقرأ: حافظوا على الشريعة، بقتل أعداء الشريعة. فنحن خرجنا عن أمره لما قتلنا السلطان، ثم إننا نخرج عن أمره أيضًا، إذا لم نقتل الملك، مهما كانت عهودنا معه؛ لأنه أكبر أعداء الشريعة الوثنية.

وحكى جوانفيل قصة دارت بين رجل من رجال الملك، وشيخ من المسلمين في سوق دمياط، تبادلا فيها الحديث عن الدين. فقال: ذهب حنا أرمين، أحد عساكر الملك إلى دمياط؛ ليشتري قرونًا وجلودًا؛ كي يصنع منها نبالا، فوجد رجلا شيخًا كبيرًا، جالسًا في السوق، فناداه وسأله: إن كان نصرانيًا؟ فأجابه: نعم.

فقال له الشيخ: إنكم حقًا تكرهون بعضكم أيها النصارى. وأنا شاهدت مرة ملككم المسمي "بدوان" كسر صلاح الدين، ولم يكن معه إلا ثلاثمئة مقاتل، مع أن جيش صلاح الدين كان ثلاثة آلاف. واليوم قد وصلتم بذنوبكم إلى حالة، جعلتنا نأخذكم في الحقول أخذ الماشية!

فقال له حنا: يجب عليك أن تُمسك عن ذنوب النصارى؛ لأن ذنوب المسلمين أعظم وأشد!

فقال له المسلم: إنك أجبت بغير تعقل. فسأله حنا: ولمَ ذا؟ فقال له إنه سيخبره بالسبب. ولكن يسأله قبل ذلك: إن كان له ولد؟ فأجابه: نعم. ولد ذكر.

فقال له: أي الأمرين أشد وقعًا في نفسك، لطمك باليد على وجهك مني، أو من ولدك؟

فقال له حنا: إني أغضب من ابني إذا ضربني، أكثر مما لو ضربتني أنت.

فقال له المسلم: إذا أجبت على سؤالك الأول، وهو أنكم تعتقدون بأنكم أولاد

الله المسيح، الذي سُمّيتم مسيحيين نسبة إليه، وأنعم عليكم كثيرًا حتى جعلكم تعرفون الشر من الخير؛ ولذلك فإن الله يغضب منكم إذا فرط منكم ذنب صغير، أكثر منا إذا صدر عنا جرم عظيم. ونحن جهلاء جدًا، إلى حد أننا نعتقد النجاة من ذنوبنا، لو اغتسلنا قبل الوفاة؛ لأن محمدًا قال لنا بأننا نطهر من ذنوبنا بالماء عند الممات[1].

****

ومما يلذ ذكره، ما يعتقده الصليبيون في مذهب الشيعة عند المسلمين. قال اليسوعي "إيف بريطون"، وكان يعرف العربية، يروي عن اعتقاد شيخ الجبل:

رأيت أن شيخ الجبل لا يعتقد بمحمد، ولكنه يعتقد بشرع علي عمه[2]. وعليّ عمه، هو الذي رفع محمدًا إلى درجات الشرف التي وصل إليها. فلما انتهى إليه الأمر، وصار أميرًا على الأمة، احتقر عمَّه وأبعده. فلما رأى عليّ ذلك، جمع إليه مَن أحبَّه من الناس، وعلمهم شرعًا غير الذي أملاه محمد. ومن هنا جاء أن أتباع علي يقولون: إن أتباع محمد كافرون. ويقول أتباع محمد: إن أتباع علي كافرون.

ومن معتقدات أحزاب عليّ: أن الرجل الذي يموت في تنفيذ أوامر ربه، تذهب روحه، فتحمل جسدًا تسعد به أكثر من سابقه. ولذلك فإن المقاتلين لا يهابون أن يقتلوا أنفسهم متى أمرهم الأمير؛ لاعتقادهم بأنهم سيسعدون بالموت، أكثر مما لو كانوا أحياء.

ومن معتقداتهم أيضًا: أنه لا يموت أحد قبل اليوم المحتوم لأجله، مع أنه يجب أن لا يعتقد أحد مثل ذلك؛ إذ في قدرة الله أن يطيل الحياة، أو يقصرها. والبدو يعتقدون ذلك؛ ولهذا فإنهم لا يلبسون الزرد إذا حاربوا، كيلا يخالفون أوامر شرعهم. وإذا لعنوا أولادهم قالوا لهم: عليكم لعنة الكافرين، الذين يخافون الموت؛ فيلبسون الزرد والصفائح.

قال صاحب القصة: وقد رأيت كتابًا موضوعًا ناحية رأس شيخ الجبل، فيه

---

[1] كذبة ليس لها ظل من الحقيقة.

[2] علي بن أبي طالب، هو ابن عم النبي ﷺ، وليس عمه. ولا شرع له سوى شريعة الإسلام.

أقوال كثيرة مما قاله الرب للقديس بطرس عند نزوله إلى الأرض، فأوصيته بتلاوة تلك الأقوال؛ لأنها أقوال طيبة. فأجابني: إن هذا شأنه؛ لأنه يحب القديس بطرس، إذ في بدء العالم، لما قتل قابيل، انتقلت روحه إلى نوح. فلما مات نوح، انتقلت منه إلى إبراهيم. وانتقلت من بعده في جسم القديس بطرس لما نزل الرب إلى الأرض.

فلما سمع منه إيف اليسوعي ذلك، قال له: إن اعتقاده لم يكن سليمًا. وألقى عليه كثيرًا من التعاليم الطيبة، ولكنه لم يُرد أن يُصدِّق بها.

****

ومنها قصة تيربان الكاذب- وهي حكاية موضوعة، لا يؤخذ منها سند في التاريخ. ولكنها احتوت على ما كانت عليه الأخلاق والأفكار في القرن التاسع. والمرجح أنها أنشئت في القرن العاشر. وكانت في زمانها منتشرة، راسخة في الأذهان. ولكنها اليوم معدودة من الأقاصيص المختّرعة باتفاق.

ولاحتوائها على ما ذكرنا، رأينا أن اقتطاف طرف منها، مفيد في موضوعنا. ففيها كلام طويل عن صنم محمد. وكيف أن الملك العظيم شارلمان لم يتمكن من إبادته. كما عجز عن ذلك غيره من النصارى قال:

لما دخل شارلمان بلاد أسبانيا، أَمَرَ رجاله فكسروا جميع الأوثان والأصنام، ما خلا الصنم الموضوع في بلاد الأندلس، الذي يقال له سلام. ومعنى سلام باللغة العربية: الله. والمسلمون يقولون: إن هذا الصنم من صنع شارعهم محمد؛ ولذلك يعظمونه؛ ويعلون قدره. ومحمد هو شارع كاذب. وقد صنع ذلك الصنم من العفاريت بسحره، وجعله بسحره من القوة، بحيث لا يقدر أحد على كسره، فإذا اقترب منه أحد من النصارى، يموت في الحال. وإذا دنا منه مسلم ليعبد محمدًا، ويصلي له، يعود بدون جرح يصيبه، ولا ضرر. وإذا وقف عليه طائر مات في الحال!

وتلك الصورة موضوعة على حجر قديم، غاية في الصنع والإتقان، من صناعة بني سارة، على شاطئ البحر، في أرض فسيحة مربعة، ويبلغ ارتفاعه مبلغ ما يناله الطير في ارتفاعه.

والصورة المذكورة هي من معدن غالٍ، على شكل رجل قائم على رجليه،

ووجهه إلى الجنوب، وبيده اليمنى مفتاح كبير الحجم. يعتقد بنو سارة: أنه يسقط من تلك اليد، يوم يُوَلى في بلاد الغال (فرنسا) ملك تدين له جميع بلاد أسبانيا، ويعدل الشرائع النصرانية على حسب الزمن الجديد. ومتى رأى بنو سارة أن المفتاح قد سقط، يُخفون كنوزهم في الأرض، ويهربون.

****

ومنها المرآة التاريخية- طُبعتْ أول مرة سنة (١٤٨٢م). وهي لرجل من أصحاب دومينيك يقال له "فنسان دي بوفي". المتوفى سنة (١٢٦٤م). وضعها بناء على أمر الملك "سان لويس". وخصص أحد فصولها، وهو الرابع والعشرون، من الجزء الرابع، لتاريخ محمد. ويقول المؤرخون: إنه أخذ كثيرًا عن العرب. ولكنا نراه أخذ أكثرها من قصة تربان الكاذب. وإليك المواضيع التي تكلم عنها في الفصل المذكور:

الأول: بدعة التوحيد، والبرنسيس. يعني بها السيدة خديجة. وشريعة محمد. وفي هذا الموضوع، يذكر قصة الحمامة التي تعلمتْ أن تقف على كتف النبي؛ لتلتقط الحب من أذنه. وقصة الثور الذي استأنس.

الثاني: سرقات محمد، وخداعه، وفظائعه. وفيه يذكر أن النبي كان يَقتل ويخنق كلَّ مَن رآه. ومن هنا جاء وهْمُ الناس بأنه كان نبيًا فتاكًا.

الثالث: قذارة شريعة محمد وخرافتها، وكيف وُجد القرآن. وفيه يذكر حكاية الراهب سرجه الذي قيل: إنه علم النبي العهدين القديم والجديد.

الرابع: حمق أتباعه، وتعصبهم الأعمى، وصيام المسلمين الكاذب، وغسلهم، والحج إلى البيت بمكة، واعتقادهم بنزول الوحي فيه، والأصنام التي أبادها شارلمان، والتي أقامها[1].

---

[1] نبرأ إلى الله تعالى، من كل سبٍّ لرسوله محمد ﷺ.

كتاب البابا بي الثاني إلى السلطان محمد الثاني

كتب إليه عقب سقوط القسطنطينية في يد الأتراك، واندثار دولة الشرق، وتزعزع دولتي إيطاليا واليونان. وقد اجتمع خلق لا يُحصى عددهم؛ لينتظموا في سلك الصليبيين، تحت إمرة اسكندر بك، و"ماتياس كورفين". ورأى البابا، وهو "بي" الثاني، أن الخطر على النصرانية يزداد بتمكن الترك، واستتاب الأمور لديهم، فظن أنه ليس من المستحيل حمل السلطان محمد على اعتناق الدين المسيحي، وبذلك يوقفه في عنفوان فتوحاته. ولهذا كتب قبل أن يرحل عن مدينة "أنصون"، ليسيِّر مع الصليبيين خطابًا، نقتطف منه ما يلي- (وقد نقلناه من النسخة الأصلية، المكتوبة بيد البابا في المكتبة العمومية، الموجودة في القسم اللاتيني، فصل (١٨١٢٨)، نمرة (١٥)):

من القس بي خادم الرب، إلى صاحب المجد: محمد أمير الأتراك. سلام الله، وخوفه.

قد أردنا أن نكتب إليكم هذه النصائح؛ حبًا في نجاتكم؛ وحفظًا لفخاركم؛ وميلا للتخفيف عنكم؛ وتثبيت الهدوء والسلام في كثير من الأمم. ونستميحكم أن تتفضلوا بالإصغاء إلى ما نقول:

"نحن لا نعتقد فيكم إلا أنكم الهون. ولستم كأهل "كالونه" من بلاد أسبانيا، الذين قيل عنهم: إنهم لا ربَّ لهم، ولا إله يعبدون. ولا نراكم إلا موقنين بربنا، وتعبدون الذي خلق الأرض والسموات وما فيهن، الذي لا يهمل ما خلق. ولا نعتقد فيكم أيضًا أنكم تجهلون وحدة النفوس البشرية، التي إذا فارقتْ أجسامنا انتقلتْ إلى مقام آخر، فيسكن بعضها جنات النعيم، وهي ما طهر منها، وتسكن الخبيثة جحيم العذاب. وليس هذا مذهب خاص بإنجيلنا وبالأنبياء. بل جاء به شرعكم أيضًا، وإن كان أخطأ من حيث جاء فيه: أن ما يوجد في هذه الدنيا الفانية من السعادة، ناشئ عن الصدفة والعرَض[1].

---

[1] لا شك أن البابا بي ارتقى مرتقى صعبًا؛ إذ بدأ في تخطئة الدين الإسلامي، مدعيًا أنه يقول بالصدفة في أحوال العالم. ومن قريب، رأينا غيره يصم المسلمين لاعتقادهم بأن كل شيء في العالم يسير بقدر الله وتدبيره. فأي الأمرين حق؟!

يقال: إن شرعكم ينص على أن كل نفس ناجية بدينها، على شرط أن تعيش عيشة خير، حتى لو ترك المسلم الإسلام، واعتنق دينًا غيره. ويقال: إنه مكتوب فيه، (وهو كثيرًا ما يناقض بعضه): "أن ليس للإنسان نجاة، إلا إذا اعتقده، وعمل به"[١].

أما نحن، فاعتقادنا أن طريق النجاة غير مفتوح إلا للنصراني، إن اتقى وأحسن عملا. فقد جاء في الإنجيل الآية التالية، وهي الحقيقة التي تجلتْ لنا:

"من صدق وعمد فقد نجا. ومن لم يصدق، فلا نجاة له"[٢].

ثم أخذ البابا يُعدد ما حصل للإسرائيليين من المحن، طبقًا لما جاء في العهد القديم. وقال:

"ومن الصحيح عندكم وعندنا: أن شريعة اليهود حقيقة، وأن موسى وداود وسليمان وإسحاق وحزقيال ودانيال أنبياء حقيقيون. وكذلك جميع رسل الله. وحق دين اليهود الذين عاشوا مع المسيح، وباطل دين المجوس، وعبدة الأوثان".

وهنا أتى البابا على خلاصة العهد الجديد، وأطال في رسالة عيسى، وذكر المعجزات الكثيرة التي تؤيدها، وأن رسالة محمد لم تتأيد بدليل إلهي ألبتة[٣].

ثم استتبع كتابه فقال:

"وأنتم لا تعتقدون- معشر المسلمين- إلا بمحمد وقرآنه، فأنتم تعملون على

---

[١] لا شك أن هذا القول من البابا بي يدل على جهله بالإسلام. فكل مسلم يدرك أنه لا نجاة إلا بالإسلام. وسواه باطل وضلال. كما قال الله سبحانه: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ} (آل عمران: ١٩). وقال الله تعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (آل عمران: ٨٥). وكل نصوص الإسلام على ذلك، ولا يوجد ما يخالفه. ولم يقل أحد من علماء المسلمين بغيره.

[٢] مرقس ١٦:١٦ "من آمن واعتمد خلص. ومن لم يؤمن يدن".

[٣] رسالة الإسلام تتأيد بحفظ الله لها، وإيمان الملايين بعد الملايين بها، ولا يزال الإسلام ينتشر في العالم بقوة عقيدته وصدقها، على الرغم من الحرب الشرسة التي يشنها أعداؤه، والتي ترمي إلى إطفاء نوره. كما قال الله تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (الصف: ٨-٩).

مقتضى شريعة رجل مات بغير حجة ولا دليل، ولا وحي، ولا تنزيل. أما نحن فنعتقد بواحد حي"[١].

وهنا أيضًا، استلفت البابا ذهن سلطان المسلمين، إلى أن الفرق بين الديانتين، إنما هو في الاعتقاد بالتثليث. فقال:

"وسنوضح لكم بأجلى بيان، ما الفرق بيننا وبينكم، عن ذات الله. نحن نقول: إن في الله ثلاث ذوات: الآب، والابن، والروح القدس. وأنتم لا تعتقدون إلا بذات واحدة، لا تسمونها أبًا، ولا ابنًا. بل الله. وتقولون: إنه هو وحده خالق السموات والأرض وما فيهن؛ ولذلك فبين النصارى، وبني سارة- أو الترك، خلاف كبير في الله. فأنتم تقولون: إن الله جسماني[٢]، ونحن نقول: إنه غير جسماني. وأنتم تقولون: إن ما يجري في الأرض، يجري بالصدفة، ولا دخل الله فيه[٣]. ونحن نعتقد بأن الذي خلق كل شيء، هو الباسط سلطانه على كل شيء. وأنتم لا تقولون بالآب في الإلوهية، ونحن نقول به وبالابن. وأنتم تنفون الروح القدس، ونحن نحقق وجوده ونعبده. نحن نقول بأن المسيح ابن الله، وأنتم تنكرون بنوته. ولماذا تنكرون ذلك؟ لأن الله لا يمكن أن يكون له زوجة، يلد منها ولدًا؛ ولأنه لو كان له زوجة، وله أولاد منها، للزم فساد العالم؛ لتعدد القائمين بأمره. وإنما العالم بيد رب واحد، والوحدانية هي عماد الدنيا، وحفاظ الممالك والدول. أما التعدد فمن لوازمه الفشل، وأخص لوازمه الخراب والدمار.

---

[١] هذا كلام باطل من البابا؛ لأن محمدًا ﷺ بعثه الله تعالى بكتاب حكيم، فيه كلام رب العالمين، هدى للمتقين، وحجة على المكذبين. يقول الله سبحانه: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} (الشعراء: ١٩٢-١٩٥).

[٢] ينزه المسلمون الله عن الجسم. ولم يقل بأن لله جسمًا أحد من أئمتهم المعتبرين. بل يعتقدون بأن الله ليس كمثله شيء. فلا تحده الجهات، ولا يحويه زمان. كما قال سبحانه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (الشورى: ١١).

[٣] يقول الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} (الرعد: ٢). ويقول الله سبحانه: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} (القمر: ٤٩). وهذا عقيدة جميع المسلمين.

ولكن لم يبلغ النصراني من الجهل والسخافة وقصر النظر، ما يحمله على الاعتقاد بأن الله يلد ولدًا بواسطة الزواج، والاختلاط بالنساء. ولم يبلغ منا- معشر المسيحيين- ضعف العقل، حتى نقول بمثل هذا الأمر الفظيع. بل ربما جاز تعليم ذلك لبني سارة (المسلمين)، الذين يعتقدون أن الله جسم، وله رأس ويدان وأعضاء. ولكنا نحن نحقق أن الله روح، ولا تجسد فيه. باق لا يموت أبدًا. لا تدركه الأفهام[١].

ولننتقل إلى تعدد الزوجات. وهو ما جاء به شرعكم. وأنتم ترونه ألطف شيء مقبول جاء فيه وأنفعه. على أنه لو كان تعدد الزوجات مقبولا عند الله، لوهب عبده الذي خلقه أكثر من زوجة واحدة، ولم يقل الله: إن الرجل ليترك أباه وأمه، ويعلق بأزواجه. بل قال: بزوجته[٢]. ومن المعلوم: أن المحبة الحقيقية لا توجد بين الرجل وزوجته، إلا بالمساواة بينهما. فبينما الرجل عندكم يتزوج نساء كثيرات، نرى المرأة تلزم رجلا واحدًا. فهي كلها له، وليس لها منه إلا يسير. ومع ذلك، فالنوع الإنساني لا يكثر بهذه الطريقة؛ لأن كثيرًا من الرجال لا ذرية لهم؛ لأن عدد النساء أقل كثيرًا من عدد الرجال[٣].

ثم إنه ليس من العدل، ولا من الموافق للحرية البشرية، أن بعض الناس يقتني أزواجًا كثيرة، وبعضهم يعيش أعزب، لا زوجة له[٤]. ولا ينبغي لنا أن نقول بتعدد الزوجات لكونه عادة قديمة، ولا لأن أباء الأمم الأولين كانوا يتزوجون بأكثر من

---

[١] لا يعتقد المسلمون أن لله جسما وجوارح، بل يعتقدون بأنه مخالف لجميع الحوادث. وكل ما خطر ببالك، فالله بخلاف ذلك.

[٢] التكوين ٢:٢٤ "لذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكونان جسدًا واحدًا".

[٣] من الثابت علميًّا أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال، وفي أمريكا نفسها، تصل أحيانًا نسبة النساء إلى الرجال: مئة وتسعة عشر إلى مئة، وأحيانًا مئة وستين إلى مئة؛ فستون امرأة زيادة على المئة، لمن تكون؟! وتظهر الإحصائيات أن (١٥٢) مليوناً هو ما كان عليه عدد النساء في الولايات المتحدة في ١ نوفمبر، ٢٠٠٦. ويفوق هذا العدد عدد الرجال: (١٤٨ مليون رجل). (موقع وزارة الخارجية الأمريكية- مكتب برامج الإعلام الخارجي usinfo.state.gov).

[٤] لا نرى رجلا أراد أن يتزوج فلم يجد امرأة يتزوجها، ولكننا نرى نساء كثيرات لا يجدن أزواجًا.

واحدة؛ لأنهم لم يفعلوا ذلك بنص في الشرع، ولا تبعًا لشهواتهم. بل تلك مزية اختصهم بها الله؛ لكي يكثر نسلهم؛ فيخلفهم من يقوم بعبادة الله بعدهم. وإنا نضرب صفحًا عن الطلاق الذي تبيحونه ضد ما جاء في الشرع الإنجيلي!

وعن الزنا، والميل إلى اللذات الجسمانية، وغيرها من الجرائم التي حرمتها الشريعة القديمة، وحظرتها الجديدة. ومع ذلك يظهر أنها مباحة عندكم"[١].

ثم أخذ البابا يقابل بين النعيمين اللذين وعدهما الشرعان للناس. وختم كتابه بدعوة السلطان إلى اعتناق النصرانية فقال:

"إن للأخيار سعادة أبدية، ليست في اللذائذ البهيمية، أو الأمور التي تخالف مقتضى الحشمة والوقار، وليستْ على سُرر ترتاح فيها الأجسام. بل السعادة هي راحة النفوس، وحبٍ عيسى، الذي يفوق كل لذة في الوجود. فلتذكروا قولنا وتتقبلوا نصيحة محب لكم. وادخلوا في معمودية المسيح، واستحموا استحمام روح القدس، واعتنقوا الإنجيل المطهَّر. فإن أبيتم نصائحنا، تبدد مجدكم كما يتبدد الدخان. ومتى متم كبقية الناس، مات معكم كل شيء. أما عيسى، فهو وحده سلطان الأمم إلى الأبد. فله المجد الأعلى، والجلال الأكبر، أبد الآبدين، ودهر الداهرين.

آمين".

---

[١] ياللكذب المفضوح، أو الجهل الممقوت!!

(الملحق الثاني)

كتاب سان أوغستين
إلى الكونت بونيفاس

ننقل هنا ترجمة مسيو بوجولات الفرنسية، أهم مواضع الكتاب الخامس والثمانين بعد المئة، الذي كتبه سنة (٤١٧م) القديس أوغستن، إلى الكونت بونيفاس حاكم أفريقيا في ذلك الحين؛ ليؤيد القسوة التي استعملها الإمبراطور "هنريوس"، مع أحزاب "دونا".

وأولى بمن يتسرع في ذمِّ هذا الكتاب؛ نظرًا إلى الأفكار المألوفة في الأعصر الحالية، أن يلتفتْ إلى المبدأ الحكيم، الذي أدخله في التاريخ مسيو "لافيس"، وسمَّاه مبدأ شرعية التعاقب. فإن ذلك يجعل المؤلف على حذر في حكمه على الحوادث؛ لأنه يعلم أن المذاهب تتغير، وأن الحاضر ليس على الدوام، موصلا إلى الحكم على الماضي. فكمْ من فكرٍ اندثر، ولابد أن يرجع للأذهان! وكم من مذهب مقبول اليوم سيندثر!

قال مسيو "فرانس":

"جميع المبادئ التي يقوم بها نظام الهيئة الاجتماعية في هٰذه الأيام، كانت قبل رسوخها في الأذهان، وصيرورتها نافعة- معدودة من المبادئ المضرَّة، المخالفة للنظام. كما أن المنافع الاجتماعية، هي التي كانت حُجة من ذهب إلى المسألة، ومن مالَ إلى العسف والقسوة.

قال صاحب الكتاب:

لقد جرى لأحزاب "دونا"، كما جرى لمتهمي دانيال. فإن القوانين التي أرادوا أن يظلموا بها بريئًا، استعملت ضدهم. كما انقلبت الأسود على متهمي الرسول. لكن من لطف المسيح، ترى تلك القوانينِ أحسن في الواقع لأصحاب "دونا" مما يظنون. فهي تعيد إلى الحق كل يوم فريقًا منهم. وقد يشكو المريض المتهيج مرضه

من طبيب يشد وثاقه، ويشكو الولد الخارج عن سلطة أبيه من والده إذا أدبه. وكلا الاثنين (المريض، والولد) محبوب. فتركهما وشأنهما- كما يريدان- رأفة قاسية. وإن الفرس والبغل، وهما من العجماوات، يقاومان من يضمد جراحهما، وربما كان منهما ما يُخشى منه على حياة القائمين بتمريضهما. ومع ذلك، لا يتركهما المطببُ حتى يستعلي الدواء على الداء، فيحصلان على الصحة.

وفي الناس خلق كثير، لا يجوز تركهم خوفًا من الهلاك. ومتى عاد الرجل منهم إلى هداه، يعلم أن الذي كان يراه قسوة وظلمًا، ليس إلا نفعًا وإحسانًا. ولو أردنا الوقوف عند حد الحقيقة، لرأينا أن القسوة الظالمة، هي التي يستعملها الكافرون ضد كنيسة المسيح، وأن القسوة الشرعية، هي التي تأتيها كنيسة المسيح ضد الكافرين، وهي سعيدة إن أصابها العذاب في طلب العدالة. وهم أشقياء إذا أصابهم العذاب، وهم في طلب الباطل. والكنيسة تعذبُ محبةً فيمن تعذبُ. وغيرها يقسو بعامل الحقد والبغضاء. فهي تدعو إلى الحق، وهم للحق كارهون. وهي ترمي إلى النجاة من الظلمات، وهم فيها خالدون.

ولقد اشتدت وطأة المبتدعين على النصارى مِن خَدَمَة الدين وغيرهم. فكانوا بين حالين: إمَّا أن يخفوا الحق، وإما أن ينالوا ما تستطيعه الهمجية من أنواع القسوة والتعذيب. ومعلوم أن السكوت عن الحق، لا يُرجع عن الغواية. بل إن في ذلك مدرجة؛ ليدخل في الباطل كثيرٌ من قومنا.

ومن جهة أخرى، فإن الإعلان بكلمة الحق، كان من شأنه أن يثير غضب المبتدعين. وذلك يلحق الأذى بمن قرب عهد رجوعه إلينا، ويمنع ضعفاء العزائم من سلوك الطريق المستقيم. في هذه الحالة، لا يجوز أن تلزم الكنيسة جانب السكوت، وتتحمل هذا كله، ولا تطلب معونة الله من القياصرة المسيحيين. إنه ليس من علة، ولا حجة تقوم في جانب ذلك الإهمال.

إن الذين كانوا لا يريدون أن توضع لردعهم عن غيهم قوانين عادلة يقولون: إن الرسل ما كانوا ليطلبوا مثل ذلك من ملوك الأرض. وقد غفلوا عن أن زمانهم ليس زماننا، وأن الأمور مرهونة بأوقاتها. فأيُّ قيصر في ذلك الزمن، كان يعتقد بالمسيح حتى كان يضع القول بأن جميع ملوك الأرض سيعبدون الله، وأن جميع الأمم ستخدمه. لم يبقَ مِن رجل عاقل، يشير على الملك بعدم الاشتغال بمن يدافع عن كنيسة ربه، ومَن يخرج عليها، ولا بمن يعتقد بالله، أو يكون من

الكافرين.

وفي الحقيقة، حيث إن الله أودع الاختيار في الإنسان، فليس من مُرجِّح، يحمل على معاقبة من يزني، مع عدم عقوبة من يكفر بالله. كأن الكفر بالله، أصغر حجمًا من خيانة المرأة لزوجها، أو أن قلة العقوبة على الذنوب التي يرتكبها الناس- لجهلهم بالدين- لا لاحتقارهم إياه، تصح أن تكون سببًا في عدم العقاب[١]!

هل من رجل، كان يمكنه أن يقول لملكه: أيها الملك! لا شأن لك في هذا، فدَع الناس، من اتقى منهم، ومَن فجَرَ؟!

نعم، ليس من يشك في أن استجلاب النفوس لعبادة الله بالتعليم والتهذيب، أولى من إلزامهم بها بواسطة القهر والإرهاب. ولكن لوجود قوم تسهل لهم معرفة الحقيقة، لا ينبغي إهمال من ليسوا على شاكلتهم. وقد دلتنا التجارب، ولا تزال تدلنا، على أن الخوف والألم، أفاد كثيرًا في حمل كثيرين على التعلم، أو العمل بما تعلموا.

يعترضون علينا بما قاله أحد الكُتاب (رأى ردَّ جماح الأطفال بمؤثر الخزي وحب الاستقامة، خيرٌ من الوصول إلى ذلك بالتخويف والإرهاب).

فقوله صحيح في جانب مَن أمكن إصلاحه بعوامل الإحساس. ولكن الخوف هو لجام السواد الأعظم من الناس. وقد علمتنا التوراة أن الابن كالخادم يجب تأديبه بالعقاب؛ فإن في ذلك فائدة كبرى؛ لأنك تضربه بالسوط؛ ولكنك تُخَلصُ روحه من الفساد. وكثير من الخدم والأتباع، يُردون إلى سادتهم بالسوط والآلام الجسمانية.

اعتاد قوم على الشكوى من التشديد، وقالوا: إن المرء حرٌ في أن يعتقد، أولا يعتقد. وإن المسيح لم يستعمل القهر مع أحد من الناس. ولكننا نذكرهم بالرسول بطرس، فإن المسيح قهره على اعتناق دينه، وعلمه بعد أن ضربه، ثم بعد ذلك طيب خاطره.

---

[١] لا شك أن العقوبة على الكفر أولى من العقوبة على غيرها من الجرائم؛ فجريمة الكفر أكبر من جريمة الزنا والسرقة وغيرها. ولكن من يميز الكافر من المؤمن؟

إن الكنيسة لا تلجئ أبناء الذين ارتدوا عنها إلى العودة إليها بالقهر واستعمال الشدة، كما أنهم اجتهدوا في إضلال غيرهم، مثلما ضلوا.

نعم، قد تستعمل الكنيسة قوانين صارمة؛ لردِّ من خرج عنها بغير القهر، إلا أن في تلك الشدة فائدة. والكنيسة تحفظ لهم عندها صدرًا رحيمًا بعودتهم، أكثر مما تفرح بأتباعها الذين لم يضلوا سبيلها، كالراعي يجب عليه أن يعيد لسيده الشاة التي أُخذتْ منه بالحيلة، كالتي أخذت بالقهر. فإن عصته ضربها حتى استردها.

يَدَّعون بأنه لا يجوز أن يُقهر المرء على الخير؛ ذلك لأنهم رأونا لا نقهرهم على غيره. إلا أن الله أَمَرَ أن يؤتى بالناس إلى سماطه، فإن خالفوا أُجبروا. فلما قال له الخدم: إن أوامره نفذت، ولكن المكان لا يزال فسيحًا، قال لهم: انطلقوا في الطرقات والحظائر، وأتوا بمن لاقيتموه وإن قهرًا. وفي كلامه حكمة، فإنَّ من أقبل طائعًا، فهو كمن اعتنق الدين بالسهولة. ومن عصى، فإنه يمثل لنا المذنب، الذي جوزي على عصيانه.

قبل أن تنشر القوانين القاسية في أفريقيا؛ لحمل أصحاب دونا على الدخول في الدين القويم، ذهب كثير من إخواني وقرنائي- وأنا معهم، إلى أنه لا يجب أن نطلب من القياصرة إبادة مذهبهم، بتوقيع العقوبات عليهم. وذهب آخرون، وهم الأكبر سنًا فينا، إلى خلاف ما ذهبنا، واحتجوا بأن كثيرًا من البلاد، إنما دخلت في ديننا بما وضعه الملوك من القوانين، التي كانت تلجئهم إلى ذلك شدة وقسرًا. ومع ذلك، قرَّ القرار على أن لا نطلب من الملوك قسوة ولا شدة، وأن يُكتفى بتغريم كل حبر أو قس غير كاثوليكي عشرة جنيهات.

وقام نوابنا بتبليغ ذلك، ولكن حكمة الله قضت أن يعود رسلنا خائبين، ذلك لأن الله يعلم: أن الخوف وصرامة القوانين لابد منهما في إصلاح كثير من النفوس التي حادت عن الحق، وأن الشدة تنفع حيث لا ينفع الوعظ، ولا يُجدي الخطاب.

(الملحق الثالث)

مقابلة بين الصيغة التي يقولها مسيحي يعتنق الإسلام والتي يقولها مسلم يتنصَّر

الصيغة التي يقولها المسيحي في إسلامه[1]:

يعلن المسيحي فلان: أنه يرفض الدين المسيحي عن اعتقاد، وأنه يعتنق ديانة الإسلام عن اعتقاد؛ لأنه يعلم أن الله ليس له نظير؛ وأنه نسخ بالقرآن ما أنزله قبله من الكتب والشرائع والأديان.

ويشهد المسيحي المذكور: أن لا إله إلا الله، وأن الله ليس له شريك، وأن محمدًا عبده، وخاتم رسله وأنبيائه، وأن المسيح ابن مريم هو عبده ورسوله، وأن الله أرسل أحد ملائكته إلى مريم؛ ليخبرها بأنها ستلد عيسى، وأنها حملت من روحه تعالى.

وبهذا خضع المسيحي المذكور، لجميع أوامر الإسلام الإلهية، المتعلقة بالوضوء والصلاة والزكاة والصيام وغيرها. ويعلم ما يترتب على تركها من العقاب. كما يعلم المحرمات الواجب الامتناع عنها. وعليه، فإنه مال إلى الإسلام حبًا فيه. ويحمد الله على هذه النعمة التي أنعم بها عليه، فألهمه اعتناق هذا الدين. هذا هو ما قاله المذكور، قولا مجردًا عن الخوف، وخاليًا عن كل تأثير؛ لأنه يجب ألا يقهر المرء في الدين.

الصيغة المستعملة في الكنيسة اليونانية لخروج المسلم عن دينه:

رأينا إتمامًا للفائدة: أن نقرن الصيغة السابقة، بصيغة غريبة مستعملة في الكنيسة اليونانية. نقلناها من كتاب سيلبورج (المطبوع سنة ١٥٩٥م).

[1] نقلا عن كتاب ابن سلمون، قاضي مدينة قرطبة بالجزائر، المتوفى في القرن الخامس من الهجرة.

ويلاحظ القارئ: ما احتوت عليه من الخرافات، في صيغ السباب الموجهة إلى محمد (ﷺ) ودينه.

وفي الواقع، لا يفهم الرجل الذي يخرج عن الإسلام، ذي المبادئ السهلة البسيطة، مِن تلك اللعنات المتتابعة شيئًا. ومن المحتمل: أن هذه الشتائم وُضِعتْ ليقولها من يخرج عن النصرانية، ثم يعود إليها؛ لأننا رأينا فيما تقدم، أن المسلمين لا يعدلون عن دينهم، كما شهد به المرسلون في بلاد الشرق والجزائر. وإذ كان هذا شأن المسلمين في هذه الأيام، حيث الأمم المسيحية ذات اليد العليا في الممالك الإسلامية. فما ظنك بها أيام القرون الوسطى، حيث كان الإسلام يتهدد بقاء الديانة النصرانية في الوجود.

والصيغة المذكورة مكتوبة باللغة اللاتينية، وقد ترجمناها إلى اللغة الفرنسية. وهي بنصها:

"الصيغة الواجب اتباعها، على من ينتقل من دين بني سارة، إلى ديانتنا الطاهرة المسيحية الحق: فأولا، يجب على المريد أن يصوم أسبوعين، ويتعلم الصلاة التي علمنا إياها سيدنا عيسى اليسوع في أناجيله المقدسة، وكذلك علامة الدين[1].

وبعد ذلك، يلبس القس ثوبه الكهنوتي، ويأتي بالمريد في حضيرة التكريز، بحضور المؤمنين الذين يرغبون في الحضور، ويوقفه أمام الهيكل مكشوف الرأس، ثم يقول له: أنت. يا من تترك اليوم ديانة بني سارة، من غير أن تكون مجبورًا على ذلك، ولا خائفًا أو مغشوشًا، بل باختيارك عن طيب نفس، وقلب طاهر، محب للمسيح ودين المسيح. قل كما أقول: إني أقلع عن ديانة بني سارة كلها، والعن محمدًا الذي يمجده بنو سارة، ويقولون: إنه نبي الله ورسوله.

فيظهر المريد رضاه بنفسه، إن كان يعرف اللغة اليونانيّة، أو بواسطة مترجم إن جهلها، أو بواسطة وصيه إن كان قاصرًا.

ويتلو القس بعد ذلك الصيغة التالية، والمريد يكررها من بعده. فإذا تمَّ القولُ، قال القس: فلندع الرب! والناس يُجيبونه: ربِّ ارحمْ. إلى آخر صيغة الدعاء. ويختمون بلفظة: آمين. ويبارك القس المريد، ويصرفه. ويصير نصرانيًا من اليوم

[1] أظنه يقصد بهذه العلامة الإشارة بالتثليث إلى جبهته، ثم كتفه الأيمن، ثم كتفه الأيسر- عند صلاتهم.

التالي لهذا الاحتفال.

أما ما يقوله القس، ويُكرره المتنصِّر، فهو ما يأتي:

أنا الذي- في هذا اليوم- أترك ديانة بني سارة؛ حبًا في الديانة المسيحية، بغير أدنى إكراه، ولا اضطرار، ولا غرور، ولا غواية. بل عن طيب نفس؛ محبة في المسيح، ودين المسيح.

إني أقلع عن ديانة بني سارة كلها، وألعن محمدًا الذي يمجده بنو سارة، ويقولون: إنه نبي الله ورسوله. وألعن عليًا صهر النبي، والحسن والحسين ولديه، وأبا بكر وعمر وطلحة ومعاوية وزيدًا واليزيد والسيد وعثمان، وجميع صحابة محمد وأنصاره وخلفائه، والعن سيدة وعائشة وزينب وأم كلثوم- زوجات محمد: الأولى، ثم البقية التي هي أكثر جرمًا، ومعهن ابنته فاطمة. وألعن ما يقال له القرآن: أعني به سفر محمد- أو كتابه الذي ادعى أنه نزل عليه من السماء، على لسان الملك جبريل. وكذلك مذهبه بأجمعه، وقواعد دينه، وقصصه الكاذبة، وأسراره وسننه، وما أتى به من الكفريات.

وألعن جنة محمد، التي يقول: إن فيها أربعة أنهار، تجري فيها المياه العذبة، ولبن لا يحمض، وخمر لذيذ، وعسل نقي. ويقيم فيها بنو سارة يوم القيامة، التي تقوم بعد خمسمائة ألف عام، مع نسائهم منهمكين في الشهوات البدنية، ويجلسون تحت شجرة سدرة، ويأكلون من الطيور ما يشتهون، وجميع فواكه الخريف، ويشربون من عين الكافور، وعين الزنجبيل، التي تسمَّى سلسبيلا، ويشربون أيضًا نبيذًا، مزاجه من تسنيم. وتعظم أجسامهم حتى تبلغ السماء طولا، رجالا ونساء. ويتمتعون بالعشق والغرام، بدون ملل بحضرة الله؛ لأنه يقول: إن الله فوق كل حياء.

وألعن الملائكة الذين يسميهم محمد: هاروت وماروت. وألعن أحاديث محمد، وما نقله عن العهد القديم، وألعن ذلك المذهب الكاذب، وذلك الوعد الذي يدعى فيه محمد أنه سيكون فاتح الجنة، وأنه يدخلها سبعون ألفًا من بني سارة الصادقين، وأن الله يحكم في المجرمين، فيغلون بالسلاسل من رقابهم، ثم يدخلون الجنة أيضًا، ويقال لهم: عتقاء محمد.

وألعن شريعة محمد في الزواج والطلاق، وتطهير الزانيات، وعدد الزوجات

والسراري، وجميع مذهبه المنجس، في جميع هذه الأشياء.

والعن ما جاء به محمد من السب في الله، حيث يقول: إنه يُضلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء، وأن الله لو شاء لقتل بعضنا بعضًا، وأنه يفعل ما يريد، وأنه فاعل الخير والشر معًا. وهكذا الصدفة والبخت، هما المؤثران في كل شيء.

والعن أكذوبة محمد التي يقول فيها: إن سيدنا وإلهنا عيسى اليسوع هو ابن مريم أخت موسى وهارون[١]. وأنه ما وُلِد من اللحم، بل حملته أمه من روح الله، وأنه قلد الطيور لما كان صبيًا من الطين، ونفخ فيها، فصارت حية.

والعن مذهب محمد الذي يقول فيه: إن المسيح ليس ابن الله، بل نبي الله ورسوله؛ لأنه ليس لله شريك، وإن الذين يقولون: إن المسيح شريك الله، سيعذبون في نار جهنم.

والعن قول محمد: إن الله في مكة بيتًا للصلاة، بناه إبراهيم وإسماعيل، يسمونه الكعبة. ويأمر بأن المصلين يولون وجوههم قبله أينما كانوا. والعن ذلك المعبد نفسه، الذي يقولون: إن في وسطه حجرًا كبيرًا، يمثل الزهراء[٢]. ويقدسون هذا الحجر، كما يقدسون الحجر، الذي يقال بأن إبراهيم تعرف عليه بهاجر، أو عَقَل فيه جمله لمَّا أراد أن يُقرِّب إسحاق[٣]. وبأن الذين يزورون هذا المعبد، يضعون إحدى اليدين فوق الحجر، ويمسكون الأذن بالثانية، ثم يدورون حوله حتى يأخذهم الدوار، فيخرون إلى الأرض[٤]. والعن مكة ذاتها، وأرضها كلها، والحجارة السبعة التي يرميها فيها بنو سارة ضد المسيحيين[٥]، وجميع صلواتهم وعبادتهم وشعائرهم ومذاهبهم.

والعن قصة محمد في الناقة، التي يقول: إنها خصصت لله فعقروها، فانتقم منهم لأجلها. والعن الذين يعبدون نجم الصباح- أعني بها الزهراء، والشعري

---

[١] لم يقل رسول الله محمد ﷺ ذلك.

[٢] كذب.

[٣] أمر الله إبراهيم أن يُقرب إسماعيل، لا إسحاق.

[٤] كذب.

[٥] من المعلوم أن المسلمين يرجمون بهذه الحجارة إبليس اللعين. فما صلة المسيحيين بإبليس؟!

التي يسمونها الكبرى[١].

وألعن جميع قواعد محمد التي يشتم فيها النصارى ويقول: إنهم كافرون ومشركون. ويُهيِّج بني سارة على قتلهم وإبادتهم. ويقول: إن مقاتلتهم هي طريق الله، وإن مَن مات مِن بني سارة في محاربتهم، يكونُ من أبناء الله، ولهم الجنة.

وألعنِ تعاليم محمد النجسة في الصلاة، حيث يقول: إن مَن لم يجد ماء، فليأخذ ترابًا دقيقًا، ويمسح به وجهه ويديه. وألعن قول محمد: إن الإنسان خلق من طين، وقطرة ماء، ودود الحكمة، ومادة متأكلة[٢].

وفوق ذلك كله ألعن إله محمد، الذي يقول عنه: إنه إله فرد، كامل لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد[٣].

وعليه ألعن ما تقدم كله، ومحمدًا نفسه وإلهه الكامل، وأبتعد عنه، وألتحق بالمسيح، وهو الحق وحده. وأعتقد بالآب، والابن، والروح القدس.

ثم يتبع ذلك تلخيص المذهب المسيحي. ويختم المريد الصيغة بالعبارة التالية:

وإذا كنت أقول ما أقول عن غش، أو خيانة، لا عن اعتقاد ويقين، وقلب يحب اليسوع، فعليَّ اللعنة، ولتكن روحي مع الشيطان.

---

[١] المسلمون لا يعبدون إلا الله، وحده لا شريك له.

[٢] هذا كذب على نبي الله محمد ﷺ.

[٣] سبحان ربك رب العزة عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا. يتدينون بالتثليث، وتجسد الله في صورة بشرية. ثم يلعنون التوحيد، وتنزيه الله عن كل نقص وسوء، بل يلعنون الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. فلم يكفهم أن سبوا الله بأن جعلوا له الصاحبة والولد، حتى لعنوه لعنا مباشرًا. ولم يفعل المشركون عبَّاد الأصنام ذلك. فلعنة الله على الكافرين.

(الملحق الرابع)

"قتلى مراكش"

أصحُّ تاريخ عن المرسلين الخمس، الذين قُتلوا في مراكش (يوم ١٦ يناير، سنة ١٢٢٠م)، هو ما كتبه قس مدينة لسبون، ورئيس اليسوعيين، الذين يقال لهم القصر، بناء على شهادة رجل حضر الواقعة، وكان من أركان حرب "دون بدور".

ونحن ننقل ملخصًا عن تاريخ القديس "فرنسوا داسيز"، الذي ألفه القس "مونبيه":

كان وصول البعثة إلى مدينة أشبيلية من الأراضي الإسلامية. وبقي المرسلون مختفين ثمانية أيام بمنزل أحد المسيحيين، ثم قويت عزائمهم بالصلاة، وأرادوا أن يبدءوا رسالتهم بعمل عظيم؛ لذلك خرجوا إلى مسجد، اجتمع فيه المسلمون للصلاة. فلما رآهم المصلون ظنوا أنهم من المجانين؛ لَما هم عليه من اللباس الغريب، فاكتفوا بطردهم من الجامع بالعنف. فذهبوا إلى مسجد أكبر من الأول، فلاقوا فيه مثل ما لاقوا في الأول، وحسبوا أن عدم نجاحهم مسبب عن كونهم لم يبدءوا بأعلى مكان في المدينة. وقال بعضهم لبعضهم: علينا بالرئيس، فإن أصغى إلينا، سهل انقياد مرءوسيه.

ثم توجهوا إلى قصر الحاكم، وزعموا أنهم مرسلون من قبل ملك الملوك، وأخذوا يعظون من فيه ضد محمد (ﷺ). ولم يمسسهم أحد بسوء، حتى إذا سمعهم الحاكم، عجب من جرأتهم، وأمر أن تقطع رءوسهم، فشفع فيهم لديه ابنه.

وتبدَّل الأمر بسجنهم في أحد الحصون. فلما صاروا بداخله، صعدوا إلى منصته، وجعلوا يلقون وعظهم على المارة غير مبالين، فصدر الأمر بنفيهم إلى بلاد مراكش، مع عدد من المسيحيين. ففرحوا مستبشرين بكونهم سينشرون علم الصليب في بلاد الكافرين. وكان يوم نزولهم على تلك البلاد يومًا عصفت فيه العواصف، فظنوا أن الله كتب لهم النصر في تلك البقاع.

وكان "دون بدور"، أخا الفنس ملك البرتغال، قد اختلف مع أخيه، فرحل إلى

بلاد مراكش، واحتمى فيها بظل أمير المؤمنين علي بن يوسف، الذي حكم من سنة ١١٠٦م، إلى سنة ١١٤٣م. وكان من عادته الاحتفاء بالمسيحيين، وتقليدهم أعلى المناصب، حتى اختار له منهم حرسًا عدده ألف نفر.

وكان "دون بدور" معروفًا بالبسالة وحسن السمعة، فمالت إليه القلوب، وولاه الملك على نصرانيته قيادة الجنود الإسلامية، وكان متمسكًا بتقاليد عائلته، فلم يخف من استقبال المرسلين على مشهد من الناس، ووعدهم معونته، وسألهم أن يكونوا في أمرهم متبصرين؛ حتى لا يصيبهم السوء. فوعدوه وكانوا في وعدهم صادقين، ولكن جاش بهم حب رسالتهم، فلم يتمالكوا أنفسهم، بل خرجوا من اليوم التالي، وجعلوا يعظون الناس بدين اليسوع في الطرقات.

وبعد أيام، صعد أحدهم على عربة، وبينما هو يخطب في الناس بالعربة، إذ مرَّ به الملك، ذاهبًا لزيارة أضرحة أجداده، فعوضًا عن أن يسكت الخطيب، وكان اسمه الأخ "بيرار"، كما كان يفعل المسلم نفسه، ضاعف في الوعظ، واشتدت لهجته. وهو عمل لا يستطيع أحد أن يأتيه هذه الأيام في بلاد مراكش؛ لأن المسلمين يقطعونه إربًا؛ غير مبالين بما عساه يصيبهم من نقمة المسيحيين. ذلك لأن مسالمة المسلمين للمسيحيين في القرون الوسطى أيام التمدن الإسلامي، كانت أكبر منها في هذه الأيام.

فلما علم الملك إنهم مسيحيون، وأنهم يدعون الناس إلى دين المسيح، غضب من وقاحتهم، وأمر بإرجاعهم إلى بلادهم. فحزن "دون بدور" لهذا الأمر. ولكنه لم يقع عنده موقع الاستغراب، ولم يمنع عن المرسلين مساعدته، بل أصحبهم برجال من عنده إلى الثغر الذي يركبون البحر منه، فهرب المرسلون من أصحابهم، ودخلوا مدينة مراكش مرة ثانية.

ونَما خبر عودتهم إلى أمير المؤمنين، فرأى من عملهم امتهانًا لسلطته، وأمر بزجهم في السجن. فقضوا فيه عشرين يومًا، مضيقًا عليهم أشد التضييق، ثم شفع فيهم "دون بدور"، فاستصحبهم الملك في جيش، خرج به لمحاربة بعض القبائل المتمردة، بصفة وعاظ للمسيحيين الذين معه، فلما عادوا إلى مراكش، استأنفوا الدعوة، ولم يقتصروا على عامة الناس في الأزقة والطرقات، بل صاروا ينتظرون الأمير في ممره، ويدعونه إلى دين المسيح. فرأى أنهم لن يعدلوا عن غيِّهم، وأمر أحد قواده- وهو أبو زائدة- بإعدامهم. واجتهد أبو زائدة في ردِّهم عن فعلهم، فلم

يفلح؛ لذلك أنفذ فيهم أمر سيده في ١ يناير سنة ١٢٢٠م.

****

مقابلة القديس فرنسوا داسيز
مع سلطان مصر
في معسكر دمياط سنة ١٢١٦م

كان القديس فرنسوا داسيز مغرمًا بحب الدعوة إلى الدين المسيحي، وعلى الخصوص بإدخال الإنجيل في البلاد الإسلامية؛ ولذلك فإنه استصحب الأخ إيلوميني. ولحقا بجيش "حنا دي بريان"، المقيم على مقربة من مدينة دمياط، في الحرب الصليبية الخامسة.

وبعد أن أقام فيه أيامًا، عزم على التوجه إلى معسكر السلطان، فأشاروا عليه بالعدول عن عزمه؛ لما في ذلك من الخطر عليه. فلم يقبل مشورتهم، وذهب مع رفيقه إلى القس المصاحب لجيشهم؛ كي يخبره بما عزم عليه، ويطلب منه أن يصرِّح لهما بالذهاب حيث أرادا، فامتنع من إجازتهما، وقال لهما: إنه على يقين من أنهما لن ينجوا إذا ذهبا. ولمَّا رأى أنهما مُصران على الذهاب. قال لهما: إنه لا يعرف مغزى أفكارهما. وطلب منهما أن يكونا على الدوام متمسكين بالعذراء. فأجابا بالقبول.

وتوجها من فورهما إلى معسكر السلطان. وظنَّ مَن قابلهما من المسلمين أنهما خديعة. فلمَّا فهما من إشاراتهما أنهما يريدان نشر الإنجيل بين بني سارة، زجُّوهما في السجن، وجلدوهما ضربًا بالعصى. وكان القديس فرنسوا داسيز يصيح قائلا: سودان. سودان.

وهي اللفظة الوحيدة التي كان يعرفها. وأصلها صلادان. وهذه تحريف سلطان. ثم انتهى أن تمكن من تعريفهم مقصده في مقابلة السلطان، فمثلا بين يديه، وهو الملك الكامل، خامس الأمراء من الأيوبيين، حكم (من سنة ١٢١٨، إلى سنة ١٢٣٨م). فسلما عليه، وسلم عليهما. وسألهما إن كانا يريدان الدخول في الإسلام، أو أنهما أقبلا برسالة من قبل أميرهما. فقالا: إنهما لن يريدا الإسلام أبدًا. وإنما أتيا برسالة من الله؛ لكي تنجو حياة السلطان إن أراد اتباع نصحهما، وأنه إن

مات على دينه فهو هالك، وأنهما يبيِّنـان لـه بالعقـل والبرهـان، أن المسـلمين إذا استمروا على شرائعهم، فجميعهم هلكى!

فقال لهما السلطان: إن لديه قسًّا ورهبانًـا[١]، لا يمكنـه أن يسـمع قولهمـا بـدون حضورهم. فأشاروا عليه بدعوتهم. فلما صاروا بحضرته مع كـبراء قومـه وأعيـان مملكته، أخبرهم بالأمر، فأشاروا عليه- باسم محمد- أن يقطع رأسـيهما؛ لأنهـم لا يصدقون ما يقولان؛ عملا بالكتاب الذي يُحرم سماع الوعظ من غـير المسـلمين. وانصرفوا من عنده، فلما خلى السلطان بالرسولين قال لهما: إن المسلمين أشـاروا عليه بقطع رأسيهما، ولكنـه يخـالف مشـورتهم، ويخلـي سـبيلهما؛ لأنهمـا جـاءا ليخلصا روحه من الهلاك!

---

[١] يقصد علماء الإسلام ومشايخه.

(الملحق الخامس)

تعدد الزوجات في الإسلام
(نقلا عن أحد المفسرين)

فسَّرَ الخازن[١]، وهو من أشهر مفسري القرآن، وله رأي معدود لدى المسلمين، الآية التالية على ثلاث طرق. وهي الآية الثالثة من السورة الرابعة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾ (النساء: ٣).

التفسير الأول: قال عروة- نقلا عن عائشة- رضي الله عنها: إن الله أراد أن يمنع زواج اليتامى، اللاتي تحت وصاية حموهن، بمن يطمع في جمالهن وأموالهن، ولا يعطيهن من الصداق ما يليق بهن؛ تواطئًا مع الأوصياء. ولذلك أمر المؤمنين أن يختاروا نساء أقل جمالا، وأقل مالا، يليق بهن ما يقدمون لهن من الصداق، إلا إذا كان الخاطب قادرًا على صداق المثل.

التفسير الثاني: روى الحسن أنه كان بمكة أوصياء على أقاربهم من النساء، يجوز لهم أن يتزوجوا منهن. وكانوا لا يرغبون فيهن، إلا حبًا في أموالهن، لا ميلا لجمالهن؛ لأنهن لم يكن ليعجبنهم. وكان للأوصياء نصيب شائع في تلك الأموال، ويخشون تداخل غيرهم من ذوي القربى بينهم. فيتزوجوهن، ويسيئون معاملتهن حتى يقضى عليهن، فيختصمون بما كان لهن من المال. فأراد الله أن يرجع الناس عن ذلك، وأنزل الآية المشار إليها.

التفسير الثالث: قال عكرمة، عن ابن عباس: إنه كان في قريش مَن يتزوج بعشر نساء، وأكثر، وكان حالهم يؤول إلى الفقر؛ لما تستدعيه لوازم معيشة تلك

---

[١] في الأصل: ابن الخازن. والصحيح الخازن. وهو أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي. وتفسيره اسمه: لباب التأويل في معاني التنزيل.

الزوجات، فيتصرفون في أموال القصَّر، مِن البنات اللاتي كن تحت وصايتهن. فملافاة لهذا الضرر، وهو الفقر من جهة، وضياع أموال اليتامى من جهة أخرى، أمَرَ الناس أن لا يتزوجوا بأكثر من أربع نساء؛ لذلك نزلت الآية الثانية من السورة المذكورة، تأمر برد أموال اليتامى إليهن، متى بلغن الرشد.

هذا هو الذي رواه الثقاة، ولا يباح لمسلم أن يتزوج بأكثر من أربعة. فإن ذلك مُحرَّم قطعًا. ثم لا يجوز له أن يتزوج بأربعة، إلا إذا كان قادرًا على رزقهن.

(الملحق السادس)

مقدمة الشيخ الشعراني

يرى المسيحيون- على الدوام- في تعدد الزوجات عند المسلمين، انهماكًا منهم في الشهوات واللذائذ الجسمانية. وهو وهْمٌ، لا حقيقة له، وخطأ في معرفة أخلاق الشرقيين. فقد قلنا: إن تعدد الزوجات عند بعضهم، أمرٌ تقتضيه وجاهتهم بين قومهم، كما كان ذلك معروفًا عند الجرمانيين. وكثير من الذين لهم أكثر من زوجة، يعيشون عيشة كمال، وتقى ووقار.

وليسمح لي القراء: أن آتي على طرَف من مقدمة الشيخ الشعراني، التي صدَّر بها كتابه ميزان الشريعة؛ تأييدًا لما أقول:

"لقد خصَّني الله أن: وُلِدْتُ مِن نسلٍ كريم. ولكن الشرف مزيَّة باطلة، بلا خوف الله ورهبته. وقد خصني الله بمواهبه منذ نعومة الأظفار، فحفظت القرآن عن ظهر قلبي، ووعيته بأكمله في الثامنة من عمري. وكنت أؤدي الصلاة بأوقاتها، لا أؤخر منها واحدة بغير إرادتي. واتفق لي مذ كنت صغيرًا، أني كنت أتلو القرآن بتمامه في صلاة واحدة. وقد منَّ الله عليَّ، فحفظني من نزغات الشهوات، التي تثور في الإنسان من يوم بلوغه الحلم، إلى أن بلغت الثلاثين. فكنت أرغب عن موجبات التلذذ، وأستعمل أوقاتي في اكتساب العلم. وقليل من الناس حفظوا أنفسهم زمنًا طويلا مثلي.

فالحمد لله الذي حفظني حتى تزوجت. فاحفظوا أنفسكم مطهرين؛ إيقانًا بلطف الله وحسناته، لا اعتمادًا على أنفسكم. ولكن إذا رأيتم أن الشهوة ستغلبكم، فتزوَّجوا، ولو استدنتم في سبيل الزواج؛ كي تنجو من الضرر. وإذا قدَرْتم فصوموا، فهو أولى بكم من الزواج مع الاستدانة. وقد أوصى عليٌّ الخواص غير المتزوجين بالجوع، وكثيرًا ما كان يعطي الأعزب حبلا يشد به بطنه، فلا يشعر بحاجة إلى اللذة، ما دام بطنه مشدودًا.

وقد وهبني الله أربع نساء فاضلات. هن: زينب، وحليمة، وفاطمة، وأم الحسن.

كلهن قائمات بواجباتهن. تحب النظافة والصلاة. وأكثرهن في التقى فاطمة أم الحسن. وكثيرًا ما كانت فاطمة تقف خلفي في الصلاة. وكنا نقرأ في الصلاة رُبْع القرآن. وهي لا تتركني إلا إذا بكى ابنها، ولم يكن عنده من يقوم مقامها. وكانت لا تذهب إلى وليمة، ولا تحضر عرسًا؛ لفرط كمالها؛ وشدة وقارها. وأصابها يومًا رمدٌ، فحال كمالها بين الطبيب، وبين رؤية عينها، ولم نفلح في إقناعها. ثم شفي المرض، ولكن زاوية العين الداخلية ضاقت، فخالفت العين أختها، وكانت تفضل ذلك على كشف عينها للطبيب.

وكانت نسائي الأربعة تشجعني على فعل الخير، وتعينني عليه، وتدفعني إلى إيصال الصدقات للمعوزين.

(الملحق السابع)

(البشارة بمحمد ﷺ في الكتاب المقدس)

يعتقد المسلمون أن الآية الآتية، المذكورة في الكتاب الخامس من التوراة، تشير إلى محمد (ﷺ)، وتنبئ برسالته. وهي:

"جاء الرب من طور سيناء، وتجلى لنا في ساعير، وظهر في "فاران"[١].

فسيناء هو جبل الوحي على موسى، وساعير جبل في بلاد المقدس، وهو مهبط وحي المسيحيين، وفاران ببلاد العرب، مهبط القرآن[٢].

قال أبو الحسن علي الهراوي، وهو سائح عربي في القرن الثاني عشر، في رحلته: "ناصرة" هي المدينة التي فيها بيت مريم بنت عمران، الذي ولدت فيه.

وسُمِّي المسيحيون نصارى، تبعًا لاسم المدينة المذكورة. وهي على مقربة من جبل ساعير[٣].

وفي القسم الأول من التوراة، ذكر موسى وعيسى ومحمد ﷺ؛ لأنه مذكور فيه:

---

[١] التثنية ٣٣:٢ "فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة لهم".

[٢] يقول ياقوت الحموي: "جاء من سينا: يريد مناجاته لموسى على طور سينا. وأشرق من ساعير: إشارة إلى ظهور عيسى ابن مريم ﷺ من الناصرة. واستعلن من جبال فاران، وهي جبال الحجاز: يريد النبي عليه الصلاة والسلام" (معجم البلدان ٣/١٧١).

[٣] يقول ياقوت الحموي: "الناصرة: قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا. فيها كان مولد المسيح عيسى ابن مريم ﷺ. ومنها اشتق اسم النصارى (معجم البلدان ٥/٢٥١).

"أتى الله من سيناء، وأراد أن يمجده موسى على ذلك الجبل"[١].

ومذكور فيه أيضًا:

"وأظهر في ساعير علامة باهرة، تدل على أن عيسى سيظهر في ناصرة المقدسة".

وفيه أيضًا:

وأظهر في جبال "فاران" علامة، يُعرف بها أن محمدًا بعث رسولا"[٢].

هذا هو كلام التوراة.

((انتهى))

[١] خروج ١٩:٢٠ "ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل. ودعا الله موسى إلى رأس الجبل. فصعد موسى".

[٢] وهذه نبوءة أيضًا بمحمد ﷺ: حبقوق ٣:٣ "الله جاء من تيمان، والقدوس من جبل فاران. سلاه. جلاله غطى السموات والأرض. امتلأت من تسبيحه".

المراجـع

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس، نسخة إلكترونية.

كتب التفسير:

١. تفسير ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ).

٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٣. محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي، بعناية: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٨هـ.

كتب الحديث:

١. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٣. السلسلة الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.

٤. سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ)، تعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٥. سنن البيهقي الكبرى: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٦. سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح: أبو عيسى محمد بن عيسى بن

سورة الترمذي (٢٧٩هـ)، حققه وصححه: عبد الوهاب عبد اللطيف، وعبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

٧. سنن سعيد بن منصور: سعيد بن منصور بن شعبة الخرساني (٢٢٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية، الهند، ١٩٨٢.

٨. سنن الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (٢٥٥هـ)، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، الريان، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٩. سنن النسائي، المجتبى من السنن: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي (٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط٢، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٠. سنن ابن ماجة، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

١١. شعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ.

١٢. صحيح ابن حبان، بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٣. صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٤. صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

١٥. المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

١٦. مسند أبي يعلى: أحمد بن علي، أبو يعلى الموصلي التميمي (٣٠٧هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١٧. مسند الإمام أحمد: أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ)، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

١٨. مسند الشافعي: محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩. مصنف عبد الرزاق: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٤٠٣هـ.

٢٠. المصنف في الأحاديث والآثار: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ.

٢١. المعجم الأوسط: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق عوض الله محمد، وعبد المحسن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

٢٢. المعجم الكبير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

٢٣. الموطأ: مالك بن أنس، تخريج وتعليق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي، القاهرة.

كتب العقائد والملل:

١. إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات: محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤.

٢. الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث: أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠١هـ.

٣. إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق من أصول التوحيد: محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

٤. الرد على القائلين بوحدة الوجود: علي بن سلطان محمد الهروي المكي الحنفي، تحقيق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، دار المأمون للتراث، دمشق،

١٩٩٥م.

٥. كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تحقيق وتعليق: د.علي بن محمد الدخيل الله، ط٣، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٦. الفصل في الملل والأهواء والنحل: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الطاهري، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٧. الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٨. كتاب المواقف: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: د.عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٧.

القواميس والمعاجم:

١.القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٢. لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت.

٣. مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٤. معجم البلدان: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (٦٢٦هـ)، دار الفكر، بيروت.

كتب أخرى:

١.البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، مكتبة المعارف، بيروت.

٢. الفتاوى الكبرى: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ.

مواقع الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت):

١. موقع رابطة أدباء الشام.
٢. موقع ويكيبيديا WIKIMEDIA project، الموسوعة الحرة.
٣. balagh.com.
٤. موقع جريدة القاهرة.
٥. (موقع وزارة الخارجية الأمريكية- مكتب برامج الإعلام الخارجي usinfo.state.gov).
٦. موقع جريدة أخبار الأدب.

المحتويات

الإسلام
خواطر وسوانح

صدر من سلسلة نافذة على الغرب

I.S.B.N. 977-436-131-8



مكتبة النافذة